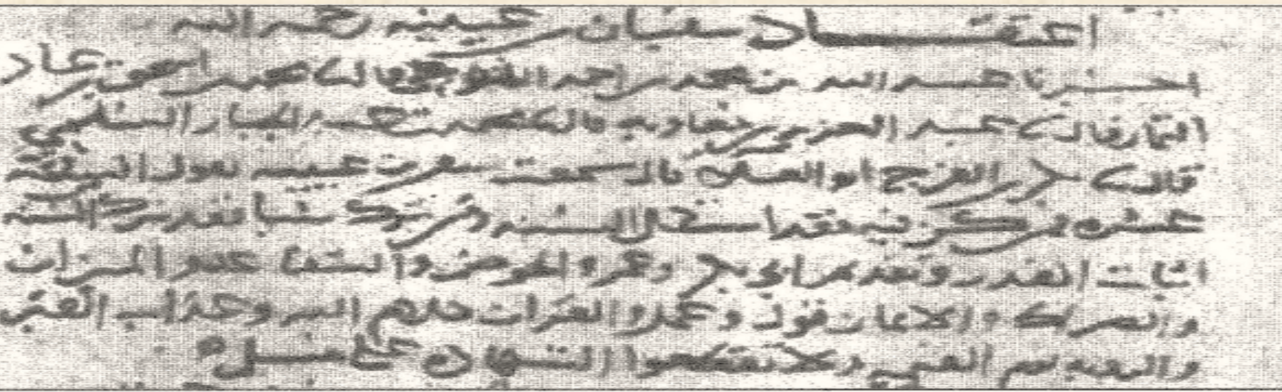
سلسلة شرح متون الاعتقاد عند أئمة السلف

شرح اعتقاد

سفيان بن عيينة رحمه الله


اعتقاد سفيان بن عيينة رحمه الله

تأليف: أ د. محمد بن خليفة التميمي

سلسلة شرح متون الاعتقاد عند أئمة السلف

شرح اعتقاد
سفيان بن عيينة رحمه الله

أ د. محمد بن خليفة التميمي


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

الحمد لله نحمده، ونَستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيِّئات أعمالنا، مَن يَهده الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحْده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: الآية: ١٠٢].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: الآية: ١].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: الآيتان: ٧٠ – ٧١].

أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وأحسنَ الهَدْي هدي محمدٍ–صلى الله عليه وسلم–، وشرَّ الأُمُور مُحدثاتها، وكلَّ مُحدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار.

فهذا شرح لاعتقاد الإمام سفيان بن عيينة–رحمه الله–وقع اختياري عليها ضمن مشروع شرعت فيه لشرح متون الاعتقاد، فقد سبق–بحمد الله–انتهيت من شرح المتون الآتية:

١–أصول السنة للإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ).

٢–رسالة الإمام أحمد بن حنبل إلى مسدد بن مسرهد.

٣– أصول أهل السنة لعبد الله بن الزبير لحميدي (ت: ٢١٩ هـ).

٤- شرح السنة للإمام أبي محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري (ت: ٣٢٩ هـ).

٥-شرح اعتقاد أهل السنة أهل الحديث لأبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني (ت: ٤٤٩ هـ).

٦-شرح اعتقاد سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (ت: ١٦١ هـ).

٧- شرح اعتقاد عبد الله بن المبارك بن وضاح المروزي (ت: ١٨١ هـ).

٨- شرح وصية بمجمل اعتقاد السلف للإمام الشافعي (ت: ٢٠٤)
-رحمهم الله جميعًا-، والعمل جار على شرح متون أخرى للمتقدمين من سلف هذه الأمة.

ويهدف هذا المشروع إلى التعريف بتلك المتون، وشرح مضامينها وما حوته من مسائل تتعلق بأصول الاعتقاد، وربط طلاب العلم بها، وحثهم على التفقه فيها، والنهل من معينها الصافي الذي لم تشوبه أو تكدره الأهواء والبدع، فهذه الرسائل تحمل الميراث المتوارث الذي حمله أولئك العلماء الأفذاذ لهذه الأمة، فهو جدير بالاهتمام والعناية.

وقد كان عملي في هذا الشرح وفق الأمور الآتية:

قسمت العمل إلى قسمين:

القسم الأول: القسم الدراسي.

وتضمن الأمور الآتية:

أولًا: ترجمة موجزة للإمام سفيان بن عيينة.

ثانيًا: مصــادر التي أوردت ذكر هذا المتن، والدراســات التي جمعت كلام الإمام ســفيان بن عيينة في الاعتقاد.

وأما القسم الثاني: شرح متن اعتقاد سفيان بن عيينة.

وقد سلكت في هذه الشروح مسلك البسط والتوسع في بيان المسائل، وليس مسلك التعليق المختصر لقناعتي بأن غالب من يطلع على هذه الشروح هم من المبتدئين من الطلبة، وهذا الصنف لديه الرغبة والهمة في معرفة ما يتعلق بهذه المسائل من تفاصيل وتفريعات، كما أن للتعليق بابه الذي يصلح له، فهو يصلح لمن يسلك مسلك قراءة بعض الكتب على بعض العلماء ومن ثم التعليق المختصر على مواطن من تلك الكتب، وأما شرح الكتب فله بابه الذي يتميز به، وللأسف الشديد أن البعض لا يفرق بين الأمرين.

وقد اجتهدت وبذلت ما في وسعي في شرح هذا المتن، يبقى مع ذلك أن عملي هذا جهد البشر يعتريه النقص والخلل، فأرجو أن أكون قد أصبت بما كتبت، وإن كان الأمر على خلاف ذلك فأرجو على المطلع على ذلك الخلل والنقص أن يرشدني لذلك لعلي أستدركه، قال ابن رجب الحنبلي -رحمه الله-: "يَأبى اللَّهُ العِصمةَ لكِتابٍ غَيرِ كِتابِه، والمنصِفُ مِنِ اغتَفَرَ قَليلَ خَطَأِ المرءِ في كَثيرِ صَوابِه". [١]

١ تقرير القواعد وتحرير الفوائد (١/ ٥٦).

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل ويبارك فيه ويجعله خالصًا لله تعالى، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القسم الدراسي

أولًا: ترجمة موجزة للإمام سفيان بن عيينة–رحمه الله–.

ثانيًا: المصـــادر التي أوردت ذكر هذا المتن، والدراســـات التي جمعت كلام الإمام سفيان بن عيينة في الاعتقاد.

أولًا: ترجمة سفيان بن عيينة

أولًا: اسمه ونسبه.

هو سـفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي، ثم المكي، مولى محمد بن مزاحم ، وقيل: هو مولى عبد الله بن رويبة من بني هلال بن عامر بن صعصعة [١]، رهط ميمونة زوج النبي-صلى الله عليه وسلم-.[٢]

ثانيًا : كنيته ولقبه.

كان الإمام سفيان بن عيينة-رحمه الله-يكنى بأبي محمد الهلالي الكوفي، ثم المكي.

ولقب بشيخ الإسلام [٣] محدث الحرم المكي وشيخ الحجاز. [٤]

ثالثًا: ولادته ونشأته.

ولد الفقيه سـفيان بن عيينة-رحمه الله-بمدينة الكوفة، سـنة سـبع ومائة هجرية، وكان والده عيين يكنى أبا عمران وكان من عمال خالد بن عبد الله القسري، فلما عزل عن العراق، وولي يوسـف بن عمر الثقفي طلب عمال خالد فهربوا منه، فلحق عيينة بمكة فنزلها[٥]، وقيل: بأن جده ميمون هو المكنى بأبي عمران وهو الذي كان من عمال خالد في العراق ثم هرب فنزل مكة.

وفي رواية لسفيان يقول: "كان أبي صيرفيا بالكوفة، فركبه دين فحملنا إلى مكة". [٦]

كان لسـفيان بن عيينة تسـعة إخوة حدث منهم أربعة عمران بن عيينة، وإبراهيم بن عيينة، وادم بن عينة، ومحمد بن عيينة. [٧]

رابعًا: طلبه للعلم.

يُعَدُّ سفيان بن عُيَيْنَة من تابعي التابعين من الطبقة الخامسة من أهل مكة. [٨]

---

(١) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٤٤).

=

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٣٩١).

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٥٩).

(٤) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٤).

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٣٩٣).

(٦) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٤).

(٧) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢٤).

(٨) صفوة الصفوة لابن الجوزي (ص: ٣٨٣).

حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين. (١) وكتب الحديث وهو ابن سبع (٢)، وطلب العلم في سِنٍّ مُبكِّرة، حيث سمَّع في سنة ١١٩ هجريّة، و١٢٠ هجريّة وبعد ذلك، (٣)، وقال عنه الذهبي سمع وهو صغير بل وهو غلام(٤) قال عن نفسه: "أول من جالست من الناس عبد الكريم أبو أمية، جالسته وأنا ابن خمس عشرة سنة" (٥) وقال: "جالست عبد الكريم الجزري سنين، وكان يقول لأهل بلده انظروا إلى هذا الغلام يسألني، وأنتم لا تسألوني". (٦)

أقام بمكة وعمره ١٥ سنة، منذ ١٢٢ هـ حتى ١٢٦ هـ، ثم خرج إلى الكوفة.(٧) لقي الزهري وهو ابن ١٦ سنة وشهرين ونصف (٨) وقال عنه الزهري: "ما رأيت طالبًا لهذا الأمر أصغر منه". (٩)

خامسًا: نبوغه في العلوم

لَقِيَ الكبار من التابعين، وحمل عنهم عِلمًا جمًّا، وأتقن، وجوَّد وجمع وصنَّف، وعمَّر دهرًا، وازدحمَ الخلق عليه، وانتهى إليه علوُّ الإسناد-لأنه تجاوز التسعين سنة-،ورُحل إليه من البلاد، وأَلحَقَ الأحفاد بالأجداد، فقد طال عمر سفيان وظل إمامًا لمكة أربعين سنة، فكان يروي عنه الرجل ثم يروي عنه ابنه، ثم يروي. عنه حفيده، وكُتِب عنه الحديث سنة اثنتين وأربعين وهو ابن خمسٍ وثلاثين سنة، وكان حديثه نحو سبعة آلاف حديث (١٠)

إلا أنه لم يعتن بالفقه والاجتهاد كالإمام مالك الذي قصد بلادا كثيرة للفتوى، فلقد توفَّرت في سفيان آلة الفتوى كاملة، غير أنه كان يكف عنها ورعًا، إذ قال عنه الشافعي: "ما رأيت أحدًا فيه من آلة الفتيا ما في سفيان، وما رأيت أكف عن الفتيا منه". (١١)

"لذلك لا يوجد له كتبٌ في الفتوى والاجتهاد ولم يُدَوِّن فقهَه أحدٌ من تلاميذه، غير بعض من الآراء الفقهية المنتشرة في بطون الكتب.

قال علي بن المديني: "كان سفيان إذا سئل عن شيء يقول: لا أُحسن؛ فيقول: من يُسأل؟ فيقول: سل العلماء، وسل الله التوفيق". (١٢)

سادسًا: شيوخه.

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٢٠).

=

(٢) تقريب التهذيب (ص: ٧٥١).
(٣) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٤).
(٤) سير أعلام النبلاء (٨/ ٨٦٤).
(٥) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٢٠).
(٦) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٩).
(٧) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٥٦).
(٨) التاريخ الكبير للبخاري (٥/ ١٠٨) .
(٩) التاريخ الكبير للبخاري (٥/ ١٠٩) .
(١٠) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٥٠).
(١١) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٣٩٢)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٦).
(١٢) حلية الأولياء (٦/ ١٢٠)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٢٢).

لسفيان بن عيينة من الشيوخ من لا يكادون يحصون كثرة، وكلهم من التابعين، فلا يكون بينه وبين الصـحابي إلا شـخص واحد ولا بينه ولا بين رسـول الله–صـلى الله عليه وسـلم–إلا شخصان: تابعي وصحابي، فلا يمكن أن يتصور حديث يروى بمثل هذا السنة إلا الصحة. وتمام الثقة بأنه من قول الرسول–صلى الله عليه وسلم–ولقي الكبار، وحمل عنهم علمًا جمًا، ومن أشهر شيوخه: (١)

ابن شهاب الزهري

عمرو بن دينار

زياد بن علاقة

الأسود بن قيس

عبيد الله بن أبي يزيد

عاصم بن أبي النجود

أبو إسحاق السبيعي

عبد الله بن دينار

زيد بن أسلم

عبد الملك بن عمير

محمد بن المنكدر

أبو الزبير

حصين بن عبد الرحمن

سالم أبي النضر

عطاء بن السائب

أيوب السختياني

العلاء بن عبد الرحمن

هشام بن عروة

حميد الطويل

يحي بن سعيد الأنصاري

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢٤)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٤).

أبو يعفور العبدي

ابن عجلان

ابن أبي ليلى

سليمان الأعمش

موسى بن عقبة

سهيل بن أبي صالح

حكيم بن جبي

أبو الزناد عبد الله بن ذكوان

إسماعيل بن محمد بن سعد

أيوب بن موسى

برد بن سنان

بكر بن وائل

بيان بن بشر

سالم بن أبي حفصة

أبو حازم الأعرج

سَمِيّ مولى أبي صالح

صدقة بن يسار

صفوان بن سليم

عاصم بن كليب الجرمي

عبد الله بن أبي بكر بن حزم

عبد الله بن طاووس

سابعًا: تلاميذه

يُعتبر ســـفيان بن عُيَيْنَة من كِبار العلماء في الإســـلام، فكان له الكثير من التلاميذ الذين أخذوا عنه العِلم، وكتبوا عنه الحديث منذ سنة ١٤٢ هـ، وهو ابن ٣٥ سنة. [١] ومن أبرزهم: [٢]

(١) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٤٦).

(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٤٥)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٥).

محمد بن إدريس الشافعي

أحمد بن حنبل

زهير بن معاوية

حماد بن زيد

إبراهيم بن سعد

عبد الله بن المبارك

عبد الرحمن بن مهدي

يحيي القطان

عبد الرزاق

الحميدي

سعيد بن منصور

يحيي بن معين

علي بن المديني

إبراهيم بن بشار الرمادي

أبو بكر بن أبي شيبة

محمد بن عبد الله بن نمير

إسحاق بن راهويه

الحسن بن محمد الزعفراني

الحسن بن الصباح البزار

عبد الرحمن بن بشر بن الحكم

محمد بن عاصم الثقفي

علي بن حرب

سعدان بن نصر

زكريا بن يحيي المروزي

بشر بن مطر

الزبير بن بكار

أحمد بن شيبان الرملي

محمد بن عيسى بن حبان المدائني

قال الذهبي: "ولقد كان خلقٌ من طلبة الحديث يتكلفون الحج، وما المحرك لهم سِـــوى لُقي سفيان بن عيينة؛ لإمامته، وعلو إسناده". (١)

ثامنًا: وفاته

الذي عليه أكثر المؤرخين، أنه توفي سنة ١٩٨ هجريّة، عشية السبت في آخر يوم من جمادى الآخرة.

وقيل في أول يوم من رجب (ليلة السبت)، وله إحدى وتسعون سنة، ودُفن بالحَجُونِ. (٢)

عاش إحدى وتسعين سنة من سنة (١٠٧ هـ) إلى سنة: (١٩٨ هـ).

ولم يتزوج: قيل لسفيان ألا تتزوج؟ قال: أتزوج امرأة تموت؟! ولهذا لم يعلم إنه تزوج قط، ولم يعلم إن له ولد. (٣)

تاسعًا: ثناء العلماء عليه

شهد كثير من العلماء والأئمة الثقات لسفيان بن عُيَيْنَة بالرِّيادة والإمامة في علوم الدين، وفيما يأتي طرف من أقوالهم فيه:

- قال مالك بن أنس: "رجل صاحب سنة". (٤)

---

(١) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٤٥)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٥).

(٣) حلية الأولياء (٧/ ٢٧٣).

(٤) البيان والتحصيل لابن رشد الجد (١٧/ ٨٨).

- قال الشافعي: "لولا مالك وسفيان بن عيينة لذهب علم الحجاز". [(١)]
- وقال: "ما أريت أحدًا أحسن تفسيرًا للحديث منه". [(٢)] ومن أقواله أيضًا: "تطلبت أحاديث الأحكام، فوجدتها كلها سوى ثلاثين حديثًا عند مالك، ووجدتها كلها سوى ستة أحاديث عند ابن عيينة". [(٣)]
- قال أحمد بن حنبل: "ما أريت أحدًا أعلم بالسنن من ابن عيينة". [(٤)] وقال: "ما رأينا نحن مثله". [(٥)]
- قال أبو حنيفة: "جاءكم حافظُ علمِ عمرو بن دينار". قال سفيان: "فجاء الناس يسألونني عن عمر بن دينار، فأول من صيرني محدثاً أبو حنيفة". [(٦)]
- قال عبد الله بن وهب: "ما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله من ابن عيينة". [(٧)]
- قال أبو غسان النهدي: "ما كان أكيسه". [(٨)]
- قال أحمد العجلي: "كان ابن عيينة ثبتًا في الحديث، وكان حديثه نحوًا من سبعة آلاف، ولم تكن له كتب". [(٩)]
- قال بهز بن أسد: "ما رأيت مثل سفيان بن عيينة". [(١٠)]

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٥).
(٤) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٥٥).
(٥) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٥٥).
(٦) وفيات الأعيان (٢/ ٣٩٣).
(٧) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٥٤).
(٨) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٥٥).
(٩) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٦).
(١٠) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٥١)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٦).

- قال يحيى بن معين: "أثبت الناس في عمرو بن دينار ابن عيينة". (١)
- قال ابن مهدي: "عند ابن عيينة من معرفته بالقرآن وتفسير الحديث وغوصه على حروف متفرقة يجمعها ما لم يكن عند الثوري". (٢) وقال: "كان ابن عيينة من أعلم الناس بحديث الحجاز". (٣)
- قال سفيان الثوري لما سئل عن ابن عُيَيْنَة: "ذاك أَحَدُ الأَحَدِينَ". (٤)
- قال يحي القطان: "ما بقي من معلميَّ الذين تعلمت منهم غير سفيان بن عيينة، وهو إمام القوم منذ أربعين سنة". (٥)
- قال علي بن المديني: "ما في أصحاب الزهري أحد أتقن من سفيان بن عيينة". (٦)كما نقل إجماعًا في الثناء عليه، قائلًا: "أما أنا فإني أقدم سفيان بن عيينة... الذي سمع سماعًا لا يشك فيه، ولم يتكلم فيه أحد، ولم يطعن فيه طاعن...". (٧)
- قال بشر بن المفضل: "ما بقي على وجه الأرض أحد يُشبه سفيان بن عيينة". (٨)
- قال نعيم بن حماد: "ما رأيت أحدًا أجمع لمتفرق من سفيان بن عيينة". (٩)

---

(١) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٥٢)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٦).
(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٥٤)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٦).
(٤) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٥٢)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٨).
(٥) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٥١)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٨).
(٦) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٥١)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٦).
(٧) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٤٩).
(٨) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٥١)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٨).
(٩) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١٨).

- قال أبو حاتم الرازي : "سفيان بن عيينة، إمام، ثقة، كان أعلم بحديث عمرو بن دينار من شعبة". قال: "وأثبت أصحاب الزهري هو ومالك". (١)
- قال عبد الرزاق : "ما رأيت بعد ابن جريج مثل ابن عيينة في حسن المنطق". (٢)
- قال الذهبي: "كان سفيان –رحمه الله– صاحب سنة واتباع". (٣)

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٢٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٢٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٢١).

ثانيًا: مصــادر التي أوردت ذكر هذا المتن، والدراســات التي جمعت كلام الإمام ســفيان بن عيينة في الاعتقاد.

١-ورد هذا النص في كتاب شـرح أصـول اعتقاد أهل السـنة والجماعة للالكائي (١/ ١٧٥) برقم (٣١٦)، ورواه بسنده كما سيأتي ذكره في شرح المتن.

ولم أقف على من ذكرها من المتقدمين غيره.

٢- الدراسات التي جمعت كلام الإمام سفيان بن عيينة في الاعتقاد.

وقد كنت هممت بالمضــي في جمع الآثار المروية عن ســفيان بن عيينة في الاعتقاد، وقد أثناني عن هذا الأمر وجود بعض الدراســات الســابقة في هذا المجال فقد وقفت على الدراســات الآتية:

١-الآثار الواردة عن الإمام سـفيان بن عيينة في العقيدة جمعًا ودراسـة، وهي رسـالة ماجسـتير في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة مقدمة من الطالب سندر بون.

٢-كتاب السنة من آثار سفيان بن عيينة الهلالي الكوفي ثم المكي، وهوعبارة عن جمع للآثار الواردة في العقيدة من جمع أبو عوف عبد الرحمن الســلمي، وهو جهد فردي وليس رســالة علمية.

كما أنني لم أقف على شـرح مطبوع لاعتقاد سـفيان بن عيينة، مع وجود بعض الشـروح المرئية والصوتية التي تضمنت شرح هذا الاعتقاد.

شرح الرسالة

قال أبو القاسم هبة الله الطبري اللالكائي–رحمه الله–: أخبرنا عُبيد الله بن محمد بن التوّجي، قال: حدثنا محمد بن إسحاق بن عباد التمار، قال: حدثنا عبد العزيز بن معاوية، قال: حدثنا محمد بن عبد الجبار السُّلميّ، قال: حدثنا بكر بن الفرج أبو العلاء، قال: سمعت سُفيان بن عُيينة يقول: السُّنَّةُ عشرةٌ: فمن كُنَّ فيه فقد استكملَ السُّنَّةَ، ومَن تركَ مِنها شيئًا فقد تركَ السُّنَّةَ:




إثبات القدر

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التعريف بالقدر.

المسألة الثانية: أدلة الإيمان بالقدر.

المسألة الثالثة: أهمية الإيمان بالقدر.

المسألة الرابعة: الخوض في القدر.

المسألة الخامسة: أركان الإيمان بالقدر.

المسألة السادسة: مواقف المخالفين من مراتب القدر.




[١]–قال المصنف–رحمه الله–: "إثبات القدر".

الشرح

الإيمان بالقدر خيره وشره، وهو أصل من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، وركن من أركان الإيمان.

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "إن أهم ما يجب معرفته على المكلف النبيل فضلًا عن الفاضل الجليل ما ورد في القضاء والقدر والحكمة والتعليل، فهو من أسنى المقاصد، والإيمان به قطب رحى التوحيد ونظامه، ومبدأ الدين المبين وختامه، فهو أحد أركان الإيمان وقاعدة أساس الإحسان التي يرجع إليها ويدور في جميع تصاريفه عليها، فالعدل قوام الملك، والحكمة مظهر الحمد، والتوحيد متضمن لنهاية الحكمة وكمال النعمة، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ فبالقدرة والحكمة ظهر خلقه وشرعه المبين؛ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ **[الأعراف: الآية: ٥٤]**. [١]

وفي هذا النص مسائل:

المسألة الأولى: التعريف بالقدر:

القدر في اللغة:

القضاء والحكم، وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها، ومنه ذكر (ليلة القدر) وهي الليلة التي تقدر فيها الأرزاق وتقضى. وأصل (قدر): يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته.[٢]

قال اللحياني–رحمه الله–(ت: ٢٢٠ هـ): "إن القدر بفتح الدال هو: الاسم، والقدر

(١) مقدمة كتابه شفاء العليل (ص: ٣).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٦٢)، النهاية لابن الأثير (٤/ ٢٢)، مختار الصـــحاح للرازي (ص٢٤٨)، تاج العروس للزبيدي (١٣/ ٣٧٠)..

بسكون الدال هو: المصدر". (١)

ويطلق القدر على معان؛ منها:

١- معنى الحكم والقضاء.

ومن ذلك حديث الاستخارة، وفيه: **((فاقدره لي ويسره لي))** (٢)(٣)

٢-معنى الطاقة.ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ**﴾ **[البقرة: الآية: ٢٣٦]**، بفتح الدال، وقرئ بإسكانها(٤).

٣- معنى التضييق.

ومنه قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**﴾ **[الفجر: الآية:١٦]** (٥).

٤- معنى التقدير.

ومنه الحديث: **((فإن غم عليكم فاقدروا له))** (٦)

أي: قدروا له عدد الشهر حتى تكملوه ثلاثين يومًا، وقيل: قدروا له منازل القمر، فإنه يدلكم على أن الشهر تسع وعشرون أو ثلاثون.(٧).

ويقال: قدره: إذا قاسه، وقدرت الشيء، أي: هيأت. والقدرة تأتي بمعنى اليسار، والغنى، والقوة.(٨)

تلك من أهم معاني (القدر) لغة. وهناك معان أخرى تعرضت لها كتب اللغة.(٩).

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٥٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (١١٦٢) مطولا من حديث جابر بن عبد الله-رضي الله عنهما-.

(٣) ينظر: النهاية لابن الأثير (٤/ ٢٢)، مرقاة المفاتيح للقاري (٣/ ٩٨٦).

(٤) ينظر: تفسير ابن جرير (٤/ ٢٩٤)، النشر في القراءات العشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٨).

(٥)ينظر: تفسير ابن جرير (٢٤/ ٣٧٦).

(٦) رواه البخاري (١٩٠٠)، ومسلم (١٠٨٠) مطولا من حديث عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما-.

(٧) ينظر: النهاية لابن الأثير (٤/ ٢٣).

(٨) ينظر: الصحاح للجوهري (٢/ ٧٨٦)، مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٦٣)، لسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٥٤٥) تاج العروس للزبيدي (١٣/ ٣٧٠).

(٩) يُنظر: الصحاح للجوهري (٢/٧٨٦)، أساس البلاغة للزمخشري (٢/ ٥٦)، لسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٥٤٥) تاج العروس للزبيدي (١٣/ ٣٧٠).

والقدر في الاصطلاح:

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): القدر: "وهو عند أهل السنة والجماعة: قدرة الله وعلمه ومشيئته وخلقه وكتابته، فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدرته". (١)

والقَدَرُ في الشرعِ: هو تقديرُ اللهِ تعالى الأشياءَ منذُ القِدَمِ، وعِلْمُه سُبحانَه أنها ستقعُ في أوقاتٍ معلومةٍ عنده، وعلى صفاتٍ مخصوصةٍ، وكتابتُه سُبحانَه لذلك، ومشيئتُه له، ووقوعُها على حَسَبِ ما قدَّرها، وخَلْقُه لها". (٢)

قال السفاريني–رحمه الله–(ت: ١١٨٨ هـ): "هو ما سبق به العلم، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه– عز وجل– قدَّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها". (٣)

وقال ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): في تعريفه: "المراد أنّ الله– تعالى– علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثمّ أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته". (٤)

المسألة الثانية: أدلة الإيمان بالقدر:

نصوص القرآن والسنة متواترة في وجوب الإيمان بالقدر، وصريحة في أن كل شيء خلقه الله بقدر.

فأما أدلة القرآن، فمنها ما يلي:

لم يرد في القران التنصـــيص على وجوب الإيمان بالقدر، وإنما وردت أدلة مجملة تدل على تقدير الله للأشياء.(٥)

– قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: الآية: ٦٢].

(١) انظر: شفاء العليل لابن القيم (ص: ١١٤).

(٢)يُنظر: العقيدة الواسطية لابن تيمية (ص: ١٠٥)، شفاء العليل لابن القيم (ص: ٨٣)، فتح الباري لابن حجر (١/ ١١٨)، لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٣٤٨)..

(٣) عقيدة السفاريني (١/ ٣٤٨).

(٤) فتح الباري (١/ ١١٨).

(٥) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، (ص: ٨٦).

- قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ **[القمر: الآية: ٤٩]**.
- وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ **[الأحزاب: الآية: ٣٨]**.
- وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ **[الأنفال: الآية: ٤٢]**.
- وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ **[الفرقان: الآية: ٢]**.
- وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ **[الأعلى: الآيات: ١-٣]**.
- وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ **[الفلق: الآيات: ١ - ٢]**.

وسيأتي ذكر مزيد من الأدلة من القرآن عند بيان مراتب القدر.

وأما أدلة السنة، فمنها ما يلي:

وقد ورد التنصيص على الإيمان بالقدر في السنة ومن ذلك

- **عن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-(ت: ٢٣ هـ)** في سؤال جبريل عليه السلام الرسول-صلى الله عليه وسلم-عن الإيمان قال: **((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالقدر خيره وشره))**.قال (أي: جبريل عليه السلام): صدقت". (١)
- **عن جابر-رضي الله عنهما-(ت: مابين ٧٣ إلى ٧٧ هـ)** قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: **((لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه))**. (٢)
- **وعن طاووس بن كيسان-رحمه الله-(ت: ١٠٦ هـ)** أنه قال: أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: **((كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس))**. (٣)

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر، وعلامة الساعة (١/ ٣٦ رقم ٨).

(٢)رواه الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشـره، (ص: ٦/ ٣٥٦)-شـرح تحفة الأحوذي)، رقم (٢٢٣١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم: (١٧٤٣)، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم: (٢٤٣٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب كل شيء بقدر (٤/ ٢٠٤٥) رقم: (٢٦٥٥).

- **وعن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)** قال: "جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله-صلى الله عليه وسلم-في القدر، فنزلت: ﴿**يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: الآيات: ٤٨: ٤٩]. [(١)]

وعن أبي الدرداء-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: ((لا يدخل الجنة عاق، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بالقدر)). [(٢)]

أقوال السلف

أجمع سلف الأمة على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره، وأنه من أصول الإيمان الستة، التي لا يتم إسلام العبد ولا إيمانه إلا بها

ومن الآثار في هذا الباب ما أخرجه عبد الرزاق في مصنفه أن سلمان الفارسي-رضي الله عنه-سئل عن الإيمان بالقدر فقال: "إذا علم الرجل من قبل نفسه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن يصيبه، فذلك الإيمان بالقدر".[(٣)]

عن علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-(ت: ٤٠ هـ)، قال: "إذا قضي الأمر من السماء عمله أهل الأرض، وإن العبد لا يجد طعم الإيمان حتى يوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه"[(٤)].

عن يحيى بن يعمر-رحمه الله-(ت: ٨٩ هـ)؛ قال: "كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا **وحميد بن عبد الرحمن الحميري (ت: ١٠٠ هـ)** حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحد من أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر. فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب-رضي الله عنهما-(ت: ٧٤ هـ) داخلا المسجد. فاكتنفته أنا وصاحبي.أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله. فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي. فقلت: أبا عبد الرحمن! إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم. وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر.وأن الأمر أنف. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب كل شيء بقدر (٤/ ٢٠٤٦ رقم: (٢٦٥٦).

(٢) رواه الإمام أحمد، انظر الجامع الصحيح في القدر، تأليف مقبل الو ادعي، (ص: ١٤)، وهو في السلسلة الصحيحة رقم: (٦٧٥)،

(٣)مصنف عبد الرزاق (١١/ ١١٨)، وانظر: القضاء والقدر للبيهقي (ص: ٣٠٥).

(٤) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٦٦)، وانظر: القضاء والقدر للبيهقي (ص: ٢٩٩).

بريء منهم، وأنهم برآء مني(١). والذي يحلف به عبد الله بن عمر! لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر". (٢)

عن الحسن البصري (ت: ١١٠ هـ): "والله لولا الإيمان بالقدر لخربت الدنيا وما عمرتها، إن الله تعالى قدّر كل شيء بقدر معلوم". (٣).

عن الحسن البصري–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ): قال: "القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده". (٤)

عن مجاهد بن جبر–رحمه الله–(ت: ١٠٤ هـ): قال: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد". (٥)

قال الأوزاعي (ت: ١٥٧ هـ): "علينا أن نؤمن بالقدر خيره وشره، فالإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان، وقد علم الله تعالى ما يكون وما سيكون". (٦)

قال الإمام سفيان الثوري (ت: ١٦١ هـ): "من كفر بالقدر فقد كفر بما أنزل على محمد–صلى الله عليه وسلم–، فإن الله تعالى قدّر كل شيء في الأزل". (٧)

قال الإمام ابن المبارك (ت: ١٨١ هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، من أصول الإيمان، ولا يتم الإيمان إلا به". (٨)

وقال الإمام ابن المبارك (ت: ١٨١ هـ): "الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، ولا يكون العبد مؤمنًا حتى يؤمن بأن الله قدّر كل شيء وكتبه في اللوح المحفوظ". (٩)

قال الإمام أبو حنيفة في "الفقه الأكبر" (ت: ١٥٠ هـ): "والقدر خيره وشره من الله تعالى، نؤمن به ونعلم أن الله لم يكلفنا إلا ما نطيق، وأنه تعالى لم يجبر العباد على المعاصي،

---

(١)قال الخطابي: في تبرى ابن عمر منهم دليل على أن الخلاف إذا وقع في أصـــول الدين وتعلق بالمعتقدات يوجب البراءة، بخلاف ما تعلق بأصول الأحكام وفروعها"معالم السنن (٧/ ٦٥).

(٢)صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في الأمر بالإيمان بالقدر (١/ ٨).

(٣) "كتاب التوكل" لابن أبي الدنيا (ص: ٢٩).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، رقم: (١٠٨٠).

(٥)شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، رقم: (١٠٩٦).

(٦)"البداية والنهاية" لابن كثير (١٠/ ٢٠٥).

(٧)"الجامع" لمصنف عبد الرزاق (١١/ ٤٤).

(٨)"الزهد" لابن المبارك (ص: ١٩٤).

(٩) "سير أعلام النبلاء" (٨/٤٠٢).

وأنه تعالى هو الخالق للأفعال".

قال الإمام مالك بن أنس (ت: ١٧٩ هـ): "الإيمان بالقدر واجب، من أنكر القدر فقد كفر، والإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بأن كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر فهو من الله تعالى". (١)

قال الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤ هـ): "لا يتم الإيمان إلا بالإيمان بالقدر، ومن أنكر القدر فقد أبطل علم الله السابق، ونسب الله إلى الجهل". (٢)

قال الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ): "والإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها". (٣)

قال الإمام البخاري (ت: ٢٥٦ هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره من أصول الإيمان". (٤)

قال الإمام مسلم (ت: ٢٦١ هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره من أركان الإيمان". (٥)

قال الإمام ابن ماجه (ت: ٢٧٣ هـ): "والإيمان بالقدر خيره وشره ركن من أركان الإيمان، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم". (٦)

قال الإمام ابن جرير الطبري (توفي ٣١٠ هـ): "الإيمان بالقدر هو الإيمان بأن الله تعالى قد علم كل شيء وكتبه، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو من أركان الإيمان التي لا يتم إلا بها". (٧)

المسألة الثالثة: أهمية الإيمان بالقدر وثمراته:

مما يدل على أهمية الإيمان:

أولًا: الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان لا يتم الإيمان إلا به.

قال الإمام الأوزاعي (ت: ١٥٧ هـ): "علينا أن نؤمن بالقدر خيره وشره، فالإيمان بالقدر

(١)"التمهيد" لابن عبد البر (٧/ ١٤٣).
(٢) "الرسالة" (ص: ٣٥١).
(٣)"أصول السنة" (ص: ٢٨).
(٤) "صحيح البخاري" (٦٦١٤).
(٥)"صحيح مسلم" (٩٣).
(٦)"سنن ابن ماجه" (٧٧).
(٧) تفسير الطبري (١/ ١٤٧).

أصل من أصول الإيمان، وقد علم الله تعالى ما يكون وما سيكون". [١]

قال الإمام مالك بن أنس (ت: ١٧٩ هـ): "الإيمان بالقدر من **أصول الإيمان**، ولا يكون الرجل مؤمنًا حتى يؤمن بأن كل شيء بقدر الله، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن". [٢]

قال الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها". [٣]

قال الإمام ابن أبي عاصم (ت: ٢٨٧ هـ): "الإيمان بالقدر هو من **أصول الإيمان**، ولا يصح الإيمان إلا به، وقد أمرنا الله بالإيمان به في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ (سورة القمر: ٤٩)". [٤]

قال الإمام الدارمي (توفي ٢٥٥ هـ): "والإيمان بالقدر خيره وشره هو من **أصول الإيمان**، ولا يكون الرجل مؤمنًا حتى يؤمن بأن الله قدّر كل شيء وكتبه في اللوح المحفوظ". [٥]

ثانيًا: الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان

وهو الركن السادس من أركان الإيمان

قال الإمام عبد الرحمن بن مهدي (ت: ١٩٨ هـ): "الإيمان بالقدر من **أركان الإيمان**، ولا يتم الإيمان إلا به، ومن أنكره فقد كفر بما أنزل على محمد–صلى الله عليه وسلم–". [٦]

قال الإمام علي بن المديني (ت: ٢٣٤ هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره من **أركان الإيمان**، ولا يكون الرجل مؤمنًا حتى يؤمن بأن الله قدّر كل شيء وكتبه في اللوح المحفوظ". [٧]

قال الإمام ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠ هـ): "الإيمان بالقدر هو الإيمان بأن الله تعالى قد علم كل شيء وكتبه، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو من **أركان الإيمان** التي

(١) "البداية والنهاية" (١٠/ ٢٠٥).
(٢) "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر (٢/ ١٢٩٠).
(٣) "مسند أحمد" (٦/ ٢٣٣).
(٤) "السنة" لابن أبي عاصم (١/ ١٥٩).
(٥) "الرد على الجهمية" للدارمي (ص: ١٥٤).
(٦)"الإبانة الكبرى" لابن بطة (٢/ ١٧٢).
(٧)"سير أعلام النبلاء" (١١/ ١٦٨).

لا يتم إلا بها". (١)

قال ابن أبي حاتم–رحمه الله–(ت: ٣٢٧ هـ): "وقد أجمع العلماء على أن الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، من **أركان الإيمان**، وأن الله تعالى قدّر كل شيء وكتبه في اللوح المحفوظ". (٢)

ثالثًا: الإيمان القدر نظام التوحيد.

جاء في السنة الصحيحة عن النبي–صلى الله عليه وسلم–الربط بين القدر والتوحيد عن عائشة–رضي الله عنها–(ت: ما بين ٥٧ و٥٩ هـ)، قالت فقدت رسول الله–صلى الله عليه وسلم–ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدمه وهما منصوبتان وهو يقول: **((اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك))**. (٣)

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "وهذا يتضمن كمال الإثبات للقدر والتوحيد بأوجز لفظ وأخصره فإن الذي يستعاذ منه من الشر وأسبابه هو واقع بقضاء الرب تعالى وقدره وهو المنفرد بخلقه وتقديره وتكوينه فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن". (٤)

عن ابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ) أنه قال: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بالقدر كان تكذيبه بالقدر نقضاً لتوحيده". (٥)

---

(١)تفسير الطبري (١/ ١٤٧).

(٢)"شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" للالكائي (٤/ ٧١١).

(٣)رواه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة (٤٨٦) ونظر صحيح مسلم بشرح نووي ٢/ ٢١٢.

(٤)شفاء العليل (ص: ٤٥٠)، وانظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٣٥٤).

(٥) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (٢/ ٤٢٢)، والفريابي في القدر تحت رقم (٢٠٥)، واللالكائي في السنة (٤/ ٦٢٣-٦٧٠)، والآجري في الشريعة (ص: ٢١٥)، وابن بطة في: الإبانة تحت رقم: (١٦١٨-١٦١٩)، ونسبه في مجمع الزوائد إلى الطبراني في الأوسط.المجمع الزوائد (٧/ ١٩٧). ويتقوى بتعدد الطرق إلى الحسن لغيره.

وقد روي عن ابن عباس–رضي الله عنه–، مرفوعًا، وفيه ضعف.انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة تحت رقم (٤٠٧٢).

وذكره ابن الجوزي عن أبي هريرة–رضي الله عنه–، مرفوعا في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (١/ ١٤٩)، تحت رقم (٢٣٤)، وقال: "لا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–"اهـ

عن الحسن البصري–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ): قال: "القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده". (١)

عن مجاهد بن جبر–رحمه الله–(ت: ١٠٤ هـ): قال: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد". (٢)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "اعلم أن أهل البدع من القدرية الجهمية والمجبرة والقدرية النافية لا يحمدون الله ولا يشكرونه، كما أنهم لا يعبدونه، وأما أهل الإلحاد من المتفلسفة والباطنية فهم أبعد عن حمده وشكره، وذلك أن المجبرة حقيقة قولهم أنه ليس برحيم ولا منعم، بل ولا إله يستحق أن يعبد ويحب، بل صدور الإحسان عنه كصدور الإساءة، وإنما هو يفعل بمحض مشيئة ترجح الشيء على مثله لا لمرجح، وكل الممكنات عندهم متماثلة، فلا فرق بين أن يريد رحمة الخلق ونفعهم والإحسان إليهم، أو يريد فسادهم وهلاكهم وإضرارهم، يقولون: هذا كله عندهم سواء". (٣)

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ) عند تفسير قوله تعالى: **﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: الآيات: ٢٩–٣٠]**.

"هذه الآية تضمنت قواعد الدين علمًا وعملًا واعتقادًا.

فقوله: **﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾** أمر سبحانه فيها بالقسط هو الذي هو حقيقة شرعه ودينه، وهو يتضمن التوحيد فإنه أعدل العدل، والعدل في معاملة الخلق، والعدل في العبادة، وهو الاقتصاد في السنة.

وقوله **﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾**، يتضمن الأمر بالإقبال على الله وإقامة عبوديته في ثبوته، ويتضمن الإخلاص له وهو عبوديته وحده لا شريك له فهذا ما فيها من العمل.

ثم أخبر بمبدأهم ومعادهم فتضمن ذلك حدوث الخلق وإعادته فذلك الإيمان بالمبدأ والمعاد

(١)شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، رقم: (١٠٨٠).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، رقم: (١٠٩٦).

(٣) جامع الرسائل (المجموعة الأولى) (١/ ١٠٣).

فقال: ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾.

ثم أخبر عن القدر الذي هو نظام التوحيد فقال فريقا هدى وفريقًا حق عليهم الضلالة.﴿**فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ**﴾، فتضمنت الآية الإيمان بالقدر والشرع والمبدأ، والمعاد، والأمر بالعدل، والإخلاص.

ثم ختم الآية بذكر حال من لم يصدق هذا الخبر ولم يطع هذا الأمر بأنه قد أطاع الشيطان دون ربه وأنه على ضلال وهو يحسب أنه على هدى فقال: ﴿**إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**﴾.والله أعلم". (١)

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "النبي–صلى الله عليه وسلم–أرشد الأمة في القدر إلى أمرين هما سببا السعادة

١–الإيمان بالأقدار فإنه نظام التوحيد.

٢–والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره وذلك نظام الشرع.

فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر

فأبى المنحرفون إلا

• القدح بإنكاره في أصل التوحيد

• أو القدح بإثباته في أصل الشرع

ولم تتسع عقولهم التي لم يلق الله عليها من نوره للجمع بين ما جمعت الرسل جميعهم بينه وهو القدر والشرع والخلق والأمر

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والنبي–صلى الله عليه وسلم–شديد الحرص على جمع هذين الأمرين للأمة وقد تقدم قوله: **(أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز)**.وإن العاجز من لم يتسع للأمرين". (٢)

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "وبالجملة فكل دليل في القرآن على التوحيد فهو دليل على القدر وخلق أفعال العباد ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد قال ابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ): "الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه

(١)شفاء العليل (١/ ٢٩٢) بتصرف يسير.

(٢)شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (١/ ٢٦).

التوحيد". (١)

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "إن الإيمان بالقدر أصل الإيمان بالأمر وهو نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه إيمانه". (٢)

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "والذي دل عليه قول ابن مسعود وهو قول الصحابة كلهم وأئمة السنة من التابعين ومن بعدهم هو إثبات القدر الذي هو نظام التوحيد؛ إثبات فعل العبد الأختياري، الذي هو نظام الأمر والنهي، وهو متعلق المدح والذم والثواب والعقاب والله أعلم". (٣)

رابعًا: الإيمان بالقدر فيه تحقيق للشهادتين.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "إذا ثبت هذا–يعني تحقيق شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدًا رسول الله–فمعلوم أنه يجب الإيمان بخلق الله وأمره، وبقضائه وشرعه". (٤)

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): القدر قدرة الله، واستحسن ابن عقيل–رحمه الله–(ت: ٥١٣ هـ) هذا الكلام جدا، وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين، وهو كما قال أبو الوفاء؛ فإن إنكار القدر: إنكار لقدرة الرب على خلق أفعال العباد وكتابتها وتقديرها". (٥)

فالإيمان بالقدر على الوجه الصحيح توحيد وخلاص من الشرك؛ لأن ارتباطه مباشرة بالإيمان بالله تعالى، فقد جاء في صفاته سبحانه صفة العلم، والإرادة، والقدرة، والخلق، وعلى هذه الأسس قامت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر.

كما عد العلماء الإيمان بالقضاء والقدر ثمرة من ثمرات الإيمان بالله، فالراضي بالقضاء والقدر راض بالله، والساخط من القدر ساخط على الله، وهذه النكتة في عطف الفعل "تؤمن" لما عد النبي – صلى الله عليه وسلم –أركان الإيمان فقال: ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته

---

(١)شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٦٥).

(٢)روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٦١).

(٣) حاشيته على تهذيب السنن (٦/ ١٠٥).

(٤) التدمرية، شيخ الإسلام ابن تيمية، (ص: ١٣٠).

(٥)شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، (ص: ٢٨).

وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)). في حديث جبريل المشهور".[١]

خامسًا: الإيمان بالقدر يعصم العبد من أمور كثيرة.

"فاعتصام المؤمن بعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر يعصمه من أمور كثيرة، على رأسها أمران:

أحدهما: عصمته في باب توحيد الربوبية الذي هو أساس وعمدة توحيد الألوهية.

والثاني: عصمته في مسيرته في الحياة، بألا يقع عنده تعارض بين القضاء والقدر والأمر والشرع".[٢]

الإيمان بالقدر أساس لعمارة الدنيا.

قال الإمام الحسن البصري (توفي ١١٠ هـ): "والله لولا الإيمان بالقدر لخربت الدنيا وما عمرتها، إن الله تعالى قدّر كل شيء بقدر معلوم" [٣]

من ثمرات الإيمان بالقدر:

أولًا: الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب؛ لأن السبب والمسبب كليهما بقضاء الله وقدره.

عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: **((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله عز وجل من المؤمن الضعيف، واحرص على ما ينفعك واستعن بالله عز وجل ولا تعجز، فإن غلبك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل)).** [٤]

قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين-رحمه الله-(ت: ١٤٢١ هـ): "الإيمان بالقدر يوجب صدق الاعتماد على الله-عز وجل-لأنك إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله". [٥]

ثانيًا: راحة النفس وطمأنينة القلب؛ لأنه متى علم أن ذلك بقضاء الله تعالى، وأن المكروه

---

(١) منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة (ص: ٦٤٨).

(٢) تيسير لمعة الاعتقاد لعبد الرحمن بن صالح المحمود.(ص: ١٩٩).

(٣)"كتاب التوكل" لابن أبي الدنيا (ص: ٢٩).

(٤) صحيح مسلم (٢٦٦٤).

(٥) القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (ص: ٦٣٠).

كائن لا محالة ارتاحت النفس واطمأن القلب ورضي بقضاء الرب، فلا أحد أطيب عيشا، وأروح نفسا، وأقوى طمأنينة ممن آمن بالقدر.

قَالَ ابنُ عَونٍ –رحمه الله–(ت: ١٥١ هـ): "ارْضَ بِقَضَاءِ اللهِ مِن عُسْرٍ وَيُسْرٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَقَلُّ لِهَمِّكَ، وَأَبلَغُ فِيمَا تَطلُبُ مِن أَمرِ آخِرَتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ العَبدَ لَن يُصِيبَ حَقِيقَةَ الرِّضَا، حَتَّى يَكُونَ رِضَاهُ عِندَ الفَقرِ وَالبَلَاءِ، كَرِضَاهُ عِندَ الغِنَى وَالرَّخَاءِ؛ كَيفَ تَستَقضِي اللهَ فِي أَمرِكَ، ثُمَّ تَسخَطُ إِنْ رَأَيتَ قَضَاءً مُخَالِفًا لِهَوَاكَ؟! وَلَعَلَّ مَا هَوَيْتَ مِن ذَلِكَ، لَو وُفِّقَ لَكَ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُكَ، وَتَرضَى قَضَاءَهُ إِذَا وَافَقَ هَوَاكَ، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ عِلْمِكَ بِالغَيبِ؟! إِذَا كُنتَ كَذَلِكَ، مَا أَنْصَفْتَ مِن نَفسِكَ، وَلَا أَصَبْتَ بَابَ الرِّضَا.

قال ابن رجب –رحمه الله–(ت: ٧٩٥ هـ): "وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ". (١)

قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين –رحمه الله–(ت: ١٤٢١ هـ): "والإيمان بالقدر يوجب الطمأنينة يوجب للقلب الطمأنينة إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك اطمئن أنت بما يصيبك بعد فعل الأسباب النافعة". (٢)

ثالثًا: طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد؛ لأن حصول ذلك نعمة من الله بما قدره من أسباب الخير والنجاح؛ فيشكر الله تعالى على ذلك ويدع الإعجاب"· (٣)

رابعًا: انشراح الصدر، وسعادة القلب، وطمأنينة النفس، وراحة البال، قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وَمَا لِيَ سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر، قَالَ تَعَالَى: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون**﴾ **[التوبة: الآية: ٥١]**.

خامسًا: ذهاب الهم والحزن، فمن الإيمان بالقدر الإيمان بكتابة المقادير قبل إيجادها، فإذا وُجِدت تبين مدى الإيمان بذلك، فَقَوِيُّ الإيمان لا يفرح بما أُوتي، ولا يحزن على ما فات، وعكسه بعكسه بهذا المعنى، وردت الآية الكريمة: ﴿**لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ **[الحديد: الآية: ٢٣]**.

---

(١) "تيسير العزيز الحميد" (ص: ٥٢٢-٥٢٣).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (ص: ٦٣٠).

(٣) «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ابن عثيمين» (٣/ ٢٥٦-٢٦٠) بتصرف.

قال ابن رجب-رحمه الله-(ت: ٧٩٥ هـ): "الإيمان بالقدر يُذهب الهم والحزن".[١]

سادسًا: غنى النفس، روى الترمذي في سننه مِن حَدِيثِ **أَبِي هُرَيرَةَ-رضي اللهُ عنه-(ت: ٥٧ هـ)**: أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ: **(وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ)**.[٢]

سابعًا: النجاة من النار، روى أبو داود في سننه مِن حَدِيثِ **أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ-رضي اللهُ عنه-(ت: ١٩ أو ٢٠ هـ)**: رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: **"لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ"**.[٣]

المسألة الرابعة: الخوض في القدر.

عن عمرو بن شعيب-رحمه الله-(ت: ١١٨ هـ) عن أبيه-رحمه الله-(ت: ٨١ أو ٨٠ هـ) عن جده-رضي الله عنه-(ت: ٦٥ هـ) قال: خرج رسول الله-صلى الله عليه وسلم-ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: "وكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: ((**ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكما**))، وقال: "فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله-صلى الله عليه وسلم-لم أشهده بما غبطت نفسي بذلك المجلس، أني لم أشهده". [٤]

وقد كان السلف من الصحابة-رضي الله عنهم-ومن بعدهم يكرهون الجدال في القدر ويذمون من خاض فيه، بل حذروا من ذلك، فهذا الصحابي الجليل **عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)** يقول: "باب شرك فتح على أهل الصلاة: التكذيب بالقدر فلا

(١)مجموع الرسائل (٣/ ١٤٤).

(٢)"سنن الترمذي" (برقم: ٢٣٠٥)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (برقم: ٩٣٠).

(٣)"سنن أبي داود" (برقم: ٤٦٩٩)، وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (٣/ ٨٩٠) (برقم: ٣٩٣٢).

(٤)أخرجه أحمد (٢/ ١٧٨)، وقال أحمد شاكر، أسناده صحيح.المسند تحقيق أحمد شاكر (١٠/ ١٥٣)، حديث رقم (٦٦٦٨)، وأخرجه أيضًا ابن ماجه: المقدمة، باب في القدر (١/ ٣٣)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٤): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

تجادلوهم فيجري شركهم على أبديكم".[١] ويقول أيضًا-رضي الله عنه-: "ما غلا أحد في القدر إلا خرج من الإسلام". [٢]

فالسلف رحمهم الله تعالى كرهوا الكلام في القدر والخوض فيه، لكن لما خاضت المبتدعة في هذا الأمر وحادوا عن الصواب رأي السلف الصالح أنه يجب عليهم أن يبينوا للناس الحق والصواب فيما ضل فيه هؤلاء، ذلك لأنه لم يظهر القول في القدر إلا بعد مضي نصف القرن الأول تقريبا، حيث إن معبدًا الجهني[٣] هو أول من أثار القول في هذا الأمر.

روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى يحيى بن يعمر، أنه قال: "كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن خطاب داخلًا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت: أبا عند الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم[٤] وذكر من شأنهم أنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف، قال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر". [٥]

وقد سلك هذا المسلك العلماء من بعدهم الذين ساروا على نهج الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كما ذكر الإمام البربهاري هنا.

ولا شك أن الخوض في أمور العقيدة بالعقل استقلالًا دون الرجوع إلى النصوص والتحاكم إليها والاستضاءة بالنصوص هذه مهلكة للإنسان، وكل من خاض من هؤلاء في هذا الأمر دون معرفة بالنص فإنه هالك، ولذلك وقع ما وقع من الفرق، ووقع ما وقع من قول القدرية

(١)أخرجه الآجري في الشريعة (ص: ٢١٥)، واللالكائي في شرح أصول أهل السنة: (٤/ ٦٣٠).

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول أهل السنة (٤/ ٦٣٢).

(٣) معبد بن عبد الله الجهني نزيل البصرة، كان داعية إلى الضلال وهو أول من تكلم بالقدر في زمن الصحابة، قال ابن أبي حاتم: كان صدوقًا في الحديث وكان رأسًا في القدر، قدم المدينة فأفسد بها ناسا، وقد قتله عبد الملك سنة ٨٠هـ.الجرح والتعديل (٨/٢٨٠)، وميزان الاعتدال (٤/١٤١)، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥).

(٤) ويتقفرون العلم: أي يطلبونه ويتتبعونه.النهاية لابن الأثير (٤/ ٩٠).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان: (١/ ٣٦).

وقول الجبرية ونحوهم لا لشيء إلا لأن هؤلاء تركوا النصوص تمامًا وخاضوا في الأمر من جهة عقولهم.

فوقع التحسين والتقبيح العقلي، ووقع الطعن في أفعال الله عز وجل وفي علم الله–عز وجل– كل ذلك من طريق هؤلاء.

وأما أصل القدر؟ فكما **قاله الطحاوي–رحمه الله–(ت: ٣٢١ هـ)**: "وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر من ذلك نظراً وفكرًا ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: الآية: ٢٣]، فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين". (١)

وعلم القدر **قال عنه علي–رضي الله عنه–(ت: ٤٠ هـ)**: "القدر سر الله فلا تكشفه". (٢)

قال جعفر بن محمد–رحمه الله–(ت: ١٤٨ هـ): "الناظر في القدر كالناظر في عين الشمس، كلما ازداد نظرا ازداد حيرة". (٣)

وسماه الطحاوي–رحمه الله–(ت: ٣٢١ هـ) بالعلم المفقود، لأن الله طواه عن الخلق، (٤) ونحن نؤمن بأن له تعالى في خلقه حكمًا عظيمة، وإذا كان هناك من الحكم ما هون خاف فلا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها، ولا من جهلنا انتفاء حكمته تبارك وتعالى. (٥)

قال الإمام مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ): "القدر سر الله في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة إلى الخذلان، وسُلَّمٌ إلى الحرمان، والحذر كل الحذر من النظر في القدر والتفكر فيه والوسوسة به". (٦)

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٧٦).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٧٧).

(٣) انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١٩٦).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٩٢).

(٥) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٩٢).

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (٤/ ٧٠٩).

قال البربهاري–رحمه الله–(ت: ٣٢٩ هـ): "الكلام والجدل والخصومة في القدر خاصة، منهي عنه عند جميع الفرق؛ لأن القدر سر الله، ونهى الرب تبارك وتعالى الأنبياء عن الكلام في القدر، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخصومة في القدر، وكرهه العلماء وأهل الورع ونهوا عن الجدال في القدر، فعليك بالتسليم والإقرار والإيمان، واعتقاد ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في جملة الأشياء، وتسكت عما سوى ذلك". (١)

قال الآجري–رحمه الله–(ت: ٣٦٠ هـ): "لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث عن القدر؛ لأن القدر سر من أسرار الله–عز وجل–، بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق" (٢).

قال ابن بطة–رحمه الله–(ت: ٣٨٧ هـ): "وأما الوجه الآخر من علم القدر الذي لا يحل النظر فيه ولا الفكر به، وحرام على الخلق القول فيه: كيف؟ ولم؟ وما السبب؟ مما هو سر الله المخزون وعلمه المكتوم الذي لم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا، وحجب العقول عن تخيل كنه علمه، والناظر فيه كالناظر في عين الشمس، كلما ازداد فيه نظرا ازداد فيه تحيرا، ومن العلم بكيفيتها بعدا– فهو التفكر في الرب عز وجل كيف فعل كذا وكذا، ثم يقيس فعل الله عز وجل بفعل عباده، فما رآه من فعل العباد جورا يظن أن ما كان من فعل مثله جور، فينفي ذلك الفعل عن الله، فيصير بين أمرين؛ إما أن يعترف لله عز وجل بقضائه وقدره، ويرى أنه جور من فعله، وإما أن يرى أنه ممن ينزه الله عن الجور، فينفي عنه قضاءه وقدره، فيجعل مع الله آلهة كثيرة يحولون بين الله وبين مشيئته، فبالفكر في هذا وشبهه والتفكر فيه والبحث والتنقير عنه هلكت القدرية حتى صاروا زنادقة وملحدة ومجوسا؛ حيث قاسوا فعل الرب بأفعال العباد وشبهوا الله بخلقه ولم يعوا عنه ما خاطبهم به؛ حيث يقول: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: الآية: ٢٣]. فمما لا يحل لأحد أن يتفكر فيه ولا يسأل عنه، ولا يقول فيه: لم لا ينبغي لأحد أن يتفكر لم خلق الله إبليس وهو قد علم قبل أن يخلقه أنه سيعصيه، وأن سيكون عدوا له ولأوليائه؟ ولو كان هذا من فعل المخلوقين إذا علم أحدهم أنه إذا اشترى

---

(١) شرح السنة (ص: ٨٠).

(٢) الشريعة (٢/ ٧٠٢).

عبدا يكون عدوا له ولأوليائه، ومضادا له في محابه، وعاصيا له في أمره، ولو فعل ذلك لقال أولياؤه وأحباؤه: إن هذا خطأ وضعف رأي وفساد نظام الحكمة، فمن تفكر في نفسه وظن أن الله لم يصب في فعله حيث خلق إبليس؛ فقد كفر، ومن قال: إن الله لم يعلم قبل أن يخلق إبليس أنه يخلق إبليس عدوا له ولأوليائه، فقد كفر، ومن قال: إن الله لم يخلق إبليس أصلا، فقد كفر.وهذا قول الزنادقة الملحدة، فالذي يلزم المسلمين من هذا أن يعلموا أن الله خلق إبليس وقد علم منه جميع أفعاله؛ ولذلك خلقه، ويعلموا أن فعل الله ذلك عدل صواب، وفي جميع أفعاله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون".(١)

قال أبو المظفر السمعاني-رحمه الله-(ت: ٤٨٩ هـ): "قد ذكرنا أن سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من قبل الكتاب والسنة، دون محض القياس، ومجرد المعقول، فمن عدل عن التوقيف في هذا الباب، ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء النفس، ولا وصل إلى ما يطمئن به القلب؛ وذلك لأن القدر سر من سر الله وعلم من علمه ضربت دونه الأستار، وكفت عليه الأزرار، واختص الله به علام الغيوب.حجبه عن عقول البشر ومعارفهم؛ لما علم من الحكمة، وسبيلنا أن ننتهي إلى ما حد لنا فيه، وألا نتجاوز إلى ما وراءه، فالبحث عنه تكلف، والاقتحام فيه تعمق وتهور.

وجماع هذا الباب أن يعلم أن الله تعالى طوى عن العالم علم ما قضاه وقدره على عباده، فلم يطلع عليه نبيا مرسلا، ولا ملكا مقربا؛ لأنه خلقهم ليتعبدهم ويمتحنهم.قال الله تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية: ٥٦]** ...فلو كشف لهم عن سر ما قضى وقدر لهم وعليهم في عواقب أمورهم لافتتنوا، وفتروا عن العمل، واتكلوا على مصير الأمر في العاقبة، فيكون قصاراهم عند ذلك أمن أو قنوط.وفي ذلك بطلان العبادة وسقوط الخوف والرجاء؛ فلطف الله سبحانه بعباده وحجب عنهم علم القضاء والقدر، وعلقهم بين الخوف والرجاء، والطمع والوجل؛ ليبلو سعيهم واجتهادهم، وليميز الله الخبيث من الطيب، ولله الحجة البالغة".(٢)

قال البغوي-رحمه الله-(ت: ٥١٠ هـ): "القدر سر من أسرار الله لم يطلع عليه ملكا

(١) الإبانة الكبرى (٣/ ٢٤٨).

(٢) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني (٢/ ٣٠).

مقربا، ولا نبيا مرسلا، لا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل، بل يعتقد أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق، فجعلهم فريقين: أهل يمين خلقهم للنعيم فضلا، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلا".[١]

قال ابن أبي العز–رحمه الله–(ت: ٧٩٢ هـ): "أصل القدر سر الله في خلقه، وهو كونه أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهدى.قال علي–رضي الله عنه–(ت: ٤٠ هـ): القدر سر الله فلا تكشفه".[٢]

قال ابن رجب–رحمه الله–(ت: ٧٩٥ هـ): "قد ورد النهي عن الخوض في القدر، ...، والنهي عن الخوض في القدر يكون على وجوه:

منها: ضرب كتاب الله بعضه ببعض، فينزع المثبت للقدر بآية والنافي له بأخرى.ويقع التجادل في ذلك...وهذا من جملة الاختلاف في القرآن والمراء فيه، وقد نهي عن ذلك.[٣]

ومنها: الخوض في القدر إثباتا ونفيا بالأقيسة العقلية: كقول القدرية: لو قدر وقضى ثم عذب كان ظالما.وقول من خالفهم: إن الله جبر العباد على أفعالهم، ونحو ذلك.

ومنها: الخوض في سر القدر، وقد ورد النهي عنه عن علي وغيره من السلف؛ فإن العباد لا يطلعون على حقيقة ذلك".[٤]

المسألة الخامسة: أركان الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر له أربعة أركان، ويسميها بعض العلماء أيضًا: (مراتب القدر)، وهذه الأركان الأربعة هي:

الركن الأول: العلم:

الركن الأول– أو المرتبة الأولى من مراتب الإيمان بالقدر– هو العلم، فيجب الإيمان بأن الله يعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون، فالله يعلم القدر قبل وقوعه،

والأدلة على علم الله تعالى بالمقادير كثيرة، منها:

(١) شرح السنة (١/ ١٤٤).

(٢) شرح الطحاوية (١/ ٣٢٠).

(٣) أخرجه من طرق: أبو داود (٤٦٠٣)، وأحمد (٩٤٧٩) بلفظ: "المراء في القرآن كفر" صـححه ابن حبان في صـحيحه (١٤٦٤)، والحاكم على شرط مسلم في المستدرك (٢/ ٢٤٣)، والنووي في التبيان (٢٠٦).

(٤) بيان فضل علم السلف على علم الخلف (ص: ٤١–٤٦).

قال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾. **[الطلاق: الآية: ١٢]**

فالله سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شيءٍ علما، ولذلك لما ذكر الله تعالى الخلق استدل به على العلم والقدرة ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ**﴾ **[الطلاق: الآية: ١٢]**، ثم قال بعدها: ﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾.

فتأمل السياق في الحديث عن الخلق، الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن هذا حديث عن الخلق، لكنه دلالة على أمرين هم؟ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، فالخلق دليل على القدر، فكيف يخلق من لا يقدر، فهل الذي لا يقدر يستطيع أن يخلق؟ فبما أنه هو الخالق فهو قادر، وكيف يخلق ما لا يعلم؟ فبالتالي استشهد بخلقه على قدرته وعلى علمه، لذلك قال: ﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾.

فالله سبحانه وتعالى علم الأشياء قبل خلقها، وهو سبحانه وتعالى يعلم ما سيكون، بل ما لم يكن لو كان كيف يكون، فالله سبحانه وتعالى عندما ذكر أصحاب النار قال عنهم: ﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**﴾ [الأنعام: الآية: ٢٨]، فلو أُخرج أهل النار من النار وعادوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم.

فإذاً يعلم مالم يكن لو كان كيف يكون، فعلمه سبحانه وتعالى محيطٌ بكل شيء،

- قال تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ **[الحشر: الآية: ٢٢]**.
- وقال تعالى: ﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ **[الطلاق: الآية: ١٢]**.
- وقال تعالى: ﴿**عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ**﴾ **[سبأ: الآية: ٣]**.
- وقال تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ **[النحل:**

الآية: ١٢٥].

- وقال تعالى: ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ **[النجم: الآية: ٣٢]**.

وقال الله تعالى-مقررًا علمه بما لم يكن لو كان كيف سيكون-: ﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**﴾ **[الأنعام: الآية: ٢٨]**، فالله يعلم أن هؤلاء المكذبين الذين يتمنون في يوم القيامة الرجعة إلى الدنيا أنهم لو عادوا إليها لرجعوا إلى تكذيبهم وضلالهم.

وقال في الكفار الذين لا يطيقون سماع الهدى: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ**﴾ **[الأنفال: الآية: ٢٣]**.

ومن علمه تبارك وتعالى بما هو كائن: علمه بما كان الأطفال الذين توفوا صغارًا عاملين لو أنهم كبروا قبل مماتهم، وبيانه فيما يلي:

- **عن ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**، قال: " سئل النبي-صلى الله عليه وسلم-عن أولاد المشركين، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين " [(١)].

- **وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها-(ت: ٥٧ أو ٥٨ هـ)**، قالت: توفي صبيٌّ، فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة.فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: «**أَوَلَا تدرين أن الله خلق الجنة والنار، فخلق لهذه أهلًا ولهذه أهلًا؟**»[(٢)].وفي رواية عند مسلم-أيضًا- **عن عائشة-رضي الله عنها-(ت: ٥٧ أو ٥٨ هـ)** قالت: "دُعي رسول الله-صلى الله عليه وسلم-إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه.قال: «**أَوَغَير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب القدر باب الله أعلم بما كانوا عاملين (٨/ ١٢٢) رقم: (٦٥٩٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤/٢٠٥٠) رقم: (٢٦٦٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤/٢٠٥٠) رقم: (٢٦٦٢).

وكان أول من أنكره القدرية فأنكروا علم الله السابق، فزعم القدرية الأوائل أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم الأشياء قبل وقوعها، فهذا أول حال القدرية، ثم إن القدرية بعد ذلك تراجعوا عن إنكار العلم السابق وأثبتوا العلم السابق، ولكن أنكروا قدرة الله في فعل العبد، فالله سبحانه وتعالى علم الأشياء قبل كونها.

الركن الثاني: الكتابة

الركن الثاني– أو المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر– هو الكتابة، فيجب الإيمان بأن الله تعالى كتب كل المقادير في اللوح المحفوظ وسطر فيها كل ما هو كائن إلى يوم القيامة.

واللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق سماه القرآن بالكتاب، وبالكتاب المبين، وبالإمام المبين وبأم الكتاب، والكتاب المسطور.

– قال تعالى: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**﴾ **[البروج: الآيات: ٢١، ٢٢]**، وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ **[الحج: الآية: ٧٠]**،

وقال تعالى: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ**﴾ **[يس: الآية: ١٢]**،

وقال تعالى: ﴿**وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ**﴾ **[الطور: الآيات: ١– ٣]**،

وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ **[الزخرف: الآية: ٤]**،

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص–رضي الله عنهما–(ت: ٦٥ هـ)، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–أنه قال: (**إنَّ الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**).[(١)].

قال عبادة بن الصامت–رضي الله عنه–(ت: ٣٤ هـ) لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، يقول: (**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب.قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**)، يا بني إني سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: (**من مات على غير هذا فليس**

(١) أخرجه مسلم كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى برقم: (٢٦٥٣).

مني).[١]

وعن ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)، قال: "كنت خلف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوما، فقال: **(يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)**.[٢]

أنواع التقدير:

ذكر ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ) أقسام التقدير الخمسة، وأوضحها بأدلتها، وهي باختصار:

التقدير الأول: تقدير المقادير قبل خلق السماوات والأرض، وهو التقدير العام الشامل لكل شيء في اللوح المحفوظ، وقد سبق ذكر بعض الأدلة عليه.

التقدير الثاني: تقدير الرب- تبارك وتعالى- شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم، وهو تقدير ثان بعد التقدير الأول، فعن عمران بن حصين قال: "قيل: يا رسول الله، علم أهل الجنة من أهل النار؟ فقال (نعم).قيل: ففيم يعمل العاملون؟ قال: (كل ميسر لما خلق له)."[٣].

التقدير الثالث: المتعلق بالجنين وهو في بطن أمه، وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله؛ فعن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال: حدثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو الصادق المصدوق: **(إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات؛ بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع**

---

(١)أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٤٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٩٣) (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٣٠٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٥١) ومسلم (٢٦٤٩) واللفظ له.

فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها).(١)

التقدير الرابع: التقدير في ليلة القدر؛ قال الله تعالى: ﴿**حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ**﴾ [الدخان: الآيات: ١ - ٥].

قال أبو عبد الرحمن السلمي–رحمه الله–(ت: ٧٤ هـ): "يقدر أمر السنة كلها في ليلة القدر"، وهذا هو الصحيح: أن القدر مصدر قدر الشيء يقدره قدرًا، فهي ليلة الحكم والتقدير.

التقدير الخامس: التقدير اليومي؛ قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ **[الرحمن: الآية: ٢٩]**.

قال مجاهد–رحمه الله–(ت: ١٠٤ هـ)، والكلبي–رحمه الله–(ت: ١٠٤ هـ)، وعبيد بن عمير–رحمه الله–(ت: ٧٣ هـ)، وأبو ميسرة–رحمه الله–(ت: ٦٣ هـ)، وعطاء–رحمه الله–(ت: ١١٤ هـ)، ومقاتل–رحمه الله–(١٥٠ هـ): "من شأنه: أن يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر، ويعز ويذل، ويفك عانيا، ويشفي مريضا، ويجيب داعيا، ويعطي سائلا، ويتوب على قوم، ويكشف كربا، ويغفر ذنبا، ويضع أقواما، ويرفع آخرين.دخل كلام بعضهم في بعض ... ".

إلى أن **قال ابن القيم –رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ):** "فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقه، وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده، لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق، وفي ذلك الدليل على علم الرب وقدرته وحكمته، وزيادة التعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه".(٢)

الركن الثالث: المشيئة:

الركن الثالث– أو المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر– المشيئة، أي: الإيمان بمشيئة الله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) شفاء العليل (ص: ٣١-٤٩).

النافذة وقدرته التامة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون في السماوات ولا في الأرض إلا بمشيئته، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد.

والنصوص المصرحة بهذا الركن المقررة له كثيرة، منها:

- قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَّشَاءَ اللَّهُ﴾ **[التكوير: الآية: ٢٩]**.

- وقال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْموْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَّشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية: ١١١]**.

- وقال تعالى: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: الآية: ١١٢]**.

- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: الآية: ٣٦].

- وقال تعالى: **﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: الآية: ٣٩]**.

ومشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن، فما شاء الله تعالى كونه فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ الله تعالى إياه لا يكن لعدم مشيئة الله تعالى ليس لعدم قدرته عليه.

- قال تعالى: **﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٣]**.

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: الآية: ٤٨].

- وقال تعالى: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: الآية: ٣٥]**.

- وقال تعالى: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٧]**.

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ [يونس: الآية: ٩٩].

وجاء في حديث **حذيفة بن أسيد-رضي الله عنه-(ت: ٤٢ هـ)** في شأن الجنين: (**فيقضي ربك ما يشاء، ويكتب الملك**).[١].

وعن أبي موسى الأشعري-رضي الله عنه-(ت: ٤٤ هـ)، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-: (**اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء**).[٢].

قال ابن القيم -رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "المرتبة الثالثة من مراتب القضاء والقدر، وهي

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣٢).

مرتبة المشيئة:

وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله عليها خلقه، وأدلة العقول والبيان، وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة الله وحده؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به.

والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد حتى وإن كان مخالفا لأمره الشرعي، فهو سبحانه وتعالى أراد أن يمتحن عباده، فجعل لهم إرادة وقدرة؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملا؛ فمن آمن واستقام فاز، ومن كفر وعاند فقد خسر خسرانا مبينا؛ فتجزى كل نفس بما عملت، فالعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: ﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ **[التكوير: الآيات: ٢٨، ٢٩]**، وقد يريد العبد الشر، ولكن الله لا يمكنه منه؛ فكل شيء داخل تحت إرادته ومشيئته، ولا يخرج العباد أبدا في كل أمورهم عن تلك الإرادة والمشيئة؛ قال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾ **[البقرة: الآية: ٢٥٣]**، وقال سبحانه: ﴿**كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾ **[آل عمران: الآية: ٤٠]**، وقال جل وعلا: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾**[الأنعام: ١١٢]**".[(١)]

أنواع الإرادة: لله- جل وعلا- إرادتان: كونية قدرية، ودينية شرعية.

قال ابن القيم -رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "وها هنا أمر يجب التنبيه عليه، وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تعرض لمن لم يحط به علما، وهو أن الله- سبحانه- له الخلق والأمر، وأمره- سبحانه- نوعان: أمر كوني قدري، وأمر ديني شرعي.

(١) انظر: شفاء العليل (ص: ٩٣) بتصرف واختصار.

فمشيئته- سبحانه- متعلقة بخلقه وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكره، كله داخل تحت مشيئته، كما خلق إبليس وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها، فمشيئته- سبحانه- شاملة لذلك كله.

وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله، فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعا فهو محبوب للرب، واقع بمشيئته؛ كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني، ولم تتعلق به مشيئته، وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته، ولم تتعلق به محبته، ولا رضاه ولا أمره الديني، و ما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته، فلفظ المشيئة كوني، ولفظ المحبة ديني شرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية؛ فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية؛ فتكون هي المحبة.

وإذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ **[الزمر: الآية: ٧]**، وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ **[البقرة: الآية: ٢٠٥]**، وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ **[البقرة: الآية: ١٨٥]**، لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره؛ فإن المحبة غير المشيئة، والأمر غير الخلق، ونظير هذا: الأمر؛ فإنه نوعان: أمر تكوين، وأمر تشريع، والثاني قد يعصى ويخالف بخلاف الأول".

إلى أن قال رحمه الله: "فسبحانه أن يكون في مملكته ما لا يشاء أو أن يشاء شيئا فلا يكون، وإن كان فيها ما لا يحبه ولا يرضاه، وإن كان يحب الشيء فلا يكون لعدم مشيئته له، ولو شاءه لوجد"(١).

الركن الرابع: الخلق

الركن الرابع- أو المرتبة الرابعة من مراتب الإيمان بالقدر- الخلق، أي: خلق الله تبارك وتعالى لكل موجود، لا شريك لله في خلقه.

وقد قررت النصوص أن الله خالق كل شيء، فهو الذي خلق الخلق وكوَّنهم وأوجدهم، فهو الخالق وما سواه مربوب مخلوق.

ومن أدلة القرآن الكريم:

الله تعالى خالق كل شيء، ومن ذلك أفعال العباد، فلا يقع في هذا الكون شيء إلا وهو

(١) شفاء العليل (ص: ١٠٥-١٠٦).

خالقه...

١-قال تعالى في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام حيث كسر أصنامهم ثم جاء إليه قومه يناقشونه مسرعين فقال لهم كما حكى الله عنه: ﴿**أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ **[الصافات: الآيات: ٩٥-٩٦]**، أي خلقكم وعملكم فتكون (ما) مصدرية، وقيل: إنها بمعنى الذي، فيكون المعنى: والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيدكم وهو الأصنام(١) وقد ذكر ابن كثير القولين ثم قال: "وكلا القولين متلازم، والأول أظهر" (٢) وقد علل ذلك بما يؤيده من رواية البخاري في أفعال العباد **عن حذيفة-رضي الله عنه-(ت: ٣٦ هـ)** قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن الله يصنع كل صانع وصنعته**)(٣)، وتلا بعضهم عند ذلك ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ **[الصافات: الآية: ٩٦]**، فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة فالله تعالى خالق الخلق وأفعالهم كما دلت على ذلك الآية والحديث.

٢-وقد وردت آيات كثيرة تدل دلالة واضحة على أن كل شيء مما في هذا الكون مخلوق لله سبحانه وتعالى, وقد وردت هذه الآيات بلفظ العموم فقال تعالى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ **[الرعد: الآية: ١٦]**، وفي آية أخرى: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ **[غافر: الآية: ٦٢]**، وهذه نصوص واضحة في الدلالة على مرتبة الخلق، وقد جاءت الآية الأولى في معرض إنكار أن يكون للشركاء خلق كخلقه، سبحانه وتعالى فنفى ذلك سبحانه آمراً رسوله أن يقرر هذه الحقيقة التي تفصل في الأمر وتدل على وحدانية الله تعالى وانفراده بالخلق والرزق: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ **[الرعد: الآية: ١٦]**، وفي موضع آخر جاءت هذه الآية لبيان قدرة الله تعالى وكماله ودلائل وحدانيته: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ **[الزمر: الآية:٦٢]**، أما الآية الثانية فقد جاءت أيضاً لبيان قدرة الله التامة حيث جعل لعبادة الليل والنهار ثم بين سبحانه أنه خالق كل شيء.

٣-وقال تعالى ممتناً على الصحابة رضوان الله عليهم بعد أن أمرهم بالتثبت في خبر

---

(١)انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٧/ ٧٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢).

(٣) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (١٠٢). وصححه ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٥٠٧)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٣٦) وقال: على شرط مسلم.

الفاسق. ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾. **[الحجرات: الآية: ٧]**، والشاهد قوله: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ**﴾..﴿**وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ**﴾...، فهو سبحانه هو الذي جعل الإيمان محبوباً أو أحب الأشياء إليكم، وهو الذي حسنه بتوفيقه وقربه منكم، وهو الذي جعل ما يضاد الإيمان من الكفر والفسوق والعصيان مكروها عندكم، وذلك بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله، فالفاعل في كل ذلك هو الله تعالى.(١)

وهناك آيات أخرى كثيرة تدل على أن الله تعالى هو المضل، والهادي, والمؤيد لعباده المؤمنين، والهازم لأعدائهم، وأنه المضحك, والمبكي، والمميت, والمحيي, وكل ذلك دليل على مرتبة الخلق، وقد أورد ابن كثير عند تفسيره لآية الحجرات السابقة، حديثاً يدل على هذه المرتبة عن ابن رفاعة الزرقي قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**استووا حتى أثني على ربي، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما بعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك، ورحمتك، وفضلك، ورزقك، اللهم إني أسالك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسالك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعت، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق**).(٢) فترى في هذا الحديث بأن الله تعالى هو الفاعل

---

(١) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق خان (٩/ ٧٤)، وانظر: تفسير ابن السعدي (٧/ ١٣١)، وانظر: شفاء العليل لابن القيم (ص: ٥٧).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٢٤) (١٥٥٣١)، والبزار (٩/ ١٧٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٣٨). وقال: [فيه] عبد الواحد بن أيمن

=

لهذه الأمور، وهذا دليل على مرتبة الخلق.

الأدلة من السنة:

١-**عن زيد بن أرقم-رضي الله عنه-(ت: ٦٨ هـ)** قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كان يقول: (**اللهم أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها...**).الحديث[١] والشاهد قوله: (**اللهم آت نفسي تقواها وزكها...**)، فالفاعل هو الله تعالى، فهو الذي يطلب منه ذلك ولفظ (**خير**) ليس للتفضيل، بل لا مزكي للنفس إلا الله، ولهذا قال بعد ذلك: (**أنت وليها ومولاها**).[٢] فهو سبحانه الملهم للنفس الخير والشر، قال تعالى: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ **[الشمس: الآية: ٨]**.

قال سعيد بن جبير-رحمه الله-(ت: ٩٥ هـ) في تفسير هذه الآية: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ **[الشمس: الآية: ٨]**، أي: فالخلق والإنسان قادر على سلوك أيهما شاء ومخير فيه.

وقال ابن زيد-(ت: ١٨٢ هـ)، في معنى الآية: "جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى".[٣]

٢- وعن **وراد مولى المغيرة بن شعبة (ت: غير معروف سنة وفاتة)** قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلي ما سمعت النبي-صلى الله عليه وسلم-يقول خلف الصلاة، فأملى عليّ المغيرة قال: سمعت النبي-صلى الله عليه وسلم-يقول: خلف الصلاة: (**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**).[٤] والشاهد قوله: (**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت**)، فالمعطي والمانع هو الله تعالى فهو الفاعل لهما، وهذا يدل على أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى وقوله: (**ولا ينفع ذا**

مشهور ليس به بأس في الحديث، روى عنه أهل العلم، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٢٤): رجاله رجال الصحيح، وصححه ابن حجر في نتائج الأفكار (٢/ ١٦٣) والألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٣٨).

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٧/ ٤١).

(٣) الكشف والبيان للثعلبي (١٠/ ٢١٣)، وزاد المسير (٩/ ١٤٠)، و تفسير البغوي (٨/ ٤٣٨).

(٤) رواه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

الجد منك الجد)، أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه، أو لا ينجيه حظه منك، بل ينفعه عمله الصالح.

٣-وقد قال-صلى الله عليه وسلم-**لأبي موسى الأشعري-رضي الله عنه-(ت: ٤٤ هـ)**: **(يا عبد الله بن قيس، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟)**.فقلت بلى يا رسول الله، قال: **(قل: لا حول ولا قوة إلا بالله)**.[١]، والشاهد قوله: **(لا حول ولا قوة إلا بالله)**، ففيها الاعتراف بأنه لا صانع غير الله، ولا راد لأمره، وأن العبد لا يملك من أمره شيئاً، فمعناها: لا حركة, ولا استطاعة, ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى[٢] وقيل: معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله، وقيل: **(لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعة الله إلا بمعونته)**[٣]، وحكي هذا **عن ابن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)**، وكله متقارب، والكنز هنا: معناه ثواب مدخر في الجنة عند الله وهو ثواب نفيس [٤].

فهذه مراتب القدر وأركانه الأربعة التي يجب على العبد أن يؤمن بها حتى يكون مؤمنًا بالقدر.

وقد يقسم بعض العلماء مراتب القدر إلى درجتين:

فقد قسم **ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)**: "الإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين" – بين فيه مراتب القدر الأربع التي هي:(العلم والكتابة والمشيئة والخلق).

فذكر هنا مراتب القدر، وجمع هنا بين مرتبتين؛ مرتبة العلم ومرتبة الكتابة؛ باعتبار أنهما متلازمتان، كما أنه بالدرجة الثانية جمع بين الخلق والمشيئة، فالقسمة إما ثنائية وإما رباعية، فإذا قلت: رباعية، فتقول: (العلم، الكتابة، الخلق، المشيئة).

وإذا قلت ثنائية، فتقول: (العلم، الكتابة)، أي: علم سبحانه وتعالى ذلك وكتبه، ثم خلقه وشاءه.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٢٥) بلفظ: (ألا أدلك على كلمة) بدلاً من (ألا أدلك على كنز)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٢) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (٥/ ٢٤٣)، لسان العرب (١١/ ١٨٤) مادة: (حول).

(٣) رواه البزار (٥/ ٣٧٤)، والبيهقي في (١/ ٤٤٦) (٦٦٤)، والديلمي (٥/ ٣٧٥) (٨٤٧٨). بلفظ: (إلا بعون الله) بدلاً من (إلا بمعونته). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٠٢): رواه البزار بإســـنادين أحدهما: منقطع وفيه عبد الله بن خراش، والغالب عليه الضعف، والآخر: متصل حسن، وقال الحسيني في البيان والتعريف (٢/ ٢٨٩): سنده لا بأس به.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (١٧/ ٢٦-٢٧)، وانظر: عمدة القاري للعيني (٢٣/ ١٥٤).

فقال: «الإيمان بالقدر على درجتين؛ كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: الإيمان بالعلم والكتابة»؛ فالله- تعالى علم الأشياء قبل كونها، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما أخبر- مثلا- عن شأن أهل النار فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: الآية: ٢٨]؛ فلو ردوا إلى الدنيا فسيكون منهم عودة إلى ما نهاهم الله عنه، وهذا لا يكون، ولكنه لو كان فسيكون بهذه الحال، فالله سبحانه وتعالى علم الأشياء قبل كونها، وهو عليم بها أثناء كونها، وعليم بما سيكون، وعليم بما لم يكن لو كان كيف يكون، فسبحان من وسع علمه كل شيء!

فهو عليم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبدا؛ ونحن نؤمن أن الله متصف بجميع الصفات أزلا وأبدا.

المسألة السادسة: مواقف المخالفين من مراتب القدر

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الناس قد تنازعوا في القدر، وخاضوا فيه بغير علم، وهذا باب عظمت فيه الفتنة، وكثر فيه النزاع، وما يصيب الإنسان من الحيرة والضلال، إلا من جهة الجهل بالقدر".(١).

قال ابن أبي العز–رحمه الله–(ت: ٧٩٢ هـ): "وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر، وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع".(٢).

وقد حدثت بدعة "القدرية" في آخر عصر الصحابة.(٣).وكان القدر قد حدث أهله قبل أهل النفي للصفات، فمقالة القدر ظهرت في خلافة عبد الله الزبير–رضي الله عنه–(٦٤-٧٣هـ) بعد موت معاوية.(٤)

ولهذا تكلم فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وواثلة بن الأسقع(٥) –رضي الله عنهم–.

وابن عباس–رضي الله عنهما–مات (٦٨هـ) قبل ابن الزبير وابن عمر مات عقب

---

(١) مجموع الفتاوى، (٨/ ٢٦٢).

(٢)شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣٤٠).

(٣)منهاج السنة (٣٠٨/١).

(٤)الحسنة والسيئة (ص: ١٠٣).

(٥)منهاج السنة (ص: ١٠٣).

موته (٧٤هـ).وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين، فبقي الناس يخوضون في القدر بالحجاز، والشام، والعراق، وأكثره كان بالشام والعراق بالبصرة، وأقله كان بالحجاز.[١]

وأول من عرف بنفي القدر، رجل مجوسي يقال سيسويه من الأساورة، وإن كان قد اشتهر أن أول من قال به معبد الجهني.[٢]

قال الهروي–رحمه الله–(ت: ٤٨١ هـ): "فأما القدر فأول من تكلم به معبد الجهني رجل من أهل البصرة، كان عنده حظ من العلم يقال له معبد بن خالد، ويقال معبد ابن عبد الله بن عويم، مات بعد الهزيمة وكان يومئذ مع ابن الأشعث، وأصابته جراحة، وهو أول من تكلم بالقدر، وهو الذي تبرأ منه عبد الله بن عمر بن الخطاب.[٣] مات قبل التسعين [٤] قتله الحجاج بن يوسف وقيل صلبه عبد الملك بن مروان سنة ثمانين".[٥]

وأخذ غيلان الدمشقي عن معبد الجهني [٦]

قال الهروي–رحمه الله–(ت: ٤٨١ هـ): "فتكلم عليه عمرو بن عبيد، وجادل به غيلان بن مسلم الدمشقي (ت: ١٠٦ هـ) وغيلان هو ابن أبي غيلان أبو مروان من موالي عثمان، وكان عنده حظ من العلم، تكلم به أيام عبد الملك بن مروان–رحمه الله–(ت: ٨٦ هـ)، واستتابه عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ)، ثم ظهر منه تكذيب التوبة [٧] زمن يزيد بن عبد الملك–رحمه الله–(ت: ١٠٥ هـ)، ثم لما ولي هشام بن عبد الملك سنة (١٠٦هـ)، أرسل إلى غيلان وأحضر له الأوزاعي لمناظرته، ثم قتله [٨] فصلب على باب الشام بأخزى حالة لقيها بشر".[٩]

"وأما عمرو بن عبيد فهو عمرو بن كيسان أبو عثمان مولى بني تميم البصري، مات سنة

---

(١)الحسنة السيئة (ص: ١٠٣).
(٢)تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥).
(٣) ذم الكلام (ص: ٣٠٣).
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٧).
(٥) تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٧).
(٦)سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٧).
(٧)ذم الكلام (ص: ٣٠٣).
(٨) الشريعة للآجري (ص: ٢٢٨)، التنبيه والرد للملطي (ص: ١٦٨).
(٩)ذم الكلام ص: ٣٠٣).

ثلاث وأربعين ومائة في طريق مكة فإنه أول من بسط أساسه فأصبح رأسه، ونظم له كلامًا ونصبه إمامًا، ودعا إليه ودل عليه، فصار مذهبًا يسلك، وهو إمام الكلام وداعية الزندقة الأولى رأس المعتزلة، سموا به لاعتزاله حلقة الحسن البصري-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ)، وهو الذي لعنه إمام أهل الأثر مالك بن أنس الأصبحي-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)، وإمام أهل الرأي النعمان بن ثابت الكوفي أبو حنيفة-رحمه الله-(ت: ١٥٠ هـ)، وحذر منه إمام أهل الشرق عبد الله بن المبارك الحنظلي-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ)، فسلط الله عليه وعلى من استتبع واخترع، سيفاً من سيوف الإسلام وهو أبو بكر أيوب بن أبي تميمة السختياني-رحمه الله-(ت: ١٣١ هـ)، فهتك استاره، وأظهر عواره، ورسمه باللعنة وألحق به بلاء تلك الفتنة".(١)

فقد تلقَّف المعتزلة مقالة القدرية حتى بعد ذلك أصبح إذا قيل: القدرية، فإن الذي يعنى بذلك هم المعتزلة في ذلك الحين.

ونفاة القدر أرادوا منازعة الله في الربوبية فضاهوا بذلك المجوسية الأولى وهم الزنادقة.(٢)

وأصل بدعة القدرية كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله والإيمان بأمره ونهيه ووعده ووعيده، وظنوا أن ذلك ممتنع؛ وكانوا قد آمنوا بدين الله وآمره ونهيه ووعده ووعيده، وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصي، لأنهم ظنوا أن من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر وهو يعلم أن المأمور يعصيه، وظنوا أيضاً أنه إذا علم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يفسد.

فلما بلغ قولهم بإنكار القدر الصحابة أنكروه إنكاراً عظيماً وتبرؤا منهم.ثم كثر الخوض في القدر فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم، وصار النزاع في الإرادة وخلق أفعال العباد فصاروا في ذلك حزبين.

١- "النفاة": يقولون لا إرادة إلا بمعنى المشيئة، وهو لم يرد إلا ما أمر به، ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد.

٢- "المجبرة" كالجهم بن صفوان (ت: ١٢٨ هـ) وأمثاله، قابلوا الفريق الأول فقالوا ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة، والأمر والنهي لا يستلزم إرادة، وقالوا العبد لا فعل له البتة ولا قدرة،

---

(١) ذم الكلام (ص: ٣٠٣).

(٢) ذم الكلام (ص: ٣٠٥).

بل الله هو الفاعل القادر فقط.(١)

أولًا: الموقف من مرتبة العلم والكتابة.

والقدرية(٢) ينقسمون إلى قسمين:

القدرية الأولى

وهؤلاء هم الغلاة الذين أنكروا القدر وأنكروا علم الله السابق بالأمور، "فيقولون إن الله لا يعلم أعمال العباد قبل أن يعملوها، ولا تعلقت بها مشيئة الله، فلما شنع عليهم المسلمون، وكفروهم بذلك: تحولوا عن قولهم الأول فأثبتوا العلم، وأنكروا القدر.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "فهذا التقدير– أي: تقدير العلم والكتابة– قد كان ينكره غلاة القدرية قديما، ويقولون: إن الأمر أنف؛ أي: أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها"(٣).

فغلاة القدرية يقولون والعياذ بالله–: إن الله لا يعلم أن العبد سيعمل هذا العمل إلا عند وقوعه.تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.والله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء أزلا

ولهذا كان الأئمة كالإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ)، وغيره، يقولون: "ناظروا القدرية بالعلم فإن أنكروا العلم كفروا، وإن اعترفوا به خصموا"(٤)

قال حافظ حكمي–رحمه الله–(ت: ١٣٧٧ هـ): "ثم منهم من نفى علم الله تعالى كأوليهم، ففيهم من نفى علمه بالكليات والجزئيات ومنهم من أثبت العلم بالكليات دون الجزئيات"(٥)

قال النووي –رحمه الله–(ت: ٦٧٦ هـ): "واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه: أن الله– تبارك وتعالى– قدر الأشياء في القدم، وعلم– سبحانه– أنها ستقع في أوقات معلومة عنده –سبحانه وتعالى–، وعلى صفات مخصوصة؛ فهي تقع على حسب ما

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦،٣٧).

(٢) سموا بالقدرية لإنكارهم القدر، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية أيضًا، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب.شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١/ ٧٩)، و (٢/ ٧٩٧)، معجم ألفاظ العقيدة (ص: ٣١٦).

(٣)شرح العقيدة الواسطية (ص: ٢١٩).

(٤) الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص: ٢٠)، مجموع الفتاوى (٨/ ٤٥٠).

(٥) معارج القبول (٣/ ٩٤٥).

قدرها -سبحانه وتعالى-، وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أنه -سبحانه وتعالى- لم يقدرها، ولم يتقدم علمه -سبحانه وتعالى- بها، وأنها مستأنفة العلم، أي: إنما يعلمها- سبحانه- بعد وقوعها، وكذبوا على الله سبحانه وتعالى وجل عن أقوالهم الباطلة علوًا كبيرًا.

وسميت هذه الفرقة قدرية؛ لإنكارهم القدر؛ قال أصحاب المقالات من المتكلمين: وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر، لكن يقولون: الخير من الله، والشر من غيره"(١)

والنصـــوص في العلم والكتابة- بحمد الله تعالى- كثيرة وواضـــحة في الدلالة على هاتين المرتبتين: العلم والكتابة، كما تقدم ذكرهما.

ثانيًا: الموقف من مرتبة الخلق والمشيئة.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما الدرجة الثانية فهي مشيئته النافذة وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وأنه- سبحانه- على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات؛ فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره، ولا رب سواه

وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي -صلى الله عليه وسلم- مجوس هذه الأمة، ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها"(٢)

فالقدرية الثانية:

زعموا "أن أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم، لم تدخل تحت قضاء الله وقدره، فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقات، وأوصافها، ونفوا قدرته على أفعال المكلفين، وقالوا: إن الله لم يردها ولم يشأها منهم، بل: هم الذين أرادوها وشاءوها، وفعلوها، استقلالاً بدون مشيئة الله"(٣)

"فهؤلاء يقولون أن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، وإنما العباد هم الخالقون لها، وهذا هو

(١)شرح النووي على مسلم (١/ ١٥٤).

(٢) شرح العقيدة الواسطية (ص: ٢٢٠-٢٢١).

(٣) الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص: ١٧).

مذهب المعتزلة ومن وافقهم، فهم ينكرون مرتبتي المشيئة والخلق، فينفونها عن الله تعالى، ويثبتونها للإنسان"(١)

وافترقت القدريَّة إلى عشرين فرقة، وهذه أسماؤها: الواصلية، والعمرية، والهذلية، والنظامية، والمردارية، والمعمرية، والثمامية، والجاحظية، والخياطية، والشحامية، وأصحاب صالح قبة، والمريسية، والكعبية، والجبائية، والبهشيمية المنسوبة إلى أبي هاشم بن الجبائي".(٢)

وابن تيمية–رحمه الله–يشير هنا إلى كل من القدرية والجبرية

وقد ضَـلَّ في هذا الباب (باب أفعال الله) الجبريةُ والقدريةُ، وما زال إلى يوم الناس هذا مَن يَخبط فيه بين قائل بأن العبد مجبر على أفعاله، وبين قائل بأن العبد لا فِعل له ولا اختيار، وإنما هو كالريشة في مَهَبِّ الرِّيح، وأهل السنة والجماعة وسطٌ بين هذا وذاك.

وقد أوضَـح **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**: هذا في «مَجموع الفَتاوى» قول أهل السـنة فقال: "وهم في باب خَلقِ الله وأمرِه وسـطٌ بين المكذِّبين بقُدرة الله الذين لا يُؤمنون بقُدرتِه الكاملة ومَشِيئته الشـاملة وخَلقِه لكل شـيء، وبين المفسـدين لدِين الله الذين يَجعلون العبدَ ليس له مَشِيـئةٌ ولا قُدرة ولا عمل، فيُعطِّلون الأمر والنهي والثوابَ والعقاب، فيَصِـيرون بمَنزِلة المشـركين الذين قالوا: ﴿**لَوْ شَـاءَ اللَّهُ مَا أَشْـرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَـيْءٍ**﴾ [الأنعام: الآية: ١٤٨].

فيُؤمن أهل السُّـنَّة بأنَّ الله على كل شـيء قدير، فيَقدر أن يهدي العبادَ ويُقلِّب قلوبَهم، وأنه ما شـاء الله كان وما لم يشـأ لم يكن، فلا يكون في مُلكِه ما لا يُريد، ولا يَعجَز عن إنفاذ مُرادِه، وأنه خالِق كلِّ شـيء من الأعيان والصِّـفات والحَرَكات.ويُؤمنون أن العبدَ له قُدرة ومشيئة وعملٌ، وأنه مُختار ولا يُسمُّونه مَجْبورًا؛ إذ المجْبور مَن أُكْرِه على خلاف اختِياره، والله عز وجل جعَل العبدَ مُختارًا لِمَا يفعله، فهو مختارٌ مُريد، والله خالِقُه وخالِقُ اختياره، وهذا ليس له نَظِيرٌ؛ فإن الله ليس كمثله شيءٌ، لا في ذاتِه ولا في صفاته ولا في أفعاله"(٣)

(١) القضاء والقدر لعبد الرحمن المحمود (ص: ٣٠٥).
(٢)الفرق بين الفرق لعبدالقاهر البغدادي (ص: ٤٤).
(٣) مجموع الفَتاوى (٣/ ٣٧٣-٣٧٤).






المفاضلة بين الصحابة

وفيه مسائلتان:

المسألة الأولى: المفاضلة بين العباد أمرٌ بيد الله–عز وجل–.

المسألة الثانية: المفاضلة بين الصحابة .





[٢]–قال المصنف–رحمه الله–: "وتقديمُ أبي بكرٍ وعُمرَ–رضي الله عنهما–".

الشرح

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المفاضلة بين العباد أمرٌ بيد الله–عز وجل–.

المفاضلة بين العباد أمرٌ بيد الله–عز وجل–وما كان بيد الله–عز وجل–فهو ملكه، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: الآية: ٦٨]، فالله اختار أن يفضل فلان على فلان من الناس وهذه المفاضلة قد تكون في المال، وقد تكون في العلم، وقد تكون في النسب، وقد تكون في أمورٍ متعددة فهذا فضل الله سبحانه وتعالى، وفضل الله يؤتيه من يشاء سبحانه وتعالى.

والله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: الآية: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: الآية: ٧١].

وكتب عمر–رضي الله عنه–رسالة إلى أبي موسى الأشعري، يقول له فيها: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضَّل بعض عباده على بعض في الرزق، بلاء يبتلي به كلًا، فيبتلي من بسط له، كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله، رواه ابن أبي حاتم.(١)

فقد يُفاضل الله–سبحانه وتعالى–بين الذكر والأنثى، قد يفاضل الله–سبحانه وتعالى–بين الإخوة، وقد يفاضل الله–سبحانه وتعالى–بين بني الجنس الواحد، كل ذلك تحت قدرته، وتحت إرادته–سبحانه وتعالى–حتى في الأولاد، ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: الآيتان: ٤٩–٥٠]، فقد يكون الإنسان عقيمًا،

(١) الدر المنثور: (٥/ ١٠٦) وعزاه لابن أبي حاتم.

وقد يكون ذا أولاد من الذكور أو الإناث أو من الذكور والإناث.

فالإنسان في هذا الكون يسير على قدر الله-سبحانه وتعالى-، والله-سبحانه وتعالى-هو المتصرف والمدبر لأمر هذا الكون كله، وكله ابتلاء، فالنعمة ابتلاء وضدها ابتلاء، ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ [الملك: الآية: ٢]، كل أمرٍ نحن فيه هو ابتلاء.

ليرى الله عز وجل منك ما أنت صانع وما أنت فاعل، فإذاً هذه المفاضلة موجودة، ولا شك أن أهل الإيمان أفضل من الكفار، وأكبر نعمة منها الله عز وجل على الإنسان أن هداه لهذا الدين، والله سبحانه وتعالى سماه نعمة، ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: الآية: ٣]، فسماها نعمة ولا شك أنها أعظم النعم على العبد أن هداه الله-عز وجل-لنعمة الإسلام.

المسألة الثانية: المفاضلة بين الصحابة.

والصحابة هم في الفضل متفاوتون؛ فمن أنفق قبل الفتح (صُلح الحديبية) لا يستوي مع مَن أنفق بعده، وكذلك المهاجرون مُقَدَّمون على الأنصار، ويأتون في الفضل على مراتب؛ فأهل بدر، ثم أهل بيعة الرِّضوان، ثم من جاء بعدُ.

وقد جاء في فضل أهل بدر؛ قوله-صلى الله عليه وسلم-: ((**لعلَّ اللهَ اطَّلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شِئتم، فقد وَجَبت لكم الجنة-أو-فقد غفرتُ لكم**)).(١)، وقال الله-جل وعلا-عن أهل بيعة الرضوان: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ [الفتح: الآية: ١٨]، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

أولاً: هذه المسائل المتعلقة بالمفاضلة بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يذكرها العلماء دائماً توطئة لمسائل الخلافة والإمامة.

فمسألة تفضيل أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم على باقي الصحابة، ويدخل فيها مسألة تفضيل عثمان على علي.

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٣) ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-.

وأهل السنة يعتقدون بأن خير هذه الأمة بعد النبي-صلى الله عليه وسلم-أبو بكر وعمر وعثمان، ثم علي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، ثم بعد ذلك يأتي بقية العشرة، ثم يأتي بعد هذا أهل بدر، ثم يأتي بعد ذلك أهل بيعة شجرة الرضوان، ثم بعد ذلك يأتي أهل الفتح فتح مكة ثم بعد ذلك يتوالى الفضل بحسب أقدمية ذلك الذي أسلم من الصحابة.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "ويقرُّون بما تَوَاتَرَ به النَّقْلُ عن أميرِ المؤمنينَ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ-رضي الله عنه-وغيرِه، مِن أَنَّ خَيْرَ هذه الأُمَّةِ بعد نَبِيِّهَا: أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ويثُلِّثُونَ بِعُثْمَان، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ-رضي الله عنهم أجمعين-، كما دلَّت عليه الآثارُ"(١)

وقد أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة، وإن كان بعض السلف قد اختلفوا في التفضيل بين عثمان وعلي-فإنهم لم يختلفوا في الترتيب في البيعة للخلافة، وكل مَن خالف الترتيب في الخلافة فإنه من أهل البدع.

وترتيب أهل السنة: "أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ويثُلِّثُونَ بِعُثْمَان، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ-رضي الله عنهم أجمعين-".

وإن كان ثَمَّ خلاف في التفضيل بين عثمان وعليٍّ، ولكنه لا يترتب عليه أي أثر في الانتساب لأهل السنة؛ "فقدَّم قومٌ عثمانَ، وسكتوا، وربَّعوا بعليٍّ، وقدَّم قومٌ عليًّا، وقومٌ توقَّفوا، لكن استقرَّ أمرُ أهلُ السُّنَّة على تقديم عُثْمَان ثم عليٍّ".

كانتْ هذه المِسْأَلَةُ (مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وعليٍّ) ليستْ من الأصولِ التي يُضَلَّلُ المخالفُ فيها عند جمهورِ أَهْلِ السُّنَّة، لكن التي يُضَلَّلُ فيها مسألةُ الخلافةِ؛ وذلك لأنهم يؤمنون أنَّ الخليفةَ بَعْدَ رسولِ الله-صلى الله عليه وسلم-أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ، ومَن طَعَنَ في خلافة أحدٍ مِن هؤلاء فهو أضلُّ مِن حِمَارِ أَهْلِهِ».

فلهم مِن الفضل ومِن المكانة ما هو مُجمع عليه بين أهل السُّنَّة.

ثانيًا: ذكر تفاضل الأربعة رضوان الله عليهم.(٢)

أجمع الصحابة-رضوان الله عليهم-على تفضيل أبي بكر وتقديمه على سائر الصحابة ثم

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٩١).

(٢) المصدر: مباحث المفاضلة في العقيدة: (ص: ٢٥٢-٢٦٤).

تفضيل عمر بعده على عثمان ثم عثمان بعد عمر على من بعده–رضوان الله عليهم–، وكانوا يتحدثون بذلك في زمن النبي–صلى الله عليه وسلم–وهو يسمعهم فلا ينكره، ثم أجمعوا على تقديم علي بعد عثمان فقدموه وبايعوه بالخلافة.

فالصحابة مجمعون على تفضيل أبي بكر على عمر ثم عمر على عثمان ثم عثمان على علي–رضي الله عنهم أجمعين–، وتفضيل أبي بكر على عمر بلا خلاف.

ولقد اتفق–الناس–الصحابة وغيرهم–بعد مقتل عمر–رضي الله عنه–على تفضيل عثمان، حكى هذا الاتفاق صاحب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود–رضي الله عنهما–، أما عبد الرحمن فقد قال في قصة بيعة عثمان–رضي الله عنه–لما اختاره للخلافة بعد عمر: "أما بعد، يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان"[١] وكان قد قال–رضي الله عنه–قبل ذلك للشيخين عثمان وعلي–رضي الله عنهما–حين التشاور: "أفتجعلونه–(يعني أمر الاختيار)–إلي والله على أن لا آلو عن أفضلكم"[٢] وقال عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–لما استخلف عثمان: " أمرنا خير من بقي ولم نأل"[٣] وقال–رضي الله عنه–: "إنا اجتمعنا أصحاب محمد فلم نأل عن خيرنا ذي فوق فبايعنا أمير المؤمنين عثمان".[٤]

وقال الإمام أحمد: "لم يكن بين أصحاب رسول الله اختلاف إن عثمان أفضل من علي"[٥]

ومضى اعتقاد أهل السنة والجماعة على ذلك إلا ما كان من خلاف يسير في المفاضلة

---

(١) أخرجه البخاري انظره مع الفتح (١٣/ ١٩٤)، وقد كان عبد الرحمن–رضي الله عنه–قد اجتهد غاية الاجتهاد قال ابن كثير في الباعث الحثيث (ص: ١٥٥): "حتى سأل النساء في خدورهن والصبيان في المكاتب فلم يرهم يعدلون بعثمان أحدًا".

(٢) أخرجه البخاري انظره مع الفتح (٧/ ٦١).

(٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٦١)، قال المحقق: "إسناده صحيح"، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٦٣)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٧٦٠)، والخلال في السنة (ص: ٣٨)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٨٨): "رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح"، وأخرجه اللالكائي في الشرح (٧/ ١٣٤٢).

(٤) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٢٩٦، ٤٦٣)، قال المحقق في (ص: ٢٩٦): "رجال الإسناد ثقات، وقال في (ص: ٤٦٧): "إسناده حسن"، وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٦٣)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٧٦١)، وأخرجه اللالكائي في الشرح.(٧/ ١٣٤٢).

(٥) السنة للخلال (ص: ٣٩٢).

بين عثمان وعلي أيهما أفضل؟ بعد أن أجمعوا على تقديم أبي بكر وعمر عليهما في الفضل بلا خلاف.

وتفضيل أبي بكر على عمر بلا خلاف.

قال الشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ): "ما اختلف أحد من الصحابة والتابعين في تفضيل أبي بكر وعمر وتقديمهما على جميع الصحابة وإنما اختلف من اختلف منهم في علي وعثمان"قال البيهقي-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ)، -بعد ذكره قول الشافعي هذا بسنده-: "وروينا عن جماعة من التابعين وأتباعهم نحو هذا"[١]

وقال يحيى بن سعيد القطان-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ): "من أدركت من أصحاب النبي والتابعين لم يختلفوا في أبي بكر وعمر وفضلهما إنما كان الاختلاف في علي وعثمان[٢] والخلاف الذي وقع في ذلك خلاف يسير، وما وقع إلا في المفاضلة بينهما، وتقديم أحدهما على الآخر في الفضل دون الخلافة، فإنهم مجمعون بلا خلاف على تقديم عثمان على علي في الخلافة، وعلى صحة الخلافتين، ثم إن ذاك الخلاف قد انقضى واستقر أمر أهل السنة على تفضيل عثمان على علي ورجع بعض من قال بتقديم علي إلى تقديم عثمان.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي-رضي الله عنهما-بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر، أيهما أفضل، فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي، وقدم قوم عليا، وقوم توقفوا، قال: "لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان على علي، وإن كانت هذه المسألة-مسألة عثمان وعلي-ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن التي يضلل فيها هي مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله"[٣]

قال ابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "الإجماع انعقد بأخره بين أهل السنة أن

---

(١) الاعتقاد (ص: ٣٦٩).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٧/ ١٣٦٧).

(٣) العقيدة الواسطية-ضمن المجموعة العلمية السعودية-(ص: ٨٦).

ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة"(١)

وروى ابن عبد البر-رحمه الله-**(ت: ٤٦٣ هـ)** بسنده أن مالكًا سُئل: من تقدم بعد رسول الله؟ قال أقدم أبا بكر وعمر ولم يزد على هذا.وروى أيضا قول مالك: "ليس من أمر الناس الذين مضوا عليه أن يفاضلوا بين الناس"(٢)

ولقد روى الخلال-رحمه الله-**(ت: ٣١١ هـ) بسنده عن أيوب السختياني**-رحمه الله-**(ت: ١٣١ هـ)** أنه قال: "دخلت المدينة والناس متوافرون القاسم بن محمد وسليمان وغيرهما فما رأيت أحدًا يختلف في تقديم أبي بكر وعمر وعثمان"(٣)

هذا، وقد ذكر **ابن حزم**-رحمه الله-**(ت: ٤٥٦ هـ)** (٤) عن بعض السلف من الصحابة وغيرهم سمى بعضهم، أن منهم من قال: أفضل الناس بعد النبي-صلى الله عليه وسلم-جعفر بن أبي طالب ومنهم من قال وبعد جعفر حمزة، وأن منهم من قال إن أفضل الناس بعد النبي-صلى الله عليه وسلم-عبد الله بن مسعود، وغير ذلك مما ذكره ابن حزم عن بعض السلف من غير أن يذكر إسنادًا؛ لما رواه عنهم.

قال ابن تيمية-رحمه الله-**(ت: ٧٢٨ هـ)**: "وأما ما يحكي عن بعض المتقدمين من تقديم جعفر وتقديم طلحة أو نحو ذلك فذلك في أمور مخصوصة لا تقديمًا عامًا وكذلك ما ينقل عن بعضهم في علي"(٥)

ويشهد لما قاله ابن تيمية من كلام **ابن حزم**-رحمه الله-**(ت: ٤٥٦ هـ)** نفسه فقد حمل ما ورد عن أم سلمة-رضي الله عنها-في ذكرها زوجها قبل النبي-صلى الله عليه وسلم-على أنه مذهبها في التفضيل، قال: "وروينا عن أم سلمة أم المؤمنين-رضي الله عنها-(ت: مابين ٥٧ إلى ٦٤ هـ)، أنها تذكرت الفضل ومن هو خير فقالت: ومن هو خير من أبي سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم-(٦)، والمروي عن أم سلمة في ذلك ما جاء في

(١) فتح الباري (٧/ ٣٤).
(٢) الانتقاء (ص: ٣٠، ٣٩).
(٣) السنة (ص: ٤٠٣).
(٤) انظر الفصل (٤/ ١١١).
(٥) منهاج السنة (٢٢/ ٧٤).
(٦) الفصل (٤/ ١١١).

سياق قصة زواجها بالنبي–صلى الله عليه وسلم–من قولها: "فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منه"، قال: "ثم رجعت إلى نفسي قلت: من أين لي خير من أبي سلمة، فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، فذكرت قصة خطبة النبي لها ثم زواجها منه–صلى الله عليه وسلم–حتى قولها: "فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه رسول الله–صلى الله عليه وسلم–[(١)] وحمل ما ورد في هذه الرواية عن أم سلمة أنه مذهبها وقولها في أفضل الناس بعد رسول الله–كما حمله ابن حزم–عجيب غاية العجب، ولقد وردت أحاديث في تفضيل أعيان من الصحابة كل واحد في أمر مخصوص كما في حديث: ((أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرؤهم أبي ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح)).[(٢)] ونحو ذلك من الأحاديث ومن قال من السلف مثلا أفرض الصحابة زيد فليس هذا قول منه بأنه أفضل الصحابة بعد النبي وإن توهم الواهم ذلك.

وقد روى الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ) بسنده **عن أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)**، أنه قال: "وما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا ركب الكور رجل أفضل من جعفر"ثم **قال الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ)**: "هذا ثابت عن أبي هريرة، ولا ينبغي أن يزعم زاعم أن مذهبه: أن جعفرًا أفضل من أبي بكر وعمر، فإن هذا الإطلاق ليس هو على عمومه، بل يخرج منه الأنبياء والمرسلون، فالظاهر أن أبا هريرة لم يقصد أن يدخل أبي بكر ولا عمر–رضي الله عنهم–"[(٣)]

ومن قبيل ما ذكره **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ) ما حكاه الخطابي–رحمه الله–(ت: ٣٨٨ هـ)** عن بعض المتأخرين إذ قال: "وللمتأخرين في هذا مذاهب، منهم من قال بتقديم أبي بكر من جهة الصحابة وبتقديم علي من جهة القرابة"

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٧، ٢٨)، (٦/ ٣١٣، ٣١٧، ٣٢١)، والحاكم (٤/ ١٦)، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر الفتح الرباني (٢١/ ٦٧، ٦٨)، وأصله في صحيح مسلم (٢/ ٦٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٦٢٣)، وابن ماجه (١/ ٢٥٥)، وأحمد في المسند (٣/ ١٨٤، ٢٨١).

(٣) السير (١٤/ ٥٠٦).

قال: وكان بعض مشايخنا يقول: أبو بكر خير وعلي أفضل قال: وباب الخيرية غير باب الفضيلة، قال: وهذا كما تقول: إن الحر الهاشمي أفضل من العبد الرومي والحبشي، وقد يكون العبد الحبشي خيرًا من هاشمي في معنى الطاعة لله والمنفعة للناس، فباب الخيرية متعد وباب الفضيلة لازم[١] وهذا الذي حكاه الخطابي هو في معنى ما تقرر من أنه قد تكون في المفضول فضيلة لا توجد في الفاضل من غير أن ينال ذلك من تفضيل الفاضل على المفضول، والله أعلم.

وكان **ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ)** قال: "اختلف السلف أيضا في تفضيل علي وأبي بكر"[٢]

قال الزركشي–رحمه الله–(ت: ٧٩٤ هـ): "قد غلط في ذلك ووهم"[٣] كيف وهو نفسه ممن نقل اجتماع السلف والخلف على أن عليا أفضل الناس بعد عثمان"[٤]

وحاصل ما كان عليه أهل السنة في المفاضلة بين عثمان وعلي قبل انعقاد إجماعهم على تفضيل عثمان ثلاثة مذاهب:

الأول: تفضيل عثمان ثم علي–وكان مذهب الجمهور.

الثاني: تفضيل علي ثم عثمان–وكان قد ظهر في أهل الكوفة.

الثالث: التوقف عن المفاضلة بينهما، وكان قد ظهر في أهل المدينة.

فالمذهب الأول: هو الذي كان عليه عامة أهل السنة كما قال ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ) [٥] والخطابي–رحمه الله–(ت: ٣٨٨ هـ) [٦]، وابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ)[٧] وغيرهم، وفي هؤلاء من توقف في التفضيل عند عثمان فقال بتفضيل عثمان بعد عمر وسكت على ذلك، مع اعتقاده بالتربيع بعلي، وإنما قصد بالتوقف عند عثمان الاقتداء بحديث

(١) معالم السنن–بهامش المختصر– (٧/ ١٨، ١٩).
(٢) الاستيعاب –بهامش الإصابة– (٣/ ٥٢).
(٣) الإجابة (ص: ٥٤).
(٤) انظر الاستيعاب (٣/ ٥٢).
(٥) الاستيعاب (٣/ ٥٤).
(٦) معالم السنن –بهامش المختصر– (٧/ ١٨).
(٧) فتح الباري (٧/ ١١).

ابن عمر المتقدم، وهم لا يقدمون على علي أحدًا بعد الثلاثة، ومن هؤلاء أحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، وصرح رحمه الله بأن التوقف عند عثمان إنما هو عمل بحديث ابن عمر فقال: نقول أبو بكر وعمر وعثمان ونسكت، على حديث ابن عمر"(١)

وقال رحمه الله: "فإن قال قائل من بعد عثمان؟ قلت: علي"(٢)

وقال-رحمه الله-لمن سأله عمن قال: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، قال: "أذهب إليه، ويعجبني أن أقول أبو بكر وعمر وعثمان وأسكت، وإن قال رجل: وعلي، لم أعنفه، ولا يعجبني هذا القول"

قال ابن عمر-رضي الله عنه-(ت: ٧٣ هـ): "أبو بكر وعمر وعثمان، ونترك أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-لا نفضل بينهم"(٣)

وقال-رحمه الله-: "من وقف على عثمان ولم يربع بعلي فهو على غير السنة"(٤)

وهذا المسلك مروي عن جماعة من أئمة أهل السنة كيحيى بن معين-رحمه الله-(ت: ٢٣٣ هـ)، وبشر بن الحارث-رحمه الله-(ت: ٢٢٧ هـ)، ويزيد بن زريع-رحمه الله-(ت: ١٨٢ هـ)، ومحمد بن عبيد-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ)، وعبد الله بن المبارك-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ)، وغيرهم(٥)، وسبق بيان أن ما ورد في حديث ابن عمر من السكوت عن علي متأول بأمور منها أن الإجماع المنعقد على تقديم علي بعد عثمان إنما حدث بعد الزمن الذي قيده ابن عمر.

وأما المذهب الثاني: وهو تفضيل علي ثم عثمان بعد أبي بكر وعمر فهو كان مذهب عامة أهل الكوفة.

قال الخطابي-رحمه الله-(ت: ٣٨٨ هـ): "ذهب أكثر أهل الكوفة إلى تقديمه-يعني عليا-على عثمان رضي الله عنهما قال: "وحدثني محمد بن هاشم حدثنا أبو يحي بن أبي ميسرة عن عبد الصمد قال: قلت **لسفيان الثوري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)**: "ما قولك في التفضيل؟ فقال: أهل السنة من أهل الكوفة يقولون: أبو بكر وعمر وعلي وعثمان، وأهل السنة من أهل

(١) السنة للخلال (ص: ٣٩٧).

(٢) السنة للخلال (ص: ٤،٥).

(٣) السنة للخلال (ص: ٤-٥).

(٤) طبقات الحنابلة (١/ ٣١٣).

(٥) انظر السنة للخلال (٣٩٧، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤١٠)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (٧/ ١٣٨٩، ١٣٩٢، ١٣٦٩).

البصرة يقولون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، قلت: فما تقول أنت؟ قال: أنا رجل كوفي.

قال الخطابي–رحمه الله–(ت: ٣٨٨ هـ): "قلت: وقد ثبت عن سفيان أنه قال في آخر قوليه: "أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم"[١]، وكما رجع سفيان الثوري رجع غيره من أهل الكوفة. كما قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "إن سفيان الثوري وطائفة من الكوفة رجحوا علياً ثم عثمان، ثم رجع عن ذلك سفيان وغيره"[٢]

وقال ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): "ذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان، وممن قال به سفيان الثوري–رحمه الله–(ت: ١٦١ هـ)، ويقال إنه رجع عنه، وقال به ابن خزيمة–رحمه الله–(ت: ٣١١ هـ)، وطائفة قبله وبعده[٣]

هذا وقد **روى الخلال–رحمه الله–(ت: ٣١١ هـ) بسنده عن يحيى بن سعيد القطان–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)** أنه قال: "كان رأي سفيان الثوري: أبو بكر وعمر ثم يقف"[٤]

وكان التوقف مذهب يحيى بن سعيد–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)، وقال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "بلغني أن يحيى كان يقف عند ذكر عمر" قال: "وكان يأخذه من سفيان"[٥] يعني الثوري، فلا أدري متى كان التوقف من سفيان؟ والله أعلم.

وأما المذهب الثالث: وهو التوقف عن المفاضلة بينهم، فهو رواية عن مالك، ففي المدونة **قال ابن القاسم–رحمه الله–(ت: ١٩١ هـ)**: "وسألت مالكًا عن خير الناس بعد نبيهم–صلوات الله وسلامه عليه–، فقال: أبو بكر ثم قال: أو في ذلك شك؟ قال ابن القاسم: فقلت لمالك: فعلي وعثمان أيهما أفضل فقال: ما أدركت أحدا ممن أقتدي به يفضل أحدهما على صاحبه–يعني عليا وعثمان–ويرى الكف عنهما"[٦]

وروى ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ) بسنده أن مالكًا سئل: من تقدم بعد

---

(١) معالم السنن–بهامش المختصر–(٧/ ١٨).

(٢) الفتاوى ٤/ ٤٢٦؛ وانظر منهاج السنة (٢/ ٧٣، ٧٤).

(٣) فتح الباري (٧/ ١٦) وانظر الباعث الحثيث (ص: ١٥٦).

(٤) السنة (٣/ ٣٧)، وقال المحقق: "إسناده صحيح".

(٥) رواه الخلال بسنده في السنة (ص: ٣٧٢)، وقال المحقق وإسناده صحيح).

(٦) المدونة (٦/ ٤٥١).

رسول الله؟ قال أقدم أبا بكر وعمر ولم يزد على هذا.وروى أيضا قول مالك: "ليس من أمر الناس الذين مضوا عليه أن يفاضلوا بين الناس"(١)

وروى اللالكائي–رحمه الله–(ت: ٤١٨ هـ) بسنده أن مالكًا سئل عن علي وعثمان فقال: "ما أدركت أحدًا ممن يقتدى به إلا وهو يرى الكف عنهما، يريد التفضيل بينهما، فقيل له: فأبو بكر وعمر فقال: ليس في أبي بكر وعمر شك، يريد أنهما أفضل من غيرهما"(٢)

وقد ذكر ابن تيمية أن مالكًا رجع عن التوقف إلى تفضيل عثمان ثم علي فقال: "أما عثمان وعلي فكان طائفة من أهل المدينة يتوقفون فيهما وهي إحدى الروايتين عن مالك"(٣)

وقال في موضع آخر: "وبعض أهل المدينة توقف في عثمان وعلي، وهي إحدى الروايتين عن مالك، لكن الرواية الأخرى عنه تقديم عثمان على علي كما هو مذهب سائر الأئمة"(٤)

وقد اعتمد **ابن رشد–رحمه الله–(ت: ٥٩٥ هـ)** في كلام له تقديم عثمان ثم علي في مذهب مالك وقال: "وقيل: إنه الذي رجع إليه مالك بعد أن وقف في عثمان وعلي، فلم يفضل أحدهما على صاحبه على ظاهر ما وقع في كتاب الديات من المدونة" قال ابن رشد–رحمه الله–(ت: ٥٩٥ هـ): "على أنه كلام محتمل للتأويل"(٥)

وذكر السيوطي–رحمه الله–(ت: ٩١١ هـ) أنه قد حكى القاضي عياض–رحمه الله–(ت: ٥٤٤ هـ)، عن الإمام مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ)، أنه رجع عن التوقف إلى تفضيل عثمان، قال القرطبي–رحمه الله–(ت: ٦٧١ هـ): "وهو الأصح إن شاء الله"(٦)

ولعل من وافق مالكا على التوقف قبل الرجوع يكون قد رجع إلى تفضيل عثمان على علي كما رجع مالك موافقة له في الرجوع بعد موافقته في التوقف، ولقد روى الخلال بسنده **عن أيوب السختياني–رحمه الله–(ت: ١٣١ هـ)** أنه قال: "دخلت المدينة والناس متوافرون القاسم بن محمد–رحمه الله–(ت: ١٠٧ هـ) وسليمان–رحمه الله–(ت: ١٠٧ هـ) وغيرهما فما رأيت

(١) الانتقاء (٣٠، ٣٩).
(٢) شرح أصول الاعتقاد (٧/ ٣٦٨).
(٣) منهاج السنة (٢/ ٧٣).
(٤) الفتاوى (٤/ ٤٢٦).
(٥) الجامع من المقدمات (١٧٤) وانظر حاشية المحقق رقم: (٣).
(٦) تدريب الراوي (٢/ ٢٢٣)، وانظر لوامع الأنوار (٢/ ٣٥٦).

أحدًا يختلف في تقديم أبي بكر وعمر وعثمان"[١]

وتوقف في المفاضلة بين عثمان وعلي من غير أهل المدينة يحيى بن سعيد القطان–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)، من أهل البصرة وقد استغرب عبد الرحمن بن مهدي–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)، ذلك فقال ليحيى: "بمن تقتدي في هذا وأهل البصرة ليس هذا قولهم؟!"[٢]

وذكر ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ) أن يحيى القطان–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)، تبع مالكا في التوقف[٣]، ولكن قد سبق قبل قليل قول الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) أن يحيى أخذ التوقف عن سفيان الثوري–رحمه الله–(ت: ١٦١ هـ)، ويحيى قد حكى هذا القول عن سفيان فقد أخرج الخلال أن يحيى بن معين قال: "قال يحيى بن سعيد: كان رأي سفيان الثوري–رحمه الله–(ت: ١٦١ هـ): أبو بكر وعمر ثم يقف، قال يحيى بن معين–رحمه الله–(ت: ٢٣٣ هـ): "وهو رأي يحيى بن سعيد" [٤] كأنه يشير إلى أن ذلك منه موافقة سفيان فيما رواه عنه.والله أعلم.

والحاصل أن ما روي عن أئمة السلف من تقديم علي على عثمان أو التوقف فيهما قد رجعوا عنه واستقر مذهب أهل السنة على تفضيل عثمان ثم علي.

وهذا هو المذهب الحق الذي لا يجوز العدول عنه لثبوته بالأدلة الشرعية من السنة والإجماع وسبق بيانهما من حديث ابن عمر وإجماع الصحابة على تقديم عثمان بعد أبي بكر وعمر وجميع ذلك ثابت صحيح كما تقدم، ولذلك قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "كل من قدم عليًا ثم عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار"[٥] وكذلك قال حماد بن زيد–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ) [٦] وروي نحو ذلك عن جماعة من الأئمة كسفيان الثوري–رحمه الله–(ت: ١٦١ هـ)، والدارقطني–رحمه الله–(ت: ٣٨٥ هـ) وغيرهم.[٧]

(١) السنة (ص: ٤٠٣).
(٢) السنة للخلال (ص: ٣٧٢، ٣٧٣).
(٣) فتح الباري (٧/ ١٦).
(٤) السنة (ص: ٣٧٣).
(٥) السنة للخلال ص ٣٩٢.
(٦) شرح أصول الاعتقاد ٧/ ١٣٧٠.
(٧) انظر السنة للخلال ٣٧٠، و٣٩٢ والفتاوى ٤/ ٤٢٢، ٤٢٦، ٤٢٨.

حتى إن الأئمة قد تكلموا في تبديع من يقدم علياً على عثمان على قولين.[١]

وروي عن بعضـهم أنه قال: من قدم عليًا على عثمان فعليه لعنة الله، وبعضـهم قال: فهو أحمق.[٢]

(١) انظر السنة للخلال هي ٣٨٠-٨٣٢، والفتاوى ٤/ ٤٢٦.

(٢) انظر شرح أصول الاعتقاد ٧/ ١٣٧٠.




الحوض

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الأدلة الشرعية على إثبات الحوض والكوثر.

المسألة الثانية: أقوال العلماء في إثبات الحوض والكوثر.

المسألة الثالثة: هل الحوض هو الكوثر؟

المسألة الرابعة: الذين أنكروا الحوض.

المسألة الخامسة: الذين يذادون عن حوضه يوم القيامة.

المسألة السادسة: ما جاء في الأخبار أن لكل نبي حوضا

[٣]– قال المصنف–رحمه الله–: "والحوض".

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الأدلة الشرعية على إثبات الحوض والكوثر.

هذا الحوضُ الموروُد الذي أَعطاه الله لنبيه محمد ﷺ، كما قال: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ [الكوثر: ١–٣].

قال الإمامُ القرطبيُّ: "والصَّحيح: أنَّ للنبي ﷺ حَوْضَيْن:

أحدهما: في الموقف قبل الصِّراط.

والثَّاني: في الجَنَّة.

وكلاهما يُسَمَّى كوثرًا"[١]

وقد جاءت أحاديث كثيرة في وصفه؛ منها:

عن أبي عُبيدة أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ [الكوثر: الآية: ١]، فقالت: "نهرٌ أُعطيه نَبِيُّكم–صلى الله عليه وسلم–؛ شاطئاه عليه دُرٌّ مُجَوَّف، آنيته كَعَدد النُّجوم"[٢]

وعن أنس–رضي الله عنه–، أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال: ((بينما أنا أسيرُ في الجَنَّة إذ أنا بنهرٍ حافتاه قِباب الدُّرِّ المجَوَّف. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاك رَبُّك، فإذا طِينُه–أو طِيبُه–مِسك أذفر)). [٣]

ومن الأحاديث التي ورد فيها ذكر الحوض:

- عن أبي هريرة–رضي الله عنه–، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–، قال: "ما بين بيتي

---

(١) التذكرة (ص: ٣٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٨١).

ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي"[١].

- وقوله–صلى الله عليه وسلم–للأنصار: ((اصبروا حتى تلقوني على الحوض)). [٢]

المسألة الثانية: أقوال العلماء في إثبات الحوض والكوثر.

روي عن الإمام سفيان بن عيينة في اعتقاده قوله: "السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئا فقد ترك السنة: إثبات القدر وتقديم أبي بكر وعمر والحوض والشفاعة والميزان والصراط والإيمان قول وعمل والقرآن كلام الله وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم"[٣]

وقال شيخُ الإسلامِ–رحمه الله تعالى–: "خَصَّ اللهُ نَبيَّه صلى الله عليه وسلم أنَّه أعطاه الكوثر، وهو من الخير الكثير الذي آتاه اللهُ في الدُّنيا والآخرة؛ فمما أعطاه في الدُّنيا الهُدى والنَّصر والتأييد وقُرَّة العَين والنَّفس وشرح الصدر، ونَعَّم قلبَه بذكرِه وحُبِّه بحيث لا يُشبه نعيمُه نعيمَ الدُّنيا البتة، وأعطاه في الآخِرَة الوسيلةَ والمقامَ المحمودَ، وجعلَه أَوَّلَ مَن يُفتح له ولأمته باب الجنة، وأعطاه في الآخِرَة لواءَ الحمد والحوض العظيم في موقف القيامة، إلى غير ذلك"[٤]

وقد حكم جمعٌ من أهل العلم بتواتر السُّنَّة في ذلك، قال ابن أبي العِزِّ: "الأحاديث الواردة في ذِكر الحوض تَبلغُ حَدَّ التواتر؛ رَوَاها من الصَّحابة بضعٌ وثلاثون صحابياًّ، ولقد استقصى طرقَها شيخُنا عمادُ الدِّين ابنُ كثير–تَغَمَّدَه اللهُ برحمتِهِ في آخر تاريخه الكبير"[٥]

المسألة الثالثة: هل الحوض هو الكوثر؟

قيل في ذلك أن المراد بالكوثر هو الحوض، وقيل المراد بالكوثر هو الخير الكثير،

---

(١) أخرجه البخاري في صــحيحه، كتاب فضــائل المدينة، باب ١٢. انظر: فتح الباري (٤/ ٩٩) ح ١٨٨٨، وأخرجه مســلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة (٤/ ١٢٣).

(٢) انظر صحيح البخاري كتاب الجزية، بــاب مَا أَقْطَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ البَحْرَيْنِ، وَمَا وَعَدَ مِنْ مَالِ البَحْرَيْنِ وَالجِزْيَةِ، وَلِمَنْ يُقْسَمُ الفَيْءُ وَالجِزْيَةُ، برقم (٣١٦٣)، ومسلم كتاب الزكاة، بَابُ إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَصَبُّرِ مَنْ قَوِيَ إِيمَانُهُ برقم (١٠٥٩)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (١٣٣٤٧).

(٣) رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٦)

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٢٧–٥٢٨)، بتصرف يسير.

(٥) شرح الطحاوية (ص: ٢٢٧).

تفسير الكوثر بالحوض والخير الكثير أو النهر الذي فيه الجنة لا تنافي بينها فقد جاءت كلها مبينة مفصلة عن النبي–صلى الله عليه وسلم–في حديث أنس بن مالك–رضي الله عنه–، قال: "قال: بينا رسول اللَّه–صلى اللَّه عليه وسلم–بين أظهرنا في المسجد إذ أغْفَى إغفاءةً ثم رفع رأسه متبسمًا قلنا ما أضحكك يا رسول اللَّه؟ قال: ((لقد أنزلت علي آنفًا سورة فقرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾. [الكوثر: الآيات: ١–٣]))، ثم قال: ((أتدرون ما الكوثر؟)). قلنا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: ((فإنه نهر وعدنيه ربي–عز وجل–عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم في السماء فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي فيقول إنك لا تدري ما أحدث بعدك)). [١]

وقد ورد تفسير الكوثر: بالخير الكثير عن ابن عباس–رضي اللَّه عنهما–، وقيل لسعيد بن جبير رحمه اللَّه –الراوي عن ابن عباس–إن ناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة فقال سعيد النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه اللَّه إياه.

وقال ابن كثير–رحمه اللَّه–: "وتفسيره بالخير الكثير يعم النهر وغيره لأن الكوثر من الكثرة وهو الخير الكثير ومن ذلك النهر ثم قال: وقد صح عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أنه فسره بالنهر أيضًا"[٢]

... والراجح –والله أعلم– هو التفريق بينهما، فإن الكوثر:

هو نهر في الجنة، أعطاه الله–تعالى–للنبي–صلى الله عليه وسلم–، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ [الكوثر: الآية: ١].

وعن أنس–رضي الله عنه–، قال: لما عرج بالنبي–صلى الله عليه وسلم –إلى السماء، قال: ((أتيت على نهر، حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفا، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر)). [٣]

وعن عبد الله بن عمر–رضي الله عنهما–، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من

---

(١) رواه مسلم (٤٠٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير رحمه اللَّه (٩/ ٣١٢–٣١٥) في تفسير سورة الكوثر.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٦٤).

المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج)). (١)

وأما الحوض: فإنه في العرصات خارج الجنة، يرده المسلمون قبل دخولهم الجنة، ويستمد الحوض مائه من نهرين من داخل الجنة، كما ورد عن أبي ذر-رضى الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال عن الحوض، ((يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل)). (٢)

فإن قيل: قد روى أنس-رضى الله عنه-، أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ [الكوثر: الآيات: ١-٣] ثم قال: ((أتدرون ما الكوثر؟)). فقلنا: "الله ورسوله أعلم"، قال: ((فإنه نهر وعدنيه ربي-عز وجل-، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم)). (٣)

فظاهر ذلك أن الكوثر هو نفسه حوض النبي-صلى الله عليه وسلم-.

فجوابه من وجهين:

١ - الأول: الكوثر نهر داخل الجنة، ويأتي وماؤه يصب في الحوض ويطلق على الحوض كوثر لكونه يمد منه. (٤)

٢ - الثاني: أن حديث أنس-رضى الله عنه-، هذا قد ورد فيه تفسير الحوض بالكوثر على المعنى اللغوي الذي هو الخير الكثير، وليس المعنى الاصطلاحي الذي هو الكوثر الذي هو نهر في الجنة، وهو المراد في حديث ابن عمر -رضى الله عنهما- السابق. (٥)

المسألة الرابعة: الذين أنكروا الحوض والكوثر.

الذين أنكروا الحوض: هم طائفة قليلة من أهل البدع والضلال، وبعض فرق الخوارج، وبعض المعتزلة وتأولوه وَقَالُوا: لا يثبت للنبي-صلى الله عليه وسلم-حوض، وإنما هذا كناية عن

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦١) وقال: "حسن صحيح".
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٠٠) .
(٣) أخرجه مسلم (٤٠٠).
(٤) انظر فتح الباري (١١/ ٦٥٠)، وخصائص المصطفى بين الغلو والجفاء (ص: ٥٢).
(٥) المصدر: كتاب الأربعون العقدية (٢/ ٢٠٠٣-٢٠٠٥).

الكرم والعطاء.

ونقل إنكار الحوض في أواخر عصر الصحابة، وكان عبيد الله بن زياد الأمير الأموي المعروف ينكر وجود الحوض ويرده، فكان الصحابة-رضي الله عنهم وأرضاهم-، يخبرونه بما سمعوا من النبي-صلى الله عليه وسلم-أن لنبي الله عليه السلام حوضًا، حتى إنه سأل أبا برزة الأسلمي-رضي الله عنه-: هل سمعت النبي-صلى الله عليه وسلم-يذكر الحوض؟ فقال أبو برزة-رضي الله عنه وأرضاه-: ما سمعته مرة، ولا مرتين، ولا ثلاثًا، ولا أربعًا، ولا خمسًا، بل سمعته أكثر من ذلك، لا سقى الله من كذب به. يريد أن يخوف عبيد الله بن زياد. (١)

وروى حميد عن أنس قال: "دخلنا على عبيد الله بن زياد وهم يتذاكرون الحوض فقلت: ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون في الحوض، لقد تركت خلفي عجائز ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض محمد"(٢)

ثم أخبره ابن عمر وبعض الصحابة في هذا، وورد أنه قال: أشهد أن الحوض حق.

قال ابن كثير ردًا على من ينكر الحوض، قال رحمه الله: "ذكر ما ورد في الحوض النبوي المحمدي - سقانا الله منه يوم القيامة - من الأحاديث المتواترة المتعددة من الطرق الكثيرة المتضافرة؛ و إن رغمت أنوف كثيرة من المبتدعة المعاندة المكابرة، القائلين بجحوده، المنكرين لوجوده، وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين وروده، كما قال بعض السلف: "من كذب بكرامة لم ينلها"(٣)

المسألة الخامسة: الذين يذادون عن حوضه يوم القيامة.

قال العلماء-رضي اللّه عنهم-: "إن ممن يذاد عن حوض النبي-صلى اللّه عليه وسلم- جنس المفترين على اللّه وعلى رسوله-صلى اللّه عليه وسلم-الكذب، المحدثين في الدين ما ليس منه من الخوارج والروافض والجهمية وسائر أصحاب الأهواء المخلة، والبدع المضلة، وكذا

(١) أخرجه أبو دارد رقم (٤٧٤٩) في السنة باب في الحوض.

(٢) الكشف والبيان للثعالبي (سورة الكوثر: الآية: ١).

(٣) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير (ص: ٣١٣).

المسرفون من الظلمة المفرطون في الظلم والجور وطمس الحق، وكذا المتهتكون (١) في ارتكاب المناهي، والمعلنون في اقتراف المعاصي. . . "(٢)

ففي صحيح مسلم من حديث أنس-رضي اللَّه عنه-: ((هل تدرون ما الكوثر؟ هو نهر أعطانيه ربي في الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب يختلج (٣) العبد منهم فأقول يا رب إنه من أمتي (فيقول) إنك لا تدري ما أحدث بعدك)) (٤)

وفي صحيح مسلم أيضًا من حديث حذيفة بن اليمان رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه -صلى اللَّه عليه وسلم- قال:((ليردن على الحوض أقوام فيختلجون دوني فأقول ربي أصحابي رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك))(٥)

وأخرج الإمام أحمد والطبراني والبزار عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما سمعت رسول اللَّه -صلى اللَّه عليه وسلم-يقول: "أنا فرطكم على الحوض فمن ورد أفلح ويجاء بأقوام فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب يا رب فيقال ما زالوا بعدك مرتدين على أعقابهم"(٦)

وأخرج الحكيم (٧) في نوادر الأصول عن عثمان بن مظعون رضي اللَّه عنه عن النبي -صلى اللَّه عليه وسلم- أنه قال: "يا عثمان لا ترغب عن سنتي فمن رغب عن سنتي ثم مات قبل أن يتوب ضربت الملائكة وجهه عن حوضي يوم القيامة"(٨)

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة-رضي اللَّه عنه-، أن رسول اللَّه -صلى اللَّه عليه وسلم- قال: ((يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي -أو قال من أمتي- فَيُحَلأون عن

---

(١) المتهتكون: قال في القاموس: "ورجل منهتك، ومتهتك، ومستهتك: لا يبالي أن يهتك ستره. . . " والمعنى أنهم لا يبالون بالفضيحة (القاموس: هتك).

(٢) لوامع الأنوار (٢/ ١٩٧)، والتذكرة للقرطبي (ص: ٣٦٧).

(٣) يختلج: أي يجتذب ويقتطع. النهاية (٢/ ٥٩).

(٤) رواه مسلم رقم (٤٠٠) في الصلاة باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة.

(٥) مسلم في الفضائل باب إثبات حوض نبينا -صلى اللَّه عليه وسلم- وصفاته (٤/ ١٧٩٧).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٥٧)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٣، ١٢/ ٧١)، وفي الأوسط (٣/ ٤١٦-٤١٧)، والبزار كما في كشف الأستار (٢/ ٢١٠) رقم (١٥٣٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٤)، وفي إسناده عندهم ليث بن أبي سليم وهو مدلس، وبقية رجالهم ثقات.

(٧) نوادر الأصول للحكيم الترمذي (٢/ ١٤٨).

(٨) ذكره القرطبي في التذكرة، وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث عثمان بن مظعون عن النبي-صلى اللَّه عليه وسلم- أنه قال في آخره: "يا عثمان لا ترغب عن سنتي. . . " الحديث. قال: "وقد ذكرناه بكماله في آخر كتاب: قمع الحرص بالزهد والقناعة" انتهى. التذكرة (ص: ٣٦٨)، ولوامع الأنوار (٢/ ١٩٩).

الحوض فأقول يا رب أصحابي (فيقول إنه) لا علم لك ما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى)). [١]

وفي رواية: "فيجلون".

قال في جامع الأصول: "اختلجوا": استلبوا وأخذوا بسرعة."

وقوله: فيحلأون: يعني مبنيًا للمفعول: أي يدفعون عن الماء ويطردون عن وروده، إذا كان بالحاء المهملة ومن رواه بالجيم فهو من الجلاء وهو النفي عن الوطن وهو راجع إلى الطرد"[٢]

وفي رواية عند البخاري أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم. قلت: إلى أين؟ قال: إلى النار والله. قلت: ما شأنهم؟. قال: إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقهرى. ثم إذا زمرة أخرى حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم: هلم. قلت: إلى أين؟ قال: إلى النار والله. قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل [٣] النعم)). [٤]

وفي الصحيحين من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق–رضي الله عنهما–، قالت، قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((إني على الحوض انتظر من يرد عليّ منكم وسيؤخذ أُناس دوني فأقول يارب مني ومن أمتي فيقال هل شعرت ما عملوا بعدك والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم)). [٥]

ورواه الشيخان–أيضًا–من حديث أبي سعيد الخدري–رضي الله عنه–، وزاد: ((فأقول سحقًا سحقًا لمن بدل بعدي)). [٦]

قال القرطبي–رحمه الله–: "قال علماؤنا: كل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به فهو من المطرودين عن الحوض وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين

(١) رواه البخاري (١١/ ٤٨٣) في الرقاق باب في الحوض، ومسلم رقم (٢٤٧) في الطهارة باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء.

(٢) جامع الأصول (١٠/ ٤٧١).

(٣) همل النعم: النعم الهمل: الإبل الضالة والمعنى أن الناجي منها قليل كهمل النعم. جامع الأصول (١٠/ ٤٧١).

(٤) رواه البخاري (٦٥٨٧).

(٥) رواه البخاري (٦٥٩٣)، ومسلم رقم (٢٢٩٣).

(٦) رواه البخاري رقم (٦٥٨٤) ومسلم رقم (٢٢٩٠).

كالخوارج والروافض والمعتزلة على اختلاف فرقهم فهؤلاء كلهم مبدلون، ثم الطرد قد يكون في حال ويقربون بمد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد قال: وقد يقال إن أهل الكبائر يردون ويشربون وإذا دخلوا النار بعد ذلك لم يعذبوا بالعطش"انتهى.(١)

فأهل البدع مطرودون عن حوض النبي–صلى الله عليه وسلم–، ومردودون عن الشرب منه والله أعلم.(٢)

المسألة السادسة: ما جاء في الأخبار أن لكل نبي حوضًا.

فأخرج الترمذي من حديث سمرة بن جندب–رضي الله عنه–، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((إن لكل نبي حوضًا ترده أمته وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة (٣) وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة)).(٤)

وورد في بعض الأخبار "أن لكل نبي حوضًا إلا صالحًا عليه السلام فإن حوضه ضرع ناقته"(٥)

(١) التذكرة للقرطبي (ص: ٣٦٧) باختصار، ولوامع الأنوار (٢/ ٢٠٠).
(٢) لوائح الأنوار السنية للسفاريني (٢/ ١٧٤–١٧٨).
(٣) واردة: الجماعة ترد الماء. جامع الأصول (١٠/ ٤٦٧).
(٤) أخرجه الترمذي في جامعه رقم (٢٤٤٣) كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في صفة الحوض. وقال الترمذي: "هذا حديث غريب وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي –صلى الله عليه وسلم– مرسلًا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح"..
(٥) نسبه القرطبي في التذكرة: (٣٦٨) إلى البكرى المعروف بابن الواسطي. ومثل هذا الخبر لايثبت إلا بدليل صحيح عن النبي –صلى الله عليه وسلم–. والله أعلم، وانظر: لوائح الأنوار السنية للسفاريني (٢/ ١٧٨)

الشفاعة

وفيها مسائل:

المسألة الأولى: شفاعة النبي –صلى الله عليه وسلم–:

المسألة الثانية: شفاعة الأنبياء –عليهم السلام–.

المسألة الثالثة: شفاعة الصديقين والشهداء والصالحين.

المسألة الرابعة: تفضل الله بعد ذلك على كثير فيمن يشاء ممن لم يشفع فيهم.

[٤]- قال المصنف-رحمه الله-: "والشَّفاعة".

الشرح

المسألة الأولى: شفاعة النبي-صلى الله عليه وسلم-:

من عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم، وقد جاء في إثبات الشفاعة أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بلغت حد التواتر، وصرحت هذه الأحاديث بأنه يدخل النار جملة من أهل الكبائر، من أهل التوحيد، مؤمنون موحدون، لكن دخلوا النار بذنوب ومعاص ارتكبوها ولم يتوبوا منها،

أنواع شفاعات النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.

لقد اختلف أهل العلم في عدد شفاعات النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة[١]، فبعضهم أوصلها إلى عشر شفاعات وهو الراجح إن شاء الله لما تدل عليه الأحاديث الصحيحة وتقوم عليه الأدلة وهي كما يلي:

الأولى: الشفاعة العظمى: وهي في فصل الموقف بعد دلالة الرسل عليه واعتذارهم عنها[٢]

الثانية: الشفاعة لمن يصبر على لأواء المدينة. [٣].

الثالثة: الشفاعة لمن يموت بالمدينة[٤].

الرابعة: الشفاعة في دخول الجنة بغير حساب ولا عقاب،[٥]

الخامسة: الشفاعة فيمن قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه[٦].

---

(١)غاية البيان شرح زبد ابن رسلان لمحمد الرملي الأنصاري (١٣).

(٢)أخرجه البخاري رقم: (٣١٦٢)، ورقم: (٤٤٣٥)، ومسلم رقم: (١٩٤)، واللفظ له.

(٣)أخرجه مسلم رقم: (١٣٧٧)، ومالك في الموطأ رقم: (١٥٦٩)، وأحمد رقم: (٦٠٠١).

(٤)أخرجه الترمذي رقم: (٣٩١٧) وحسنه، وابن ماجه رقم: (٣١١٢) ولفظه "فإني أشهد لمن مات بها"، وأحمد رقم: (٥٨١٨)، وابن أبي شيبة رقم: (٣٢٤٢١)، وابن حبان رقم: (٣٧٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم: (٤١٨٥-٤١٨٦)، والهيثمي في موارد الظمآن رقم: (١٠٣١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٦٠١٥)، وفي صحيح الترمذي رقم: (٣٩١٧)، وفي صحيح الترغيب رقم: (١١٩٣ – ١١٩٧)، وفي السلسلة الصحيحة رقم: (٢٩٢).

(٥) أخرجه البخاري رقم: (٦١٠٧)، ورقم: (٥٣٧٨)، ورقم: (٥٤٢٠)، ورقم: (٦١٧٥)، ومسلم رقم: (٢٢٠).

(٦) أخرجه البخاري رقم: (٩٩)، ورقم: (٦٢٠١)، وأحمد رقم: (٨٨٤٥).

السادسة: الشفاعة في أهل الكبائر من الأمة(١).

السابعة: الشفاعة في رفع الدرجات(٢).

الثامنة: الشفاعة في الخروج من النار(٣)

التاسعة: الشفاعة التي يجتمع فيها الله والنبيون والملائكة والمؤمنون(٤).

العاشرة: الشفاعة في عمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه(٥).

المسألة الثانية: شفاعة الأنبياء-عليهم السلام-.

وما من نبي إلا له شفاعة كما في صحيح مسلم عن أبي سعيد-رضي الله عنه-، قال: ((فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين)). (٦)

وفي المسند من حديث أبي سعيد مرفوعًا: "ثم يشفع الأنبياء في كل من كان يشهد أن لا إله إلا الله مخلصًا، فيخرجونهم منها، قال: ثم يتحنن الله برحمته على من فيها فما يترك فيها عبدًا في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا أخرجه منها)). (٧)

المسألة الثالثة: شفاعة الصديقين والشهداء والصالحين.

كذلك الصديقون يشفعون، الصديق: على وزن فِعّيل، وهو من قوي تصديقه وإيمانه بالله، فأحرق بقوة تصديقه الشبهات والشهوات، وفي مقدمتهم الصديق الأكبر أبو بكر-رضي الله عنه-.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم: (٤٧٣٩)، والترمذي رقم: (٢٤٣٥-٢٤٣٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم: (٤٧٣٩)، وفي صحيح سنن الترمذي رقم: (٢٤٣٥-٢٤٣٦)، وفي صحيح الجامع رقم: (٣٧١٤)، وفي صحيح الترغيب والترهيب رقم: (٣٦٤٩)، وفي ظلال الجنة رقم: (٨٣١).

(٢) أخرجه مسلم رقم: (٩٢٠)، وأبو داود رقم: (٣١١٨)، والنسائي في السنن الكبرى رقم: (٨٢٨).

(٣) أخرجه البخاري رقم: (٦١٩٠)، ومسلم رقم: (١٩١-١٩٢).

(٤) أخرجه البخاري رقم: (٧٠٠١)، ومسلم رقم: (١٨٣)،

(٥) أخرجه البخاري (٣٦٧٠)، ورقم (٥٨٥٥)، ومسلم رقم (٢٠٩).

(٦) أخرجه مسلم (١٨٣).

(٧) رواه أحمد في مسنده: (١١٠٩٦) قال الشيخ مقبل: "الحديث بهذا السند حسن" انظر الشفاعة للوادعي: (١/ ١١٩).

ودرجة الصديق أعلى من الشهداء، كما في حديث: ((أثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان))(١)، فالترتيب مقصود.

ثم درجة الشهداء:

الشهيد: هو الذي بذل نفسه رخيصة في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، فإنه بذل أغلى ما يملك وهي نفسه التي بين جنبيه، فقاتل أعداء الله، لإعلاء كلمة الله.

ثم درجة الصالحين:

الصالحون: على تفاوتهم فيما بينهم،

١-منهم السابقون، وهي أعلى الدرجات، وهم الذين داوموا على الفرائض والنوافل، وتركوا المحرمات والمكروهات،

٢-ومنهم المقتصدون، وهم الذين اقتصروا على أداء الفرائض وترك المحرمات، ولم يفعلوا النوافل وقد يفعلون بعض المكروهات.

٣-ومنهم الظالمون لأنفسهم، والظالمون لأنفسهم موحدون مؤمنون، لكنهم قصروا في بعض الواجبات، أو فعلوا بعض المحرمات، فهؤلاء عندهم أصل الصلاح وأصل التقوى، فينفعهم هذا الصلاح والتقوى في عدم الخلود في النار، ولكنهم قد يدخلون النار ويعذبون، لكن في النهاية مآلهم إلى الجنة والسلامة.

المسألة الرابعة: تفضل الله بعد ذلك على كثير فيمن يشاء ممن لم يشفع فيهم.

أي أن الله تعالى يتفضل بعد ذلك على من يشاء، فيخرج برحمته بقية أهل التوحيد الذين لم يشفع فيهم، كما جاء ذلك صريحا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ-أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ-فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ(٢) ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٥).

(٢) قال محمد فؤاد عبد الباقي: "منصوب على الحال وهو جمع ضبارة بفتح الضاد وكسرها أشهرها الكسر ويقال فيها أيضا إضبارة قال أهل اللغة الضبائر جماعات في تفرقة (فبثوا) معناه فرقوا"انظر مسلم في صحيحه (١/ ١٧٢)

الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ)). (١)

والله-عز وجل-قد خَصَّ هذه الأمة بفضائل كثيرة، ومنها مُضاعفة الأجر؛ فعن ابن عمر-رضي الله عنهما-، عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، قال: ((إنَّما أجلُكم في أجلِ مَن خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنَّما مَثَلُكم ومَثَل اليهود والنصارى، كرجل استعمل عُمَّالًا، فقال: مَن يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط، فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال: مَن يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، فعملت النَّصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال: مَن يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا، فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس، على قيراطين قيراطين، ألا لكم الأجر مرتين، فغَضِبَت اليهودُ والنصارى، فقالوا: نحن أكثر عملًا وأقل عطاء! قال الله: هل ظلمتُكم مِن حَقِّكم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: فإنَّه فَضلي أُعطيه مَن شِئْتُ)). (٢)

فَمن نعمة الله علينا أن جعلنا من أمة محمد-صلى الله عليه وسلم-، فعن أبي هريرة-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، قال: ((نَحن الآخِرون السَّابقون يوم القيامة، بَيْدَ كلِّ أُمَّةٍ أُوتوا الكتاب مِن قبلنا، وأُوتينا مِن بعدهم، فهذا اليوم(٣) الذي اختلفوا فيه، فغدًا لليهود، وبعدَ غدٍ للنَّصارى)). (٤)

وأمة محمد-صلى الله عليه وسلم-هم أكثر أهل الجنة، فعن بريدة-رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((أهلُ الجنة عشرون ومائة صف؛ ثمانون منها مِن هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم)). (٥)

وذلك لأن النبي-صلى الله عليه وسلم-أكثر الأنبياء أتباعًا؛ فعن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: ((خرج علينا النبي-صلى الله عليه وسلم-يومًا فقال: ((عُرِضت عليَّ الأمم، فجعل يمرُّ النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٧٢)

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٩).

(٣) أي: يوم الجمعة.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٨٦) ومسلم (٨٥٥).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٥٤٦)، وابن ماجه (٤٢٨٩)، والدارمي (٢٨٧٧)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٦٢).

ورأيت سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فرجوت أن تكون أُمَّتي، فقيل: هذا موسى وقومه، ثم قيل لي: انظر، فرأيت سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فقيل: هؤلاء أُمَّتك، ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب)). (١)

وهذا الفضـل الذي أعطاه الله لنبيه الكريم-صـلى الله عليه وسـلم-في الدنيا والآخرة-هو خير عظيم وعميم على هذه الأمة المرحومة؛ فصـــارت مَهْدِيَّة في الدنيا، مَرحومة وأكثر أهل الجنة في الآخرة، وذلك فضل الله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء.

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢) ومسلم (٢٢٠).



الميزان

وفيها مسائل:

المسألة الأولى: معنى الميزان في اللغة.

المسألة الثانية: الأدلة على ثبوت الميزان

المسألة الثالثة: معنى الميزان في الشرع.

المسألة الرابعة: صفات الميزان.

المســـألة الخامســـة: خلاف العلماء في الميزان هل هو واحد أم متعدد؟

المسألة السادسة: الأقوال في الموزون.

المسألة السابعة: كيف وزن الأعمال.



[٥]–قال المصنف–رحمه الله–: "والميزان".

الشرح

في هذا النص مسائل:

المسألة الأولى: معنى الميزان في اللغة: (١)

- **أصل الكلمة:**

أصله من مِوْزان؛ انقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها، وجمعه موازين.

قال الجوهري–رحمه الله تعالى–: "... وأصله مِوْزانٌ، انقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها... ووزنتُ الشيء وزنًا وزِنَة، ويقال: وَزَنْتُ فلانًا ووَزَنْتُ لفلان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: ٣]، وهذا يزن درهمًا"(٢)

- **وزنها وتصاريفها:** الميزان مأخوذ من (وَزَنَ)، (يَزِن)، (وزنًا)، و(زِنَةً)، وأصله (مِوزَان) انقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها فصار (ميزان)، ويتعدَّى باللام وبدونها.

قال ابن فارس–رحمه الله تعالى–: "الْوَاوُ وَالزَّاءُ وَالنُّونُ: بِنَاءٌ يَدُلُّ عَلَى تَعْدِيلٍ وَاسْتِقَامَةٍ: وَوَزَنْتُ الشَّيْءَ وَزْنًا، وَالزِّنَةُ قَدْرُ وَزْنِ الشَّيْءِ، وَالْأَصْلُ وَزْنَةٌ... وَهَذَا يُوَازِنُ ذَلِكَ، أَيْ: هُوَ مُحَاذِيهِ، وَوَزِينُ الرَّأْيِ: مُعْتَدِلُهُ، وَهُوَ رَاجِحُ الْوَزْنِ: إِذَا نَسَبُوهُ إِلَى رَجَاحَةِ الرَّأْيِ وَشِدَّةِ الْعَقْلِ"(٣)

- **معانيها:**

قال الليث: (الوزن ثقل شيء بشيء مثله)(٤).

والميزان: اسم للآلة التي يوزن بها الأشياء، أو هو ما تُقَدَّرُ به الأشياء خفةً وثقلًا.

وقد أطلقت لفظة الوزن والميزان على عدة معان:

المعنى الأول: فهو يطلق ويراد به بيان قدر الشيء وقيمته، أو خسة الشيء وسقوطه، كما قال تعالى: فلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا [الكهف: الآية: ١٠٥].

---

(١) المصدر: الحياة الآخرة للدكتور غالب العواجي (٢/ ١٠٨٣).

(٢) "الصحاح للجوهري، مادة: (وزن)، (٦/ ٢٢١٣).

(٣) "معجم مقاييس اللغة"؛ لأحمد بن فارس مادة: (و–ز–ن)، (٦/ ١٠٧).

(٤) لسان العرب (١٥/ ٢٠٦).

قال ابن الأعرابي: العرب تقول: "ما لفلان عندنا وزن أي قدر؛ لخسته، ويقال: وزن الشيء إذا قدره، وزن ثمر النخيل إذا خرصه"(١)

المعنى الثاني: أن الميزان يأتي في باب اللغة مرادًا به الميزان ذي الكفات.

المعنى الثالث: ويأتي مرادًا به العدل أيضًا.

المعنى الرابع: كما يأتي ويراد به الكتاب الذي فيه أعمال الخلق.

ثم قال: وهذا كله في باب اللغة والاحتجاج سائغ(٢).

وقال الراغب: الوزن معرفة قدر الشيء... والمتعارف في الوزن عند العامة ما يقدر بالقسط والقبان.(٣)

ثم ذكر بعض الآيات التي تدل على أنه يأتي مراداً به المعادلة في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال، مثل قوله تعالى: ﴿**وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ**﴾ [الشعراء: الآية: ١٨٢]، ﴿**وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ**﴾ [الرحمن: الآية: ٩].

وأنه يأتي بمعنى العدل في محاسبة الناس، كما قال تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [الأنبياء: الآية: ٤٧].

- **استعمالاتها:**

أما الميزان؛ فهو: "الآلة التي يوزن بها الأشياء" ويجمع على: موازين.

"وجائز أن يقال للميزان الواحد–بأوزانه وجميع آلته–الموازين، قال الله–عز وجل–: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [الأنبياء: الآية: ٤٧] يريد نضع الميزان ذا القسط. وسيأتي تفصيل هذا.

وجاء إطلاق الموازين على الأعمال:

كما قال تعالى: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الأعراف: الآية: ٨]

قال الأزهري: "أراد والله أعلم–: فمن ثقلت أعماله التي هي حسناته"

(١) "تهذيب اللغة"؛ للأزهري، مادة: (و–ز–ن)، (١٣/ ١٧٥).
(٢)"تهذيب اللغة"؛ للأزهري، مادة: (و ز ن)، (١٣/ ١٧٥).
(٣) المفردات في غريب القرآن"؛ للراغب الأصفهاني، (ص: ٨٦٨).

وذكر الراغب: "أن مجيء الميزان على صيغة الجمع تارة، ومجيئه تارة أخرى بالإفراد فإنما هو باعتبار المحاسب والمحاسبين، فمجيئه بلفظ الواحد اعتباراً بالمحاسب، ومجيئه بالجمع اعتباراً بالمحاسبين"(١)

المسألة الثانية: الأدلة على ثبوت الميزان.

أولاً: الأدلة من القرآن:

ومن أدلة الكتاب العزيز:

- وقوله: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾**[الأعراف: الآيتان: ٨-٩]**.
- **وقال-جل وعلا-: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾** [الأنبياء: الآية: ٤٧].
- وقال عز وجل: **﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾** [القارعة: الآيات: ٦-٩]، وغير ذلك.

ثانياً: الأدلة من السنة:

- عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، أنَّ رسولَ الله-صلى الله عليه وسلم-قال: ((كَلِمَتان خَفِيفتان على اللِّسان، ثَقِيلتان في الميزان، حَبِيبتان إلى الرَّحمن: سُبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)). (٢)
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إنَّه لَيُؤتى بالرَّجل العَظيم السَّمين يوم القيامة لا يَزن عند الله جناح بَعُوضة، وقال: اقْرءوا إن شئتم: **﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾** [الكهف: الآية: ١٠٥])). (٣)
- وعن عبد الله بن عُمر-رضي الله عنهما-، أنَّ رسولَ الله-صلى الله عليه وسلم-قال: ((إنَّ الله سَيُخَلِّصُ رجلًا من أُمَّتي على رُءوس الخَلائق يوم القيامة، فَيَنْشُر عليه تِسعة وتِسعين سِجلًّا، كُلُّ سِجلٍّ مَدَّ البَصر، ثُمَّ يقول له: أَتُنْكِر مِن هذا شيئًا؟ أَظَلَمَتك كَتَبَتي الحَافظون؟

(١) الحياة الآخرة للدكتور غالب العواجي (٢/ ١٠٨٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤)
(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

قال: لا يا رب. فيقول: أَلَكَ عُذْرٌ أو حَسَنة؟ فيهيب الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إنَّ لك عندنا حسنة واحدة، لا ظُلم عليك؛ فَتُخرج له بطاقةٌ فيها أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدًا رسولُ الله. فيقول: أَحْضِروه. فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السِّجلات؟ فيُقال: إنَّك لا تُظلم. قال: فَتُوضع السِّجلات في كِفَّة والبطاقة في كِفَّة، قال: فَطاشت السِّجلات، وثَقُلت البِطاقة، ولا يَثْقُل شيءٌ بِسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ)). [١]

- وعن ابن مسعود-رضي الله عنه-: أنَّه كان يَجني سِوَاكًا من الأَرَاك، وكان دقيقَ السَّاقين، فَجَعَلت الرِّيح تَكفؤه، فَضَحِك القومُ مِنه، فقال رسولُ الله-صلى الله عليه وسلم-: ((مِمَّ تَضْحَكُون؟)). قالوا: يا نَبِيَّ الله مِن دِقَّة سَاقيه. فقال: ((والَّذي نَفْسِي بيدِه لَهُما أثقلُ في الميزان مِن أُحُدٍ)). [٢]

- وعن أبي مالكٍ الأشعريِّ-رضي الله عنه-، قال: قال رسولُ الله-صلى الله عليه وسلم: ((الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ، والحمدُ للهِ تَمْلَأُ الميزانَ)). [٣]

ثالثاً: دليل الإجماع:

فقد أجمع السلف على ثبوت ذلك.

قال ابن حجر: قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأنكرت المعتزلة الميزان، وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة؛ لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال؛ ليرى العباد أعمالهم ممثلةً ليكونوا على أنفسهم شهداء.

قال القرطبي: "قد بلغت أحاديثه-أي: الميزان-مبلغ التواتر، وانعقد إجماع أهل الحق من المسلمين عليه"[٤]

- وقال في موضع آخر: "أَجْمَع أكابرُ مُحَقِّقي هذه الأمة من أهل السُّنَّة بأنَّ الإيمان بثبوت الوزن والميزان حقٌّ واجبٌ وفَرْضٌ لازبٌ لِثُبوته، وعدم استحالة ذلك عقلًا"[٥]

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢١٣) (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وصححه الألباني في "الصحيحة" (١٣٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ١١٤) (٩٢٠)، وابن حبان في صحيحه (٧٠٦٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣).

(٤) لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٨٤، ١٨٥).

(٥) لوائح الأنوار السنية (٢/ ١٧٩).

● قال السفاريني رحمه الله تعالى: "فَقَدْ دَلَّتِ الْآثَارُ عَلَى أَنَّهُ مِيزَانٌ حَقِيقِيٌّ ذُو كِفَّتَيْنِ وَلِسَانٍ. ..وَقَدْ بَلَغَتْ أَحَادِيثُهُ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ، وَانْعَقَدَ إِجْمَاعُ أَهْلِ الْحَقِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْه"(١)

المسألة الثالثة: معنى الميزان في الشرع.

الميزان في الشرع: هو ما يضعُه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد.

والميزان الذي تُوزن بِهِ الأعمال هو: ميزان حسيٌّ حقيقي، له كفتان، وفي بعض الروايات: "ولسان"، والميزان عند أهل السنة ميزانٌ حقيقي توزن به أعمال العباد، وخالف في هذا القول المعتزلة وقلة قليلةٌ من أهل السنة.

أقوال علماء الأمة:

● قال السَّفارينيُّ: "قال علماؤنا كغيرهم: نُؤمن بأن الميزان الذي تُوزن به الحسنات والسيئات حقٌّ، قالوا: وله لسان وكفتان تُوزن به صحائف الأعمال؛ قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: تُوزن الحسنات في أحسن صورة، والسيئات في أقبح صورة.

● قال العلامة الشيخ مرعي في "بهجته": الصحيح: أنَّ المراد بالميزان: الميزان الحقيقي لا مجرد العدل، خلافًا لبعضهم.

● وقال القرطبي في "تذكرته": "قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها"(٢)

الذين خالفوا قول الجمهور في الميزان:

قال ابن فورك: أنكرت المعتزلة الميزان، بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها؛ إذ لا تُقَوَّم بأنفسها. قال: وروى بعض المتكلمين عن ابن عباس: "أن الله تعالى يقلب الأعراض أجسامًا، فيزنها"، وقد ذهب بعض السلف إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء، وعَزَا الطبري القول بذلك إلى مجاهد، والراجح ما ذهب إليه الجمهور، وهو أن الميزان ميزان حقيقي توزنُ بِهِ أعمالُ العباد.(٣)

---

(١) لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٨٥).
(٢) لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٨٤، ١٨٥).
(٣) انظر: التذكرة (ص: ٣٠٩).

المسألة الرابعة: صفات الميزان.

الواقع أن العلماء لم يتفقوا على إثبات أوصاف الميزان–وقد تقدمت الإشارة إلى بعض الجوانب في وجوب الإيمان بالميزان، ومواقف الناس في ذلك–وأما خلافهم في ثبوت صفاته فقد انقسموا إلى فريقين:

١–أما الفريق الأول: فهم المثبتون لصفات الميزان الحسية، من أن له كفتين... إلى آخر أوصافه، وهؤلاء وإن أثبتوا هذا لكنهم يرجعون صفة تلك الكفات واللسان إلى علم الله تعالى.

٢–أما الفريق الآخر: فهم النافون لتلك الصفات.

وسنذكر رأي الفريقين فيما يلي: –

(١) المثبتون لصفات الميزان:

يثبت هؤلاء–وهم جمهور العلماء–أن الميزان له كفتان حسيتان مشاهدتان، وله لسان كذلك.

يقررون هذه الحقيقة غير ملتفتين إلى من تشمئز قلوبهم من سماعها، لعدم قبول عقولهم لها، وعدم تفهم ما ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم في ذلك. ذلك أن الحق ضالة المؤمن، وما ورد به الشرع هو الذي ينبغي أن يقدم على هوى النفس وحكم العقل.

وسنذكر فيما يلي بعض أقوال هؤلاء كأمثلة على ثبوت ما ذكرنا.

قال القرطبي–ردًّا على من ينكر الميزان، ويؤول الوزن بأنه من ضرب المثل، وأن الوزن يراد به العدل والقضاء–قال: "وهذا مجاز. وليس بشيء، وإن كان شائعاً في اللغة – للسنة الثابتة في الميزان الحقيقي، ووصفه بكفتين ولسان، وأن كل كفة منها طباق السموات والأرض"(١)

ويعزو القرطبي إلى ابن عباس أنه قال: "توزن الحسنات والسيئات في ميزان له كفتان ولسان"(٢)

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أنه قال: "الميزان له لسان وكفتان، يوزن فيه الحسنات والسيئات، فيؤتى بالحسنات في أحسن صورة فتوضع في كفة الميزان، فتثقل على السيئات؛ فتؤخذ فتوضع في الجنة... ويؤتى بالسيئات في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان

(١) التذكرة، (ص: ٣٧٨).

(٢) التذكرة، (ص: ٣٧٨).

فتخف..."[١]

ويقول ابن قدامة: "والميزان له كفتان ولسان، توزن به الأعمال، ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**﴾ [المؤمنون: الآيتان: ١٠٢-١٠٣]"[٢]

ويقول أبو الحسن الأشعري في معرض بيانه لاختلاف الناس في الميزان ومبينًا رأي أهل السنة: فقال أهل الحق: "له لسان وكفتان، توزن في إحدى كفتيه الحسنات وفي الأخرى السيئات، فمن رجحت حسناته؛ دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته دخل النار، ومن تساوت حسناته وسيئاته، تفضل الله عليه فأدخله الجنة"[٣]

ويثبت ابن كثير أن للميزان كفتين حسيتين، ويستدل على هذا من السنة بحديث صاحب البطاقة المشهور وغيره من الأحاديث. [٤].

وأخرج الطبري عن ابن جريج قال: قال لي عمرو بن دينار: "قوله: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ**﴾ [الأعراف: الآية: ٨] قال: إنا نرى ميزاناً وكفتين، سمعت عبيد بن عمير يقول: يجعل الرجل العظيم الطويل في الميزان، ثم لا يقوم بجناح ذباب"[٥] وهو القول الذي رجحه الطبري أيضًا.

ويقول ابن أبي العز: "والذي دلت عليه السنة: أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان"[٦]

وقال أبو إسحاق الزجاج —كما نقل عنه الحافظ ابن حجر: "أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان، ويميل بالأعمال"[٧]

ويقول السفاريني: "فقد دلت الآثار على أنه ميزان حقيقي ذو كفتين ولسان، كما قال ابن عباس، والحسن البصري، وصرح بذلك علماؤنا، والأشعرية وغيرهم، وقد بلغت أحاديثه مبلغ

(١) الدر المنثور، (٣/ ٧٠)
(٢) ابن قدامة في لمعة الاعتقاد، (ص: ٣٣).
(٣) المقالات، (٢/ ١٦٤)
(٤) النهاية، (٢/ ٢٤).
(٥) جامع البيان، (٨/ ١٢٣).
(٦) الطحاوية، (ص: ٤٧٢).
(٧) نقله عنه الحافظ ابن حجر في، فتح الباري، (١٣/ ٥٣٨).

التواتر، وانعقد إجماع أهل الحق من المسلمين عليه"(١)

ويقول البرديسي: "وانعقد الإجماع على أنه ميزان حسي له كفتان ولسان يوضع فيه صحف أعمال العباد ليظهر الرابح والخاسر"(٢)

ويروى من طريق عبد الملك بن أبي سليمان أنه قال: "ذكر الميزان عند الحسن فقال: له لسان وكفتان"(٣)

وعن سليمان قال: "يوضع الميزان وله كفتان، لو وضع في إحداهما السموات والأرض ومن فيهن لوسعته"(٤)

ويقول الهراس: "وهناك تنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد، وهي موازين حقيقية كل ميزان منها له لسان وكفتان، ويقلب الله أعمال العباد-وهي أعراض-أجساماً لها ثقل، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة"(٥)

ونقتصر في إثبات أن الميزان له لسان وكفتان على ما قدمناه من ذكر أقوال العلماء.

وبهذا يتبين أن أهل الحق-أهل السنة والجماعة-يثبتون حقيقة الميزان على ضوء ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله-صلى الله عليه وسلم-، لا يتأولون معناه، ولا يردون ما جاء في وصفه، ويقولون: الله وحده هو الذي يعلم قدرهما وكيفيتهما.

إذ لو لم يكن له لسان وكفتان؛ بل هو بمعنى العدل والقضاء كما ذهب إليه بعض العلماء، لو لم يكن كذلك لما وصف في السنة النبوية بأن له لسانا وكفتين، وأنه يخف ويثقل؛ إذ العدل لا يقال فيه تلك الصفات، فصح أنه ميزان حقيقي يزن الله فيه أعمال العباد، فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار، على ما علم من مذهب السلف.

وإذ كنا نثبت صفات الميزان على ضوء ما جاء به الشرع فإنه لا ينبغي أن نتكلف فنثبت له أوصافًا تحتاج إلى إثبات من الشارع، أو نستند إلى أخبار لم تثبت، فإن الغلو في هذا مذموم.

(١) لوامع الأنوار، (٢/ ١٥٢).
(٢) تكملة شرح الصدور، (ص: ١٤).
(٣) تفسير المنار، (٨/ ٣٢٢).
(٤) فتح الباري، (١٣/ ٥٣٩).
(٥) شرح العقيدة الواسطية، (ص: ١٢٣).

وكمثال على هذا: ما يذهب إليه بعض الناس من أن كفتي الميزان من ذهب. (١)

أو القول بأن كفة الحسنات من نور، وكفة السيئات من ظلام. (٢)

أو أن كفة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجنة، وكفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار"(٣)

أو ما يقال إن صاحب الميزان يوم القيامة هو جبريل عليه السلام. (٤)

فتلك المسائل كلها تحتاج لإثباتها–فضلاً عن اعتقادها–إلى نص صحيح، فإن بعض العلماء يتساهل فيما يقرره من هذه المسائل، مثل ما يرويه السفاريني بصيغة التضعيف–يروى–"أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان، فلما رآه غشي عليه، فلما أفاق قال: إلهي من ذا الذي يقدر يملأ كفة حسناته؟ فقال: إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة"(٥)

أو ما يذكره عن عبد الله بن سلام–رضي الله عنه–غير معزو إلى أحد–أنه قال: "ميزان رب العالمين ينصب للجن والإنس، يستقبل به العرش، إحدى كفتيه على الجنة، والأخرى على جهنم، لو وضعت السموات والأرض في إحداهما لوسعتهن، وجبريل آخذ بعمود ينظر إلى لسانه"(٦)

وكذا ما يروى عن عمر مرفوعاً: ((من كبر تكبيرة في سبيل الله، كانت صخرة في ميزانه أثقل من السموات السبع وما فيهن وما تحتهن، وأعطاه الله بها رضوانه الأكبر، وجمع بينه وبين محمد وإبراهيم والمرسلين في دار الجلال: ينظر إلى الله بكرة وعشياً)). (٧)

وفي رواية أخرى عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من كبر تكبيرة على ساحل البحر، كان في ميزانه صخرة، قيل: يا رسول الله، وما قدرها؟ قال: تملأ ما بين

---

(١) الفصل لابن حزم، (٤/ ٦٥).

(٢) التذكرة، (ص: ٣١٣).

(٣) التذكرة، (ص: ٣١٤)، وعزاه إلى الترمذي الحكيم.

(٤) أخرجه الطبري في (جامع البيان) (٨/ ١٢٣) عن الحارث، قال: ثنا عبد العزيز قال: ثنا يوسف بن صهيب، عن موسى بن بلال ابن يحيى، عن حذيفة.

(٥) ذكره السفاريني في (لوامع الأنوار) (٢/ ١٨٤) وعزاه إلى الرازي والثعلبي

(٦) لوامع الأنوار، (٢/ ١٨٤) ولم يعزه إلى أحد.

(٧) قال السيوطي في اللآلئ المصنوعة: "قال ابن حبان لا أصل له، وإسحاق يأتي بالموضوعات عن الثقات، قلت–وكذا قال الدارقطني في (غرائب مالك) إنه موضوع (٢/ ١٣٧).

السموات والأرض)). [١]

ويقول السفاريني: "ظواهر الآثار وأقوال العلماء: أن كيفية الوزن في الآخرة-خفة وثقلاً- مثل كيفيته في الدنيا، ما ثقل نزل إلى أسفل ثم يرفع إلى عليين، وما خف طاش إلى أعلى ثم نزل إلى سجين، وبه صرح جموع، منهم القرطبي".

وقال بعض المتأخرين بل الصفة مختلفة، وأن عمل المؤمن إذا رجح صعد وسفلت سيئته، والكافر تسفل كفته لخلو الأخرى عن الحسنات، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر: الآية: ١٠].

وذكر بعضهم في صفة الوزن: أن تجعل جميع أعمال العباد في الميزان في مرة واحدة، كل الحسنات في كفة النور، وهي يمين العرش جهة الجنة، والسيئات في كفة الظلمة، وهي عن يسار جهة النار، ويخلق الله لكل إنسان علمًا ضروريًا يدرك به خفة أعماله وثقلها.

وقيل: بل علامة الرجحان عمود نور يقوم في كفة الحسنات حتى يكسو كفة السيئات، وعلامة الخفة عمود ظلمة يقوم من كفة السيئات حتى يكسو كفة الحسنات، لكل أحد. [٢]

والظاهر أن هذه الكيفيات كلها تحتاج إلى إثبات، فهي مسألة غيبية، والله تعالى له القدرة على ما يشاء.

٢ – النافون لصفات الميزان:

وهؤلاء قالوا بعكس ما قاله الفريق الأول، حيث أحجموا عن وصف الميزان بالأوصاف التي تقدمت، واكتفوا بإثبات أن هناك ميزانًا فقط.

١-يقول محمد رشيد رضا في نفي تلك الصفات وفي رده على الزجاج: "وإذا لم يكن في الصحيحين ولا في كتب السنة المعتمدة حديث صحيح مرفوع في صفة الميزان، ولا في أن له كفتين ولساناً، فلا تغتر بقول الزجاج أن هذا مما أجمع عليه أهل السنة، فإن كثيراً من المصنفين يتساهلون بإطلاق كلمة الإجماع ولاسيما غير الحفاظ المتقنين، والزجاج ليس منهم، ويتساهلون في عزو كل ما يوجد في كتب أهل السنة إلى جماعتهم، وإن لم يعرف له أصل من السلف، ولا

(١) قال ابن عدي: "هذا ما وضعه النخعي، وزيد ليس بشيء" (اللآلئ المصنوعة) (٢/ ١٣٧).

(٢) لوامع الأنوار (٢/ ١٨٨-١٨٩).

اتفق عليه الخلف منهم، وهذه المسألة مما اختلف فيه السلف والخلف كما علمت"[١]

وقال أيضًا: "والأصل الذي عليه سلف الأمة في الإيمان بعالم الغيب: أن كل ما ثبت من أخباره في الكتاب والسنة فهو حق لا ريب فيه، نؤمن به، ولا نحكم رأينا في صفته وكيفيته، فنؤمن إذا بأن في الأخرة وزناً للأعمال قطعاً، ونرجع أنه بميزان يليق بذلك العالم، ويوزن به الإيمان، والأخلاق، والأعمال، ولا نبحث عن صورته وكيفيته، ولا عن كفتيه – إن صح الحديث فيهما – كما صوره الشعراني في ميزانه"[٢].

والواقع أن ما قاله محمد رشيد رضا–من إنكار أن يكون هناك أي إشارة إلى أن الميزان له كفتان من السنة–غير مسلم فقد جاء في السنة بعض الأحاديث التي تدل على وزن العمل ووزن العامل وكما أخرج البخاري: ((يؤتي بالرجل فيوضع في كفة))[٣] وكقوله أيضاً: ((فطاشت السجلات وثقلت البطاقة))[٤]. وغيرها من الأحاديث التي قدمنا ذكرها، وفيها إشارة إلى إثبات أن ميزان الأعمال له كفتان.

ثم إن إثبات أن الميزان له كفتان لم يقل به الزجاج وحده، بل هو ما عليه الأئمة الذين قدمنا ذكر أقوالهم.

٢–ما علقه الدكتور طه محمد الزيني على ترجمة ابن كثير في إثبات أن للميزان كفتين حسيتين بقوله: "لا يوجد دليل قاطع في القرآن ولا في الحديث على أن كفتي ميزان الحساب يوم القيامة حسيتان – أي يدركان بإحدى الحواس الخمس، وأقرب الحواس إلى إدراك الكفتين اللمس باليد – بل كل ما في القرآن والحديث يحتمل أن يكون الوزن معنوياً، بل هو الأرجح؛ لأن الأعمال يوم القيامة أكثرها معنوي يقرب إلى الأذهان بتشبيهه بالحسيات"[٥]

وهذا القول من الدكتور طه الزيني يعتبر بعيدًا عما قرره العلماء، ومخالفًا لما جاءت به السنة

---

(١) تفسير، المنار، (٨/ ٣٢٢).

(٢) تفسير المنار، (٨/ ٣٢٣).

(٣) الحديث رواه أحمد (٢/ ٢٢١) (٧٠٦٦) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (١٠/ ٨٢) رواه الترمذي باختصـــار، رواه أحمد وفيه بن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقال أحمد شاكر في (مسند أحمد) (١٢/ ٢٤): إسناده صحيح.

(٤) الحديث رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٣٤٨٨) وأحمد (٢/ ٢١٣) (٦٩٩٤)، والحاكم (١/ ٤٦) من حديث ابن عمرو– رضي الله عنهما–، قال الترمذي: حسن غريب، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال البغوي في (شرح السنة) (٧/ ٤٩٠) حسن غريب.

(٥) النهاية، (٢/ ٩١).

في وزن الأعمال، وليس ما يذكره من أعمال يوم القيامة من الأشياء المتخيلة التي يشبه فيها المعنوي بالحسي. فإن القول بهذا يفتح بابًا خطيرًا من التشكيك في أمور الآخرة، وينبغي على من يقول بهذا أن يعيد النظر فيه **(29)**

المسألة الخامسة: خلاف العلماء في الميزان هل هو واحد أم متعدد:

وقد اختلف العلماء في وحدة الميزان وتعدُّده على مذهبين:

المذهب الأول: القائلون بتعدد الميزان:

قال الحسن البصري-رحمه الله تعالى-: "بلغني أن لكل أحد يوم القيامة ميزانًا على حدة"(١).

وقال بعضهم: الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد؛ لقوله تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ**﴾ [الأنبياء: الآية: ٤٧]، وقوله: ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ**﴾ [الأعراف: ٨].

وقالوا: وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان، ولأفعال الجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان.

المذهب الثاني: القائلون بوحدة الميزان:

فذهب هؤلاء إلى أن لكل فرد ميزانًا خاصًّا به أو لكل عمل ميزان خاص به؛ لقوله تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [الأنبياء: الآية: ٤٧].

وأجابوا عن جمع كلمة (الموازين) في الآية: إلى أن الميزان واحد، وأن الجمع في الآية إنما هو باعتبار تعدُّد الأعمال أو الأشخاص.

وقد رجَّح ابن حجر العسقلاني-رحمه الله تعالى-بعد حكايته الخلاف أن الميزان واحد، وقال: "والذي يترجح أنه ميزان واحد، ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله؛ لأن أحوال القيامة لا تكيَّف بأحوال الدنيا"(٢)

وحَسَّنَ السفاريني رحمه الله تعالى القول بوحدة الميزان بعد ذكر الإجابة عن جمع كلمة (الموازين) في الآية بقوله: "وَهُوَ حَسَنٌ"(٣) .

ومن المعاصرين الذين يرون هذا القول الشيخ العثيمين-رحمه الله تعالى-في الجواب عن سؤال

---

(١) أورده ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢/ ٣٧٦)، ونسبه إلى الحسن البصري رحمه الله تعالى.

(٢) "فتح الباري شرح صحيح البخاري"؛ لابن حجر العسقلاني، (١٣/ ٥٣٨).

(٣) لوامع الأنوار البهية للسفاريني، (٢/ ١٨٦).

عن وحدة الميزان وتعدده، فقال–بعد ذكر الخلاف بين أهل العلم–: "الذي يظهر–والله أعلم– أن الميزان واحد، لكنه متعدد باعتبار الموزون"(١)

المسألة السادسة: الأقوال في الموزون:

اختلف أهل العلم في الموزون في ذلك اليوم على أقوال:

القول الأول: أن الذي يوزن في ذلك اليوم الأعمال نفسها، وأنها تجسم فتوضع في الميزان.

أدلته: ويدل لذلك:

- حديث أبي هريرة رضي الله عنه في (الصحيح) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)). (٢)
- وقد دلت نصوص كثيرة على أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورةٍ الله أعلم بها، فمن ذلك: مجيء القرآن شافعاً لأصحابه في يوم القيامة، وأن البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف تحاجّان عن أصحابهما. ففي (صحيح مسلم) عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما))(٣). وروى مسلم أيضاً عن النواس بن سمعان قال: سمعت رسول الله–صلى الله عليه وسلم–يقول: ((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، كأنهما غمامتان، أو ظلتان بينهما شرق، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما))(٤).

القائلين به: هذا القول رجَّحه ابن حجر العسقلاني ونصره، فقال: والصحيح أن الأعمال هي التي توزن، وقد أخرج أبو داود والترمذي، وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء عن النبي–

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين. (٢/ ٤٤)، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان.
(٢) رواه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).
(٣) رواه مسلم (٨٠٤).
(٤) رواه مسلم (٨٠٥).

صلى الله عليه وسلم-قال: ((ما يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من حسن الخلق)) (١).

القول الثاني: أن الذي يوزن هو العامل نفسه.

أدلته: فقد دلَّت النصوص على أن العباد يوزنون في يوم القيامة، فيثقلون في الميزان أو يخفون بمقدار إيمانهم، لا بضخامة أجسامهم، وكثرة ما عليهم من لحم ودهن، ففي (صحيح البخاري) عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا: ﴿**فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْ**﴾[الكهف: ١٠٥].(٢) ويؤتى بالرجل النحيف الضعيف دقيق الساقين فإذا به يزن الجبال، روى أحمد في (مسنده)، عن زر بن حبيش عن ابن مسعود، ((أنه كان رقيق الساقين، فجعلت الريح تلقيه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مم تضحكون؟ قالوا: يا نبي الله من رقة ساقيه. قال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد)). (٣)

القول الثالث: أن الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال.

أدلته: فقد روى الترمذي في (سننه) عن عبد الله بن عمرو بن العاص-رضي الله عنهما-، أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قال: ((إن الله سيخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سجلًا، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاَ؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: ألك عذر؟ فيقول: لا يا رب. فيقول الله تعالى: بلى، إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: فإنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء)). (٤)

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣)، وابن حبان (٢/ ٢٣٠) والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقال الألباني في (صحيح سنن أبي داود): صحيح.

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٣) رواه أحمد (١/ ٤٢٠) (٣٩٩١)، وقال أحمد شاكر في مسند أحمد (٦/ ٣٩): إسناده صحيح، وقال الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٢٧٥٠): إسناده حسن وهو صحيح بطرقه الكثيرة.

(٤) رواه الترمذي (٢٦٣٩)، والحديث رواه ابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٢/ ٢١٣) والحاكم (١/ ٤٦) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في (الصحيحين) وهو صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٥): وهو كما قالا.

القائلين به: وقد مال القرطبي إلى هذا القول، فقال: والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف، قال ابن عمر: توزن صحائف الأعمال، وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام، فيجعل الله تعالى: رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلاً على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار. وقال السفاريني: والحق أن الموزون صحائف الأعمال، وصححه ابن عبد البر والقرطبي وغيرهما، وصوبه الشيخ مرعي في (بهجته)، وذهب إليه جمهور من المفسرين، وحكاه ابن عطية عن أبي المعالي.

القول الرابع: أن الذي يوزن هو العامل وعمله وصحف أعماله.

أدلته: فقد دلت النصوص التي سقناها على أن كل واحد من هذه الثلاثة يوزن، ولم تنف النصوص المثبتة لوزن الواحد منها أن غيره لا يوزن، فيكون مقتضى الجمع بين النصوص إثبات الوزن للثلاثة المذكورة جميعها. وهذا ما رجحه الشيخ حافظ الحكمي فقال: "والذي استظهر من النصوص–والله أعلم–أن العامل وعمله وصحيفة عمله –كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن، قد وردت بكل ذلك، ولا منافاة بينها، ويدل كذلك ما رواه أحمد–رحمه الله تعالى–: عن عبدالله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال: قال رسول الله: ((توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، ويوضع ما أحصي عليه، فيمايل به الميزان. قال: فيبعث به إلى النار. قال: فإذا أدبر، إذ صائح من عند الرحمن–عز وجل–يقول: لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة، حتى يميل به الميزان)). (١) فهذا الحديث يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن، ولله الحمد والمنة.

المسألة السابعة: كيفية وزن الأعمال.

قال الإمام القرطبي–رحمه الله–: «قال علماؤنا–رحمهم الله–: الناس في الآخرة ثلاث طبقات:

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٢١) (٧٠٦٦)، قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (١٠/ ٨٢): رواه الترمذي باختصـــار، رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقال أحمد شاكر في (مسند أحمد) (١٢/ ٢٤): إسناده صحيح.

- متقون لا كبائر لهم.
- ومخلطون وهم الذين يوافون بالفواحش والكبائر.
- والثالث: الكفار.

فأمَّا المتقون: فإن حسناتهم تُوضع في الكفة النيرة، وصغائرهم-إن كانت لهم الكفة الأخرى-فلا يجعل الله لتلك الصغائر وزنًا، وتثقل الكفة النيرة حتى لا تَبرح، وترتفع المظلمة ارتفاع الفارغ الخالي.

وأمَّا المخلطون: فحسناتهم توضع في الكفة النيرة، وسيئاتهم في الكفة المظلمة، فيكون لكبائرهم ثقل، فإن كانت الحسنات أثقل ولو بصؤابة دخل الجنة، وإن كانت السيئات أثقل ولو بصؤابة دخل النار إلا أن يغفر الله، وإن تساويا كان من أصحاب الأعراف على ما يأتي، هذا إن كانت للكبائر فيما بينه وبين الله، وأما إن كانت عليه تبعات وكانت له حسنات كثيرة فإنه ينقص من ثواب حسناته بقدر جزاء السيئات؛ لكثرة ما عليه من التبعات؛ فيُحمل عليه مِن أوزار مَن ظلمه، ثم يُعَذَّب على الجميع. هذا ما تقتضيه الأخبارُ"(١)

وأمَّا الكفار: فلا تُوزن أعمالهم؛ إذ لا حسنات لهم، وما قَدَّموه مِن عمل نافع في الدنيا فإنَّهم يجازون به في الدنيا كذلك؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [هود: الآيتان: ١٥، ١٦]، فيُوفون جزاء أعمالهم النافعة في الدنيا، وأما في الآخرة فليس لهم فيها نصيب من الحسنات والأجر، وإنما يجازون بكفرهم.

فما يقدِّمه الكافر من أعمال صالحة، كالصدقة، والعتق، وصلة الأرحام، والإنفاق، ونحوها من سبل الخير لا تُغني عنه شيئا، فالله تعالى:

شـبهها بالسـراب، فقال: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَـرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَـبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [النور: الآية: ٣٩].

وشـبهها بالرماد، فقال: ﴿**مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْـتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي**

(١) التذكرة للقرطبي (ص: ٣٦٠).

يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: الآية: ١٨].

وسيجعلها هباءً منثوراً، فقال: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا**﴾ [الفرقان: الآية: ٢٣].

وبيَّن أنهم بأعمالهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهم في خسارة لا يقام لهم وزن يوم القيامة، فقال: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾ [الكهف: الآيات: ١٠٣ — ١٠٥].

عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر-رضي الله عنهما-: كيف سمعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: ((يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه-عز وجل-، حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب أعرف. قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم. فيعطى صحيفة حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله)). [(١)]

عن عائشة-رضي الله عنها-، أنها ذَكَرَتِ النار، فبَكَت، فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((ما يبكيكِ؟ قالت: ذكرتُ النار فبكَيتُ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: أما في ثلاثة مواطن، فلا يذكر أحدٌ أحدًا: عند الميزان حتى يعلم أيخِفُّ ميزانه أو يثقُل، وعند الكتاب حين يُقال: ﴿**هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ**﴾ [الحاقة: الآية: ١٩]، حتى يعلم أين يقع كتابه؛ أفي يمينه، أم في شماله، أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وُضِع بين ظَهْرَي جهنم)).[(٢)]

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨) واللَّفظُ له.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١١٠)، وأبو داود في السنن (٢/ ٤٢٥)، والحاكم النيسابوري في المستدرك (٤/ ٥٧٨)، إسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٧٤٠)، والآجري في الشريعة (٢/ ٤٩٥)، وعبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (٣/ ٤٨، ٣١٤)، والنحاس في معاني القرآن (٤/ ٣٧٢)، وأورده السيوطي في الدر المنثور وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود والآجرى في الشريعة والحاكم وصححه والبيهقي في البعث أبو الشيخ وابن مردويه، وأورده الهيثمى في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٥٨).

للحديث ثلاثة طرق عن عائشة

الأول: من طريق الشــعبي عن عـائشـــة، اســـناده منقطع عـامر الشـــعبي لم يســـمع من عـائشـــة ورجـالـه موثقون وله طريق متصـل في الوسـيط في تفسـير القرآن المجيد ومعاني القرءان للنحاس، عن عامر الشـعبي عن مسـروق عن عائشـة، واسـناده ضعيف فيه عصام بن طليق.

الثاني: من طريق قتادة مرسلا -تفسير الصنعاني (١٩٤٠)-[١٩٨٨]، اسناده ضعيف مرسل والراجح أن قتادة سمعه من الحسن.

الثالث: من طريق خالد بن أبي عمران عن القاسم عن عائشة كما جاء في مسند الامام أحمد، اسناده ضعيف ورجاله موثقون غير عبد الله بن لهيعة ضعفوه.

بالإضـافة الى طريق الحسـن، فقد أخرجه أبو داود (٤٧٥٥)، وأحمد مختصـرا (٢٤٦٩٦)، والحاكم بنحوه في "مسـتدركه" (٨٧٢٢) من طريق الحسن عن عائشة. قال الحاكم: "هذا حديثٌ صحيحٌ إسنادُه على شرط الشيخين لولا إرسالٌ فيه بين الحسن وعائشة، على أنه قد صـحَّت الروايات أنَّ الحسـن كان يدخل وهو صـبيٌّ منزل عائشـة-رضـي الله عنها- وأمِّ سـلمة"، وقال الذهبي: "على شـرط البخاري ومسلم لولا إرسالٌ فيه بين الحسن وعائشة".

ولعل الحديث يرتقي إلى الحسن لغيره والله أعلم.

الصراط

المسألة الأولى: الأدلة على إثبات الصراط.

المسألة الثانية: أحوال الناس على الصراط.



[٦] قال المصنف–رحمه الله–: "والصراط".

الشرح

المسألة الأولى: الأدلة على إثبات الصراط.

قال ابن القيم–رحمه الله–: "ولا ريب أن كل من له التفات إلى سـنة رسـول الله–صـلى الله وعليه وسلم–واعتناء بها يشهدون شـهادة جازمة أن المؤمنين يرون ربهم عيانًا يوم القيامة، وإن قومًا من أهل التوحيد يدخلون النار ثم يخرجون منها بالشفاعة، وأن الصراط حق، وتكليم الله لعباده يوم القيامة كذلك"[١]

وقال شيخ الاسلام: "إذا ثبتت الرسالة ثبت ما أخبر به الرسول مما ينكره بعض أهل البدع كعذاب القبر وسؤال منكر ونكير وكالصراط والشفاعة" [٢].

ففي حديث أبي بكرة عن رسـول الله–صـلى الله عليه وسـلم–، أنه قال: ((يحمل الناس على الصـراط، فينجي الله من شـاء برحمته ثم يؤذن للملائكة، والنبيين، والشـهداء، والصـديقين فيشفعون)) الحديث[٣].

١ مختصر الصواعق للموصلي (ص: ٤٨٠).

٢ الأصفهانية (٢/ ٢١٤).

٣ رواه أحمد (٥/ ٤٣) (٢٠٤٥٧)، والطبراني في ((المعجم الصـغير)) (٢/ ١٤٢) (٩٢٩)، وابن أبي عاصـم في ((السـنة)) (ص: ٨٣٧). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٣٦٢): رجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في ((البدور السافرة)) (٢٥١): إسناده صحيح.

الصِّـــراط: جِســـر منصـــوب على مَتن جهنم بين الجَنَّة والنَّار، يَمُرُّ النَّاسُ عليه على قَدْرِ أعمالِهم.

قال الســفاريني رحمه الله: «والصــراط شــرعًا: جِســر ممدود على مَتن جهنم يَرده الأولون والآخرون، فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار، وخُلِق مِن حين خُلِقت جهنم»(١).

وفي قوله ســبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِـيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

قال الشيخ السعدي: «هذا خطابٌ لسائر الخلائق؛ بَرِّهم وفاجرهم، ومؤمنهم وكافرهم: أنَّه ما منهم مِن أحدٍ إلا سيرد النار حكمًا حَتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد مِن نفوذه، ولا محيد عن وقوعه»(٢).

المسألة الثانية: أحوال الناس على الصراط.

فالناس سيردون جهنم؛ لأنَّ الصراط مَنصوب على مَتْنِها.

وتختلف أحوال الناس في المرور عليه، كما جاء عن ابن مســعود رضــي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَرِدُ الناس النَّارَ، ثم يَصدرون عنها بأعمالهم؛ فأولهم كلمح البَرق، ثم كالرِّيح، ثم كحُضْر الفرس(٣)، ثم كالرَّاكب في رَحْلِه، ثم كَشَدِّ الرَّجل ثم كمَشيه»(٤).

وقد جاء في وصفه أنه: صراطٌ دقيق جدًّا، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «بَلَغني أنَّ الجسر أدق من الشعرة، وأحَدُّ من السيف»(٥).

والصِّراط مِن عرصات وأهوال يوم القيامة، وأول مَن يجوز عليه: النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأمته؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «... ويُضْرَبُ الصِّراط بين ظَهْري جَهَنَّم فأكونُ أنا وأُمَّتي أَوَّل مَن يُجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلَّا الرُّسـل، ودَعوى الرُّسـل يَومئذ: اللَّهُمَّ سَـلِّمْ سَـلِّمْ، وفي جهنم كلاليب مِثل شَـوْك السَّـعدان؛ هل رأيتم السَّـعدان؟»، قالوا: نَعم يا رسـول الله. قال:

(١) لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (٢ / ١٨٩).

(٢) «تفسير السعدي» (٥٨٠).

(٣) أي: جريه، وهو العَدْوُ الشَّديد.

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٥٩)، والدارمي (٢٨٥٢)، وقال: «حديث حسن»، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥٢٦).

(٥) أخرجه مسلم (١٨٣).

«فإنَّها مِثل شَــوك السَّــعدان غَير أنَّه لا يَعلم قَدْرَ عِظَمِها إلَّا الله عز وجل، تَخطف النَّاسَ بأعمالهم، فمَنهم الموبق بعملِه، والموثق بعمله، ومنهم المخَرْدَل والمجَازَى»(١).

قال الإمامُ القرطبيُّ رحمه الله تعالى: "فتَفَكَّر الآن فيما يَحِلُّ بك من الفَزع بفؤادك إذا رأيتَ الصِّراط ودِقَّتَه، ثُمَّ وَقَعَ بصرُك على سَوَادِ جَهنم من تحته، ثم قَرَعَ سَمْعَك شَهيقُ النارِ وتَغَيُّظُها، وقد كُلِّفْت أن تَمشي على الصِّراط مع ضَعف حالك، واضطراب قلبِك، وتَزَلْزُلِ قَدَمِك، وثِقَل ظَهْرك بالأوزار المانعة لك مِن المِشي على بساط الأرض فضلًا عن حِدَّة الصِّراط، فكيف بك إذا وَضَــعْتَ عليه إحدى رِجليك فَأَحْسَــسْــتَ بِحِدَّتِه، واضــطررت إلى أن تَرفع القَدَم الثاني، والخلائق بين يديك يَزِلُّون ويَعثرون، وتتناولهم زبانيةُ النَّار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكســون فَتَسْــفُل إلى جهة النار رُءوســهم، وتَعْلُو أَرْجُلُهم؛ فَيَا له مِن مَنظر ما أَفْظَعَه! ومُرْتَقًى ما أَصْعَبَه! ومَجاز ما أَضْيَقَه!»(٢).

ومع كل هذا فالمؤمن يمر عليه مرورًا سريعًا جدًّا.

ولذلك لا بد أن يعلم الإنسان أنه إذا أراد اجتياز الصراط إلى الجنة: أنه مطالب بمجاهدة نفســـه في هذه الحياة؛ للثبات على منهج الله، وعليه النظر فيما هو مُقدم عليه من هذه الأهوال؛ قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الحشر: ١٨]؛ وإذا كان الإنسان يحتاط جدًّا في سفر الدنيا وخاصة إذا سَمِع أن فيه مشقة، وأنه قد يُصيبه العنت فيه–فماذا قَدَّم ليوم القيامة وما فيه من كربات وأهوال؟

وليحاســب نفســه هنا: لماذا هذه الغشــاوة التي على عينيه، ولماذا هذه الغفلة التي في قلبه عن هذا المصير المحتوم؟! ولماذا الركون إلى الدنيا وعدم استثمار الأنفاس فيما ينفع وينجي في هذا اليوم؟!

فكيف يوقن العبد بهذه الحقائق ومع ذلك يفرط في جنب الله؟!

ولماذا لا يجتهد في تحصيل مرضاة الله؟!

وليعلم كل امرئ أن نفســه إن لم يشــغلها بالحق شــغلته بالباطل، وأن الله قد أعطاك قوة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢).

(٢) «التذكرة» (ص ٢٨٩).

كامنة في نفســه؛ إمَّا أن يُوجهها للخير، وإما أن يوجهها للشــر، ولا ينفعه يوم القيامة إلا ما قَدَّمه من أعمال صالحة في هذه الحياة صار قلبه بها سليمًا؛ كما قال الله سبحانه وتعالى عن الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

فعلى حســب حال المؤمن هنا من التنافس في فعل الخيرات، والمســارعة إلى مغفرة الله- سيكون حاله في الآخرة على الصراط؛ فمن استقام على صراط الله (منهجه) في الدنيا-ثَبَّته الله على الصراط المنصوب على ظهر جهنم؛ فاللهم ثَبِّتنا وسَلِّمنا دنيا وآخرة.




وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تعريف الإيمان.

المسألة الثانية: شرح عبارة قول وعمل.

المسألة الثالثة: زيادة الإيمان ونقصانه.

المسألة الرابعة: الأقوال المخالفة لقول أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

المسألة الخامسة: ثمرة الخلاف في مسألة زيادة الإيمان.

المسألة السادسة: مسألة الاستثناء في الإيمان

[٧]–قال المصنف–رحمه الله–: "والإيمانُ قولٌ وعَملٌ".

الشرح

المسألة الأولى: تعريف الإيمان

شرح قول المصنف: "والإيمان".

هذه المسألة يوردها العلماء ضمن مسائل الأسماء، ويحسن تناول هذه المسألة من خلال الجوانب الآتية:

الجانب الأول: الجانب اللغوي.

أ–المعنى اللغوي لكلمة "آمن":

الإيمان مصدر آمن يؤمن إيمانا فهو مؤمن

أ–فيرى جمع من أهل اللغة أن الإيمان في اللغة معناه: التصـــديق وقد حكوا الإجماع على ذلك قال الأزهري–رحمه الله–(ت: ٣٧٠ هـ): "واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق"[١].

واستدلوا لذلك بقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف لأبيهم ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: الآية: ١٧]، فقالوا: معناه ما أنت بمصدق لنا. [٢]

٢–أما علماء السلف[٣] فيقولون إن الإيمان يأتي في اللغة لمعنيين هما:

أ–بمعنى صدق به وذلك إذا عدي بالباء كما في قوله تعالى ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ...﴾ [البقرة: الآية: ٢٨٥]، أي صدق الرسول. [٤]

ب–وبمعنى أقر له وذلك إذا عدي باللام كما في قوله تعالى ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: الآية: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: الآية: ٦].

وقد اعترض السلف على حصر بعض أهل اللغة لمعنى الإيمان بالتصديق فقط وقالوا: "إن

(١) تهذيب اللغة (٥/ ٥١٣).

(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة آمن (١٣/ ٢٣).

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ١٤٣).

(٤) تفسير القرطبي (٣/ ٤٢٥).

الإيمان وإن كان يتضــمن التصــديق فليس هو مجرد التصــديق، وإنما هو الإقرار[١] والطمأنينة أيضا"[٢] واستدل السلف لقولهم بالأمور التالية:

: إن الترادف التام ممتنع بين التصديق والإيمان من عدة وجوه،

١-إن كلمة آمن تتعدى بالباء وباللام وقد تقدم التمثيل لذلك.

-أما كلمة "صــدق" فلا تتعدى باللام فلا يقال "صــدق له" إنما يقال "صــدق به" فهي تتعدى بالباء وبنفسها فيقال صدقه.

٢-إن كلمة آمن تتضمن ثلاثة معان هي: الأمن، والتصديق، والأمانة.

-أما كلمة صدق فلا تتضمن معنى الأمن والأمانة.

٣-إن لفظ الإيمان لا يســـتعمل إلا في الخبر عن الغائب لأن فيه أصــــل معنى الأمن والائتمان وهذا إنما يكون في الخبر عن الغائب، فلا يقال لمن قال طلعت الشـــمس آمنا له وإنما يقال صدقناه ولهذا لم يأت في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في الخبر عن الغائب.

-أما لفظ التصديق فيستعمل في كل مخبر عن مشاهد أو غيب، فمن قال السماء فوقنا، قيل له: صدقت.

٤-إن لفظ الإيمان ضــده الكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب فقط، بل هو أعم منه، إذ

---

(١) الإقرار: متضــــمن لمعنيين هما: قول القلب الذي هو التصــــديق. وعمل القلب الذي هو الانقياد. مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٨-٦٣٩).

(٢) الصارم المسلول لابن تيمية (ص: ٥١٩).

ومن الأقوال الواردة في تفسير الإيمان بمعنى الطمأنينة ما يلي:

يقول الفيروزآبادي-رحمه الله-(ت: ٨١٧ هـ): "آمَنَ بِهِ: صَدَّقَهُ، وبهِ: وثِقَ بهِ وأَمِنَ عليهِ"القاموس المحيط، (١/ ٧٨).

وقال الراغب الأصــفهاني-رحمه الله-(ت: ٥٠٢ هـ): "الإيمان: هو التصــديق بالقلب، والإقرار باللســان، والعمل بالأركان... وأصــل الكلمة من الأمن الذي هو الطمأنينة"المفردات في غريب القرآن، (ص: ٢٤).

وقال الفيومي-رحمه الله-(ت: ٧٧٠ هـ): "آمن به: صدقه، وبه: وثق به واطمأن إليه"المصباح المنير، (١/ ٢٩).

وقال الجوهري-رحمه الله-(ت: ٣٩٣ هـ): "آمن به: صدقه، وأمن به: وثق به واطمأن إليه"الصحاح في اللغة، (١/ ٧٨).

وقال الأزهري-رحمه الله-(ت: ٣٧٠ هـ): "آمن يؤمن إيمانًا: صدق، والطمأنينة التي تصحب التصديق"تهذيب اللغة، (١/ ١٣٤).

وقال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): "الإيمان في اللغة هو التصديق والاطمئنان"الكشاف، (١/ ٢٥).

وقال الزبيدي-رحمه الله-(ت: ١٢٠٥ هـ): "الإيمان: التصــــديق... وهو مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة." تاج العروس، (١/ ٢٥).

قال نشوان الحميري-رحمه الله-(ت: ٥٧٣ هـ): "آمن به: صدقه، وأمن به: وثق به واطمأن إليه"شمس العلوم، (١/ ٧٨).

وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي-رحمه الله-(ت: ١٧٤ هـ): "الإيمان: التصديق بالقلب، والاطمئنان"العين، (١/ ٢٥).

يمكن أن يكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب ومع ذلك يســمى كفرا كما لو قال شــخص: أنا أعلم أنك صادق، ولكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك وأخالفك، فهذا كفر أعظم.

-أما لفظ التصديق ضده التكذيب فقط.

وبهذا يتبين عدم الترادف التام بين اللفظين، وأن الإيمان ليس التصــــديق فقط[1] كما أن الكفر ليس التكذيب فقط.

ثانيًا: من المعلوم أن كلام الله وشرعه إنما هو خبر وأمر.

فالخبر: يستوجب تصديق الخبر.

والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام، وهو عمل في القلب، جماعه: الخضوع والانقياد للأمر، وإن لم يفعل المأمور به.

فإذا قوبل الخبر بالتصــديق، والأمر بالانقياد، فقد حصــل أصــل الإيمان في القلب وهو "الطمأنينة والإقرار" فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد. فلو فُسِّر الإيمان بالتصديق فقط، كما قال أهل اللغة، فإن التصديق إنما يعرض للجزء الأول من الشرع فقط الذي هو الخبر، ولا يعرض للجزء الثاني وهو الأمر، لأن الأمر ليس فيه تصديق من حيث هو أمر.

ومن المعلوم أن إبليس لم يكفر بسبب عدم تصديقه، فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولا، ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له، واستكبر عن الطاعة فصار كافرا، قال تعالى: ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: الآية: ٣٤]، فسماه الله كافرا وسلب عنه وصف الإيمان لاستكباره وعدم انقياده لأمر الله له بالسجود لآدم.

لازم القول بأن الإيمان مجرد التصديق فقط.

وهذا موضع زاغ فيه خلق من الخلف تخيل لهم أن الإيمان ليس في الأصل إلا التصديق، ثم يرون مثل إبليس وفرعون مما لم يصدر عنه تكذيب أو صدر عنه تكذيب باللسان لا بالقلب وكفره من أغلظ الكفر فيتحيرون.

ومثل هؤلاء القوم لو أنهم هُدوا لما هُدي إليه السلف الصالح لعلموا أن الإيمان قول وعمل أعني في الأصــل قولا في القلب، وعملا في القلب، فإن الإيمان بحســب كلام الله ورســالته-

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣٨٠-٣٨١).

وكلام الله ورسالته يتضمن أخباره وأوامره-فيصدق القلب أخباره تصديقا يوجب حالا في القلب بحسب المصدق به، والتصديق هو من نوع العلم والقول، وينقاد لأمره ويستسلم، وهذا الانقياد والاستسلام هو من نوع الإرادة والعمل، ولا يكون مؤمنا إلا بمجموع الأمرين فمتى ترك الانقياد كان مستكبرا فصار من الكافرين وإن كان مصدقا، لأن الكفر أعم من التكذيب، فالكفر يكون تكذيبا وجهلا، ويكون استكبارا وظلما، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار دون التكذيب، ولهذا كان كفر من يعلم مثل اليهود ونحوهم من جنس كفر إبليس، وكان كفر من يجهل مثل النصارى ونحوهم ضلالا وهو "الجهل" ألا ترى أن نفرا من اليهود جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن أشياء، فأخبرهم، فقالوا: نشهد أنك نبي، ولم يتبعوه، وكذلك هرقل وغيره، فلم ينفعهم هذا العلم وهذا التصديق.

ألا ترى أن من صدق الرسول بأن ما جاء به هو رسالة الله، وقد تضمنت خبرا وأمرا، فإنه يحتاج إلى مقام ثان، وهو تصديق خبر الله وانقياده لأمر الله، فإذا قال: "أشهد أن لا إله إلا الله" فهذه الشهادة تتضمن تصديق خبره والانقياد لأمره. "وأشهد أن محمدا رسول الله" تضمنت تصديق الرسول فيما جاء به من عند الله.

فبمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار.

فلما كان التصديق لا بد منه في كلا الشهادتين-وهو الذي يتلقى الرسالة بالقبول-ظن من ظن أنه أصل لجميع الإيمان وغفل عن أن الأصل الآخر لا بد منه وهو الانقياد، وإلا فقد يصدق الرسول، ظاهرا وباطنا ثم يمتنع من الانقياد للأمر، إذ غايته في تصديق الرسول أن يكون بمنزلة من سمع الرسالة من الله سبحانه كإبليس"[1]

ثالثًا: ما استدل به أهل اللغة على أن معنى الإيمان في قوله تعالى ﴿**وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾ [يوسف: الآية: ١٧]، هو التصديق غير مسلم.

إذ يرى علماء السلف أن تفسيرها بـ "أقررت" أقرب من تفسيرها بـ " صدقت " وذلك لأن لفظ "آمن" متى عُدّي باللام يكون بمعنى "أقر" وليس بمعنى "صدق"، إذ لا يكون بمعنى صدق إلا إذا عُدّي بالباء أو بنفسه.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وأصل الإيمان في اللغة: التصديق، والطمأنينة،

(١) الصارم المسلول (ص: ٥١٩-٥٢٠) بتصرف.

كما يقول العرب: أمن الرجل أمانة وأمناً: إذا صار ذا أمن"[١]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فإن الإيمان في لغة العرب مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة، كما قال أهل العلم باللغة"[٢]

وقال أيضًا: "وأصل الإيمان في اللغة: التصديق والطمأنينة"[٣]

الجانب الثاني: المعنى الشرعي للإيمان:

تتحدد دلالة اسم "الإيمان" في الشرع بحسب سياق الكلام الذي تستعمل فيه هذه اللفظة فلفظ "الإيمان" إما أن يستعمل:

أ-مطلقا: أي يذكر مطلقا عن لفظ "العمل" و"الإسلام".

٢-أو مقيدا: فتارة يقرن بالعمل الصالح، وتارة يقرن بالإسلام.

الحال الأول: فإذا اســتعمل مطلقا: "فجميع ما يحبه الله ورســوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة، يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف والأئمة-من الصحابة والتابعين وتابعيهم-الذين يجعلون الإيمان قولا وعملا، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصــية، ويدخلون جميع الطاعات-فرضها ونفلها-في مسماه"[٤]

ويلاحظ هنا أن لفظ "الإيمان" على هذا الاستعمال يكون مرادفا للفظ "العبادة" والعبادة كما هو معروف هي: اســم جامع لكل ما يحبه الله ويرضــاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ومن اســتعمال الشــارع للفظ الإيمان بهذا المعنى ما جاء في الصــحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)). [٥]

(١) كتاب الإيمان، (ص: ٢٢) بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى، (٧/ ٦٣٣). بتصرف.

(٣) مجموع الفتاوى، (٧/ ٦٤٢). بتصرف.

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٢).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أمور الدين. انظر: فتح الباري (١/ ٥١) (ح: ٩)، وأخرجه مسلم-واللفظ له-كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (١/ ٤٦).

فالإيمان في هذا الحديث شمل جميع أمور الدين بما في ذلك أمور الإســـلام. ومن هذا الاستعمال أيضًا ما جاء في حديث عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ): أن وفد عبد القيس لما أتوا النبي-صـــلى الله عليه وســـلم-أمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: ((أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟، قالوا: الله ورســـوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم خمس...)). الحديث [١]

فلفظ الإيمان اســـتعمل في الحديث مطلقا فدخل فيه الأمور الظاهرة مع أنها من أمور الإسلام كما جاء في حديث جبريل المشهور.

قال الطحاوي-رحمه الله-(ت: ٣٢١ هـ): "الإيمان والإســـلام هما دين الله تعالى، وكل منهما إذا ذكر منفردًا دخل فيه الآخر"[٢]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فإن الإســـلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، وكذلك الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإســـلام؛ فإذا اجتمعا كان الإســـلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة"[٣]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "الإسلام إذا أطلق شمل الدين كله، وإذا اجتمع مع الإيمان افترقا، فيكون الإسلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة"[٤]

قال النووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "الإســـلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، وكذلك الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام. فإذا اجتمعا كان لكل واحد منهما معنى يخصه"[٥]

قال ابن حجر العسقلاني-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "إذا ذكر الإسلام وحده دخل فيه الإيمان، وإذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإســـلام. وإذا اجتمعا افترقا، فيكون الإيمان هو التصديق القلبي والإسلام هو الأعمال الظاهرة"[٦]

(١) أخرجه البخاري في صـــحيحه واللفظ له: كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان. انظر: فتح الباري (١/ ١٢٩) (ح: ٥٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه (١/ ٣٥-٣٦).

(٢) العقيدة الطحاوية (ص: ٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى، (٧/ ٦٢١).

(٤) مدارج السالكين، (١/ ٣٣٧).

(٥) شرح صحيح مسلم، (١/ ١٤٦).

(٦) فتح الباري، (١/ ٩٠).

قال الشـاطبي-رحمه الله-(ت: ٥٩٠ هـ): "إذا أطلق لفظ الإسـلام شمل الدين كله، وإذا قرن بالإيمان تميز عنه، فكان الإسلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة"(١)

قال القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٧١ هـ): "الإسـلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، وكذلك الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام؛ فإذا اجتمعا كان لكل واحد منهما معنى يخصه"(٢)

قال البيضاوي-رحمه الله-(ت: ٦٨٥ أو ٦٩١ هـ): "إذا أطلق لفظ الإسلام وحده شمل الدين كله من اعتقادات وأعمال، وإذا قرن بالإيمان تميز عنه"(٣)

قال السعدي-رحمه الله-(ت: ١٣٧٦ هـ): "إذا ذكر الإسـلام وحده شمل كل ما يتعلق بالدين من تصديق بالقلب وأعمال الجوارح، وإذا قرن بالإيمان تميز عنه"(٤)

الحال الثاني: وأما إذا استعمل اسم الإيمان مقيدا: كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [البقرة: الآية: ٧٧]، وقوله ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يونس: الآية: ٦٣].

وقول النبي-صلى الله عليه وسلم-في حديث جبريل المشهور: ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره)). (٥)

فهنا قد يقال: إنه متناول لذلك وإن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى: ﴿**وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ**﴾ [البقرة: الآية: ٩٨]، وقوله: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾ [الأحزاب: الآية: ٧].

وقد يقال إن دلالة الاسم تنوعت بالإفراد والاقتران كلفظ الفقير والمسكين، فإن أحدهما إذا أفرد تناول الآخر، وإذا جمع بينهما كانا صنفين: كما في آية الصدقة، ولا ريب أن فروع

(١) الموافقات، (١/ ١٠٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، (١/ ١١٨).
(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (١/ ١١٠).
(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (١/ ٩٥).
(٥) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله (١/ ٢٩). والحديث أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل بلفظ: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث"انظر: فتح الباري (١/ ١١٤)، (ح: ٥٠).

الإيمان مع أصوله كالمعطوفين، وهي مع جميعه كالبعض مع الكل"[١]

قلت: إن القول بأن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام ينطبق على الآية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ﴾ [البقرة: الآية: ٧٧]، وقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: الآية: ٦٣]..

والقول بأن دلالة الاســم تنوعت بالإفراد والاقتران ينطبق على حديث جبريل حيث ذكر الإســـلام والإيمان فأصـــبح كل واحد منهما يختص بأمور معينة فالإســـلام اختص بالأمور الظاهرية، والإيمان اختص بالأمور الاعتقادية الباطنية.

"فلفظ الإسلام والإيمان إذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر إما تضمنا وإما لزوما، ودخوله فيه تضـمنا أظهر، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر، وهذه قاعدة جليلة من أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة أشكلت على كثير من الناس"[٢]

خلاصة القول:

إن اسم الإيمان إذا أفرد: تناول جميع أمور الدين الظاهرة والباطنة كما في حديث الشعب.

وإذا اقترن اسم الإيمان مع الإسلام دل الإيمان على الأمور الباطنة ودل الإسلام على أمور الدين الظاهرة كما في حديث جبريل.

وإذا اقترن العمل مع الإيمان: فهو من باب عطف الخاص على العام [٣] كما في قوله

---

(١) الفتاوى (٧/ ٦٤٧ . ٦٤٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٧ -٦٤٨).

(٣) قال شـارح الطحاوية: "اعلم أن عطف الشـيء على الشـيء يقتضـي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشـتراك في الحكم الذي ذكر لهما، والمغايرة على مراتب:

١-أعلاها: أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر، ولا جزءا منه، ولا بينهما تلازم، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: الآية: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: الآية: ٣]، وهذا هو الغالب.

٢-ويليه: أن يكون منهما تلازم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُـــوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: الآية: ٩٢].

٣-الثالث: عطف بعض الشيء عليه كقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: الآية: ٢٣٨]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُــلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: الآية: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ﴾ [الأحزاب: الآية: ٧]، وفي مثل هذا وجهان: أحدهما: أن يكون داخلا في الأول، فيكون مذكورا مرتين. والثاني: أن عطفه عليه =

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: الآية: ٧٧].

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. فالإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام، وكذلك الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان"(١)

٢. قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "الإسلام هو الاستسلام والانقياد، والإيمان تصديق وإقرار، فإذا اجتمعا كان الإسلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة"(٢)

٣. قال النووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "الإسلام هو الاستسلام والانقياد الظاهري، والإيمان هو التصديق القلبي، فإذا اجتمعا كان لكل واحد منهما معنى يخصه، وإذا افترقا دل أحدهما على الآخر"(٣)

٤. قال ابن حجر العسقلاني-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان، فإذا اجتمعا في الذكر افترقا في المعنى، وإذا انفرد أحدهما في الذكر دخل فيه الآخر"(٤)

٥. قال الشاطبي-رحمه الله-(ت: ٥٩٠ هـ): "الإسلام في الظاهر هو الاستسلام للأحكام، والإيمان في الباطن هو التصديق والإقرار"(٥)

٦. قال الفيروزآبادي-رحمه الله-(ت: ٨١٧ هـ): "الإسلام هو الانقياد الظاهر للأحكام الشرعية، والإيمان هو التصديق الباطني"(٦)

المسألة الثانية: دخول العمل في مسمى الإيمان

شرح قول المصنف: "قولٌ وعملٌ".

تنوعت عبارات السلف في تعريف الإيمان:

يقتضي أنه ليس داخلا فيه هنا وإن كان داخلا فيه منفردا كما قيل في لفظ "الفقراء والمساكين" ونحوهما، تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران.

٤-الرابع: عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين، كقوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: الآية: ٣]"شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣٨٧-٣٨٨).

(١) مجموع الفتاوى، (٧/ ٦٢١).

(٢) مدارج السالكين، (١/ ٣٣٧).

(٣) شرح صحيح مسلم، (١/ ١٤٦).

(٤) فتح الباري، (١/ ٩٠).

(٥) الموافقات، (١/ ١٠٦).

(٦) بصائر ذوي التمييز، (١/ ٣٤).

١-فتارة يقولون: الإيمان قول وعمل.

٢-وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية.

٣-وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية واتباع سنة.(١)

٤- وتارة يقولون: "قول وعمل ومعرفة".

٥- وتارة يقولون: الإيمان: قول اللســـان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية(٢).

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ) -بعد أن أورد التعريفات الثلاثة الأول-: "وكل هذا صحيح"(٣) وعلل ذلك بقوله(٤):

"فمن قال إن الإيمان قول وعمل فمرداه قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح".

وقول اللسان وعمل الجوارح معروفان.

وأما المقصود من قول القلب: فهو إقراره ومعرفته وتصديقه.

وأما عمله: فهو انقياده لما صدق به.

ومن عبر عن الإيمان بهذا التعريف ليس مراده كل قول أو عمل وإنما المراد ما كان مشروعا من الأقوال والأعمال.

كما أن تعبير بعض الســـلف بهذه العبارة في تعريف الإيمان إنما جاء في معرض الرد على المرجئة. (٥) الذين جعلوه قولا فقط، فقال بعض السلف ردا عليهم: بل قول وعمل. (٦)

(١) هذه التعريفات الثلاثة أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الإيمان. انظر (ص: ١٦٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٢).

(٣) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ١٦٢).

(٤) كلام شيخ الإسلام نقلته بتصرف من كتابه الإيمان (ص: ١٦٢-١٦٣).

(٥) المرجئة هم الذين أرجأوا العمل عن مسمى الإيمان وهم خمس طوائف سيأتي ذكرهم.

(٦) قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الناس لهم في مسمى الكلام والقول عند الإطلاق أربعة أقوال:

ا-فالذي عليه السلف والفقهاء والجمهور أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعا.

٢-وقيل: بل مســـماه اللفظ، والمعنى ليس جزء مســـماه، بل هو مدلول مســـماه، وهذا قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين الى السنة، وهو قول النحاة لأن صناعتهم متعلقة بالألفاظ.

٣-وقيل: مسماه هو المعنى وإطلاق الكلام على اللفظ مجاز لأنه دال عليه وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه.

٤-وقيل: بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى وهو قول بعض المتأخرين من الكلابية ولهم قول ثالث يروى عن أبي الحسن أنه مجاز في كلام الله حقيقة في كلام الآدميين"كتاب الإيمان (ص: ١٦٢).

وأما من عرفه بقوله هو قول وعمل ونية، فمقصـــوده بزيادة لفظ "ونية": أن القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان.

وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك. (١)

وأما من عرفه بأنه قول وعمل ونية واتباع سنة، فقد زاد لفظة "واتباع سنة" لأن ذلك كله لا يكون محبوبا لله إلا باتباع السنة. (٢)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد سـئل **سـهل بن عبد الله التسـتري-رحمه الله-(ت: ٢٨٣ هـ)** عن الإيمان ما هو؟، فقال: قول وعمل ونية واتباع سنة.

لأن الإيمان إذا كان قولا بلا عمل فهو كفر.

وإذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق.

وإذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة" (٣)

وأجمع التعاريف الواردة وأشملها هو: أن الإيمان قول اللسان واعتقاد بالجنان وعمل الجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

وهذا التعريف هو الذي يميز قول السلف في مسمى الإيمان عن قول غيرهم من الفرق. (٤)

---

(١) كتاب الإيمان (ص: ١٦٣).

(٢) كتاب الإيمان (ص: ١٦٣).

(٣) كتاب الإيمان (ص: ١٦٣).

(٤) الذين خالفوا السلف في مسمى الإيمان هم:

أ-المرجئة بطوائفهم الخمس:

١-الجهمية: وقالوا الإيمان هو معرفة القلب فقط: أي المعرفة الفطرية التي هي المعرفة بربوبية الله.

٢-الأشاعرة: وقالوا الإيمان هو التصديق فقط أي التصديق بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عند الله.

٣-الماتريدية: وقولهم في الإيمان مثل قول الأشاعرة.

٤-الكرامية: قالوا الإيمان قول باللسان فقط.

٥-مرجئة الأحناف (أو مرجئة الفقهاء) قالوا: الإيمان قول باللسـان وتصـديق بالجنان. وهو قول الكلابية. وكل هذه الطوائف الخمسة أخرجت العمل عن الإيمان.

ب-الخوارج: قالوا الإيمان قول واعتقاد وعمل، ولكنهم يكفرون من أخل بشـيء من هذه الثلاثة ويقولون بأنه كافر في الدنيا وفي الآخرة خالد في النار.

ج-المعتزلة: وقالوا بقول الخوارج إلا أنهم يقولون إنه في الدنيا في منزلة بين منزلتين بمعنى أنه ليس بمؤمن ولا كافر، واتفقوا معهم في باقي الأمور. انظر تفاصـيل هذه الأقوال: في كتاب الإيمان لابن تيمية، والجزء السـابع من مجموع الفتاوى، وشـرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣٧٣-٣٩٢) وكتاب النبوات (ص: ١٩٩).

ولهذا كان هذا التعريف هو أجمع التعاريف الواردة عن السلف وأكثرها دقة في بيان قولهم.

فإن الناظر إلى هذا الإنســـان باعتبار ما يجب عليه تجاه ما أخبر الله به وما أمر الله تعالى به؛ فنصـوص الشـرع لا تخرج عن أمرين: إما أخبارٌ وإما أوامر، فالأخبار حقها التصـديق بأن تُصـدق بها، والأوامر حقها أن تعمل بها، كما جاء في الحديث "إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن نهيٍ فانتهوا"(١)

فأنت مأمور بأن تتبع، وأن تعمل بهذه الأوامر بحســـب ما يأتي من حكمٍ عليها، فهذه الأمور أي الوحي تأتي لهذا الإنســـان، وأول ما تأتي إليه في باطنه؛ لأنه لابد وأن يعلم أن الصـــلاة مثلاً ركنٌ من أركان الإســـلام، ثم إذا جئت إلى الصـــلاة تجد أن منها فرائض ومنها نوافل، ثم أن هذه النوافل منها سنن رواتب ومنها غير ذلك، فهذا أول ما يقابله بالعلم.

فإذاً هذا الإيمان سيخاطب هذا الباطن في الإنسان، وأول ما يخاطب أن يصدق بما أخبر الله به.

والثاني: أن ينقاد لأمر الله، فلابد أن يحصـل الانقياد والتسـليم لأوامر الله، فليس لك حق الاعتراض أن تقول: لا بدل خمس صـلوات نجعلها ثلاثة أو نجعلها ستة، فهي خمس صـلوات في اليوم الليلة لابد من أدائها في أوقاتها، فأصبح عليه أن يصدق وعليه أن ينقاد.

ومعلوم أن هنا ثلاثة أحوال:

القلب، والقلب يشمل أمرين:

يشمل جانب العلم، ويشمل جانب الإرادة هذا القلب.

والجانب الثاني: جانب اللسان.

والجانب الثالث: جانب الجوارح.

فهناك قول القلب، وعمل القلب، وقول اللســـان، وعمل اللســـان، وهناك عمل الجوارح فهذه خمسة، فإذا جئت إلى قول القلب فهذا هو العلم الذي هو التصديق فعليه أن يعلم هذه الأشـياء ويصـــدق بها، هذا الواجب الأول على القلب، والقلب هو الباطن، والباطن مجموع الأمرين وهذه هي العقيدة.

لذلك قال المصـــنف: "الإيمان قولٌ وعمل"، فالقول هنا هو العلم والتصـــديق، تعلم

(١) رواه البخاري (٤/ ٤٢٢) ومسلم (٧/ ٩١) وأحمد (٢/ ٢٥٨).

وتصـدق، هذا واجبٌ على الإنســان لكي يكون مؤمناً، وهذا وحده لا يكفي فلو قال قائل: أنا أعلم أن الصــلوات خمس وهي كذا وكذا وهيئتها كذا لكن لن أصــلي، فهو بهذا لا يكون مؤمناً إذ لابد من الجانب الثاني.

والجانب الثاني: هو انقياد القلب، فهذه الإرادة لابد أن تنقاد لهذه الأخبار وهذه الأوامر، ولـذلـك يأتي عمـل القلـب، والقلـب أعمـالـه كثيرة، منهـا مثلاً الإخلاص، والمحبـة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والخشــية، والتقوى، ولذلك النبي صــلى الله عليه وســلم لما ذكر التقوى قال: ((**التقوى هاهنا التقوى هاهنا التقوى هاهنا وأشــار بيده على صــدره**)). (١)، فهذه أعمال القلوب، وهي التي تنطلق إلى سائر الجوارح

وأما قول اللسـان وعمل اللسـان، فقول اللسـان جعله العلماء النطق بالشـهادتين لأن هذا هو الفيصـل بين الإسـلام والكفر، ((**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشـهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**)).(٢)، فأول ما يدخل الإنسـان في الإسـلام يُطالب بعد تطهره يطالب بالنطق بالشـهادتين، فهذا يسميه العلماء: قول اللسان، فجعلوه في النطق بالشـهادتين.

وأما عمل اللسان: فمنه قراءة القرآن وتلاوته، وذكر الله عز وجل، والتسبيح، والتهليل هذا كله عمل اللسان.

وأما أعمال الجوارح، فمنها الركوع والسـجود والصـوم والجهاد وغض البصـر وغيرها فهذه أعمال الجوارح، وهذا بكله هو الذي يُسمى إيماناً عند أهل السنة.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٥)، وأحمد (٧٦٧٠).

(٢) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٥).

[٩]–قال المصنف رحمه الله: والإيمانُ يزيدُ وينقُصُ بالقلبِ والجوارح.

الشرح

المسألة الثالثة: زيادة الإيمان ونقصانه.

هل السنة يؤمنون أن الإيمان يزيد وينقص، ومن الأدلة على ذلك:

أولًا: أدلة زيادة الإيمان ونقصانه من القرآن. (١)

لقد جاء في كتاب الله عز وجل نصوص كثيرة تدل على زيادة الإيمان ونقصانه وأن أهله متفاضلون فيه بعضهم أكمل إيماناً من بعض، فمنهم السابق بالخيرات، ومنهم المقتصد، ومنهم الظالم لنفسه، منهم المحسن، ومنهم المؤمن، ومنهم المسلم، ليسوا في الدين سواء في مرتبة واحدة، بل فضل الله بعضهم على بعض ورفع بعضهم فوق بعض درجات.

وقبل الشروع في ذكر هذه الأدلة القرآنية الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه أودّ التنبيه على نقطة هامة، وهي:

أن كل دليل دلّ على زيادة الإيمان فهو يدل على نقصانه، وكذا العكس، فما دل على نقصان الإيمان فهو يدل على زيادته، فالآيات التي أوردها هنا وظاهرها الدلالة على زيادة الإيمان فقط، فهي تدل على نقص الإيمان باللزوم، وذلك لأن الزيادة تستلزم النقص، ولأن ما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقص، ولأن الزيادة لا تكون إلا عن نقص.

ولهذا فإنا نجد أهل العلم كثيراً ما يستشهدون بأدلة زيادة الإيمان على نقصانه وكذا العكس للأسباب المتقدمة، وتأمل–مثالاً على ذلك–صنيع البخاري في صحيحه فقد أورد بعض الآيات المصرحة بزيادة الإيمان في باب زيادة الإيمان ونقصانه مستدلاً بها على الزيادة والنقصان معاً.

ومن الآثار الواردة عن سفيان بن عيينة في هذه المسألة:

(١) المصدر: كتاب زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه للدكتور عبد الرزاق البدر (ص: ٣٥)

- قال إبراهيم بن سعيد الجوهري: "سمعت ابن عيينة يقول: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص". [١]
- قال إبراهيم بن سعيد: "سمعت سفيان بن عيينة، يقول: "الإيمان قول وعمل، فقيل له: يزيد وينقص؟ فقال: نعم، حتى لا يبقى مثل هذا، ورفع شيئًا من الأرض وقرأ {فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [التوبة: الآية: ١٢٤]. [٢]
- قال عمرو بن عثمان الرقي الكلابي: "كنت عند سفيان بن عيينة، فجاءه رجل فقال: يا أبا محمد، ما تقول: الإيمان يزيد وينقص؟ قال: يزيد ما شاء الله، وينقص حتى لا يبقى معك منه شيء، وعقد بثلاثة أصابع، وحلق بالإبهام والسبابة...". [٣]

وقال الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): "إن كان قبل زيادته-أي الإيمان-تاماً فكما يزيد كذا ينقص" [٤]

فمن الأدلة:

- قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾** [آل عمران: الآية: ١٧٣].
- وقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾** [الأنفال: الآية: ٢].
- وقوله تعالى: **﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾** [التوبة: الآية: ١٢٤].
- وقوله تعالى: **﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ**

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٢٢).
(٢) حلية الأولياء (٦/ ١٣٥).
(٣) حلية الأولياء (٦/ ١٤٠).
(٤) رواه الخلال في السنة (٢/ ٦٨٨، ح: ١٠٣٠).

اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٢].

- وقوله تعالى :**﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾** [الفتح: الآية: ٤].
- وقوله تعالى: **﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾** [المدثر: الآية: ٣١].
- وقوله تعالى :**﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾** [محمد: الآية: ١٧].

ثانياً: الأدلة من السنة على زيادة الإيمان ونقصانه:

- حديث **أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ أو ٥٨ هـ)**، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن**)). (١)
- حديث **أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ أو ٥٨ هـ)**، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**)). (٢)

ففي هذا الحديث "بيان أن الإيمان الشرعي اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء، له أعلى وأدنى، فالاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق–بكلها، والحقيقة تقتضي جميع شعبها وتستوفي جملة أجزائها، كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء، والاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها"(٣)

وهذه الشعب متفاوتة ليست على درجة واحدة في الفضل، بل بعضها أفضل من بعض، كما هو ظاهر لفظ الحديث في قوله: "أعلاها "وقوله: "أدناها"، فشعب الإيمان منها ما يزول الإيمان بزوالها إجماعاً كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها إجماعاً كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً منها ما يقرب من شعبة الشهادتين، ومنها

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١١٩، ١٠/ ٣٠، ١٢/ ٥٨، ١٢/ ١٤ فتح)، ومسلم (٢/ ٤١ نووي).
(٢) أخرجه البخاري (١/ ٥١ فتح) ومسلم (٢/ ٦ نووي) وهذا لفظ مسلم.
(٣) معالم السنن للخطابي (٧/ ٤٤،٤٣).

ما يقرب من شعبة إماطة الأذى"(١)

وقال ابن ســـعدي-رحمة الله-(ت: ١٣٧ هـ) -بعد ذكره لحديث أبي هريرة-: "وهذا صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب، واتصاف العبد بها أو عدمه، ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتًا كثيرًا، فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فقد خالف الحس، مع مخالفته لنصوص الشرع كما ترى"(٢)

- حديث **أنس بن مالك-رضي الله عنه-(ت: ٩٠ وقيل ٩٣ هـ)**، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((**لا إيمان لمن لا أمانة له**)). (٣)

فهذا الحديث دليل على أن من لا أمانة له، فقد نقص فيه شيء من واجبات هذا الدين، فيذهب عنه كمال الإيمان الواجب وتمامه، ويكون بذلك مؤمناً ناقص الإيمان. (٤)

يوضح الاستدلال بهذا الحديث ويبينه ما جاء **عن عروة بن الزبير-رحمه الله-(ت: ٩٤ هـ)**، أنه قال: "ما نقصـــت أمانة عبد قط إلا نقص إيمانه"(٥)، فنقص الأمانة في العبد دليل على نقص الإيمان وضعفه فيه

- ولهذا لما سئل الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ) مرة عن نقصان الإيمان احتج بهذا، قال الفضل بن زياد سمعت أبا عبد الله وسئل عن نقص الإيمان فقال: حدثنا وكيع عن سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه قال: "ما انتقصت أمانة رجل إلا نقص إيمانه"(٦).

- حديث **أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-(ت: ٧٤ هـ)**، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم**

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٣٢٢).

(٢) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص: ١٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٣٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ١١) وفي الإيمان (ص: ٥)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٠٨ الإحسان)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٧٥)؛ وقال البغوي: "هذا حديث حسن"؛ وصححه الألباني في تحقيقه للإيمان لابن أبي شيبة.

(٤) انظر الفتاوى (١١/ ٦٥٣).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ١٢)، وفي الإيمان (ص: ٦)، وعبد الله في السنة (١/ ٣٦٨) والخلال في السنة (ق: ١٥٩/ ب) والآجري في الشريعة (ص: ١١٨) والبيهقي في الشعب (١/ ١٩٧)، وابن بطة في الإبانة (برقم:١١٤١).

(٦) رواه الخلال في السنة (برقم: ٧٨٩)، والآجري في الشريعة (ص: ١١٨)، وابن بطة في الإبانة (برقم: ١١٤٨).

يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)). (١)

فبين النبي-صـــلى الله عليه وســـلم-في هذا الحديث مراتب إنكار المنكر، وأنه حســـب الاســـتطاعة فإما أن يغير باليد أو باللســـان أو بالقلب، بمعنى يكرهه بقلبه، وهذه المراتب الثلاث للإنكار يقوم بها المكلف على قدر استطاعته، ولا شـك أن المرتبة الأخيرة باستطاعة جميع المكلفين، فمن رأى المنكر ولم يكرهه بقلبه وهو يعلم أنه منكر فإن هذا يكون علامة على ضعف إيمانه.

وقد احتج بهذا الحديث على زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضل أهله فيه النسائيُ-رحمه الله-(٣٠٣ هـ)، في سننه فبوب له بـ"باب تفاضل أهل الإيمان"(٢).

وابن منده-رحمه الله-(ت: ٣٩٦ هـ) في كتابه الإيمان فقال: "ذكر خبر يدل على أن الإيمان قول باللســـان واعتقاد بالقلب وعمل بالأركان يزيد وينقص"(٣) ثم ذكر حديث أبي سعيد-رضي الله عنه-.

وبوب له النووي في شرحه لمسلم بـــ "باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص..."(٤).

ثانيًا: أقوال السلف الصالح في زيادة الإيمان ونقصانه(٥)

جاء عن السلف الصالح آثار كثيرة قرروا فيها ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله-صلى الله عليه وسلم-من حجج ودلالات على زيادة الإيمان ونقصانه، فبينوا رحمهم الله أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وكثرة العبادة والمداومة عليها، وينقص باللهو والغفلة والمعصية والتقصير في فعل الطاعة، بل لقد حكى إجماعهم واتفاقهم على ذلك غير واحد من أهل العلم.

عن عمير بن حبيب الخطمي-رضـــي الله عنه-قال: "الإيمان يزيد وينقص، فقيل: وما

(١) رواه مسلم (٢/ ٢٢ نووي).
(٢) سنن النسائي (٨/ ١١).
(٣) الإيمان لابن منده (٢/ ٣٤١).
(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٢١) وانظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (٣/ ٣٤٣).
(٥) المصدر: ت: كتاب زيادة الإيمان ونقصانه (ص: ١٠٦ ـ ١٠٧).

زيادته ونقصـــانه؟ قال: إذا ذكرنا الله عز وجل وحمدناه وســـبحناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا، فذلك نقصانه"(١)

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "وأقدم من روي عنه زيادة الإيمان ونقصـــانه من الصحابة عمير بن حبيب الخطمي"(٢)

وعن أبي الدرداء عويمر الأنصـــاري-رضـــي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، أنه قال: "الإيمان يزداد وينقص"(٣)

وروي عنه رضـــي الله عنه أنه قال: "من فقه العبد أن يعلم أمزداد هو أو منتقص، وإن من فقه العبد أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه"(٤)

وعن علقمـة بن قيس النخعي-رحمـه الله-(ت: ٦٢ هـ)، أنـه كـان يقـول لأصحابه: "امشوا بنا نزدد إيمانا"(٥)

١٢ - وكتب عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-(ت: ١٠١ هـ)، إلى عدي بن عدي-رحمه الله-(ت: ١٢٠ هـ)، -أحد عماله على الجزيرة-: "أما بعد: فإن للإيمان حدودًا وشـــرائع وفرائض، من استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان".

علقه البخاري-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ) في كتاب الإيمان من صـــحيحه (٦)، وقال ابن حجر مبينا ســـبب ذكر البخاري له: "والغرض من هذا الأثر أن عمر بن عبد العزيز كان ممن

(١) رواه عبدا لله بن أحمد في الســنة (١/ ٣٣٠) (٦٨٠)، والآجري في الشـــريعة (ص: ١٠٨)، والخطابي في الغنية (ص: ٤٥)، وأبو أحمد الحاكم في شعار أصحاب الحديث (ص: ٨).

(٢) تهذيب السنن (٧/ ٥٦).

(٣) رواه ابن ماجه بعد حديث رقم: (٧٢)، والبيهقي في الشعب (١/ ٧٦) (٥٤). وقال الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه: ضعيف.

(٤) رواه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٤٩) (١١٤٠)، وذكره شيخ الإسلام في كتاب الإيمان (ص: ٢١١). وإسناده ضعيف لإبهام شيخ حريز.

(٥) رواه ابن أبي شيبة (١١/ ٢٥) وفي الإيمان (ص: ٣٤) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٩٩) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٧) (٥٧). وحسن الألباني إسناده في الإيمان لابن أبي شيبة.

(٦) البخاري معلقا بصيغة الجزم قبل حديث (٨)، ووصله ابن أبي شيبة (١١/ ٤٨)، وفي ((الإيمان)) (ص: ٤٥) والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ١٩٧) والبغوي في ((شرح السنة)) (١/ ٤٠). قال ابن الملقن في شرح البخاري (٢/ ٤٤٠): إسناده صحيح.

يقول بأن الإيمان يزيد وينقص، حيث قال: استكمل ولم يستكمل" (١).

قال الإمام الأوزاعي–رحمه الله–(ت: ١٥٧ هـ): "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص"(٢)

قال الإمام مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ): "الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية"(٣)

قال يحيى بن سعيد القطان–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ): "ما أدركت أحداً من أصحابنا، إلا على سنتنا في الإيمان، ويقولون: الإيمان يزيد وينقص(٤).

قال الإمام الشـــافعي (ت: ٢٠٤ هـ): "الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية"(٥)

وقال الإمام عبد الرزاق الصــنعاني–رحمه الله–(ت: ٢١١ هـ): "لقيت اثنين وســتين شيخًا،... فذكر عددًا منهم ثم قال: كلهم يقولون: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص"(٦)

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام–رحمه الله–(ت: ٢٢٤ هـ): "هذه تسـمية من كان يقول الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص،... فسـمى أكثر من مائة وثلاثين رجلًا من أهل العلم من الصـــحابة وغيرهم.. ثم قال: هؤلاء كلهم يقولون الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وهو قول أهل السنة، والمعمول به عندنا"(٧)

قال الإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية"(٨).

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٧)..

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (٤/ ٧٥١).

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر، (٩/ ٢٣٨).

(٤) رواه ابن هاني في مسائل الإمام أحمد (٢/ ١٦٢) وذكر نحوه الذهبي في السير (٩/ ١٧٩) في ترجمة يحيى بن سعيد.

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (٤/ ٧٤٩).

(٦) رواه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٥/ ٩٥٨ ح: ١٧٣٧).

(٧) رواه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٨١٤ برقم: ١١١٧) وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الإيمان (ص: ٢٩٣–٢٩٥).

(٨) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (٤/ ٧٥٠).

وقال إمام أهل السـنة والجماعة أحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): "أجمع سـبعون رجلاً من التابعين وأئمة المسـلمين وفقهاء الأمصـار على أن السـنة التي توفي عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذكر أموراً منها: الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية"(١)

وقال أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ): "لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصـار فما رأيت أحدًا يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص"(٢)

وقال الإمام البخاري-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ) في صـحيحه: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص"(٣)

وقال عبد الله بن المبارك-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ): "الإيمان قول وعمل، والإيمان يتفاضل"(٤)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وبعضـهم أي: السـلف عدل عن لفظ الزيادة والنقصـان إلى لفظ التفاضـل. فقال أقول: الإيمان يتفاضـل ويتفاوت، ويروى هذا عن ابن المبارك، وكان مقصوده الإعراض عن لفظ وقع فيه النزاع إلى معنى لا ريب في ثبوته"(٥)

وعن **محمد بن أبان-رحمه الله-(ت: ٢٤٤ آو ٢٤٥ هـ)**، قال قلت **لعبد الرحمن بن مهدي-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ)**: الإيمان قول وعمل؟ قال: نعم. قلت: يزيد وينقص؟ قال يتفاضل كلمة أحسن من كلمة"(٦)

---

(١) رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص: ٢٢٨) وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١/ ١٣٠) بلفظ أجمع تسعون...إلخ.

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٤٧)، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٥٦) وعزواه للالكائي في السنة، وصححا إسناده، قلت: وهو في شـرح أصـول اعتقاد أهل السـنة والجماعة للالكائي "المطبوع" (٥/ ٨٨٩ رقم: ١٥٩٧) بنحوه، وليس فيه "ويزيد وينقص"، فلعل هذه اللفظة سقطت من المطبوع، أو أن الحافظ والزبيدي اطلعا على نسخة اشتملت على ما حكياه.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه.

(٤) رواه عبد الله في السنة (١/ ٣١٦) (٦٣١)، واللالكائي في شرح الاعتقاد (٥/ ٩٦١) (١٧٤٦).

(٥) الفتاوى (٧/ ٥٠٦).

(٦) السنة (٣/ ٥٨٠) (١٠٠٥).

المسألة الرابعة: الأقوال المخالفة لقول أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

أولًا: الأقوال في المسألة عمومًا

اختلف الناس في مسألة مسمى الإيمان:

فهناك من قال: "إن الإيمان قول واعتقاد وعمل يزيد وينقص" .[1]

وهناك من قال: "إن الإيمان قول واعتقاد وعمل لكن لا يزيد ولا ينقص" .[2]

وهناك من قال: "إن الإيمان هو المعرفة" .[3]

وهناك من قال: "إن الإيمان قول اللسان" .[4]

وهناك من قال: "إن الإيمان هو التصديق" .[5]

وهناك من قال: "إن الإيمان هو التصديق والقول".[6]

هذه جملة أقوال، والمسألة تحتاج إلى شيءٍ من البيان والتوضيح والبسط.

ثانيًا: الأقوال المخالفة لقول أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

القول الأول: قول من قال الإيمان يزيد وتوقف في النقصان.

جاء عن **الإمام مالك**–رحمه الله–(ت: **١٧٩ هـ**) في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه روايتان، قال في إحداهما: إن الإيمان يزيد أما النقصان فتوقف فيه وطلب من السائل أن يكف عن السؤال عنه، لأنه لم يجد عليه دليلاً من كتاب الله.

أما الرواية الأخرى: فقد جاءت عنه من طرق متعددة صحيحة، قال فيها: إن الإيمان يزيد وينقص، كقول أهل السنة والجماعة سواء[7].

١ انظر كتاب الإيمان للقاسم بن سلام صفحة (١٠) و (٤٤).

٢ انظر كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع صفحة (٤٣)، وكتاب الملل والنحل، الجزء الأول، صفحة (١٤١).

٣ انظر كتاب السنة لعبد الله بن أحمد الجزء الأول صفحة (٣٠٥).

٤ انظر كتاب الإيمان لابن تيمية صفحة (٣٠٣)، وكتاب الرَّوضُ البَاسمْ في الذِّبِّ عَنْ سُنَّةِ أبي القَاسِمِ الجزء الأول، صفحة (٢٤٠).

٥ انظر كتاب رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت صفحة (٢٧٣).

٦ انظر كتاب الفقه الأكبر صفحة (٥٥)، وكتاب لوامع الأنوار البهية الجزء الأول، صفحة (٤١٦).

(٧) انظر: كتاب زيادة الإيمان ونقصانه (ص: ٢٧٧–٢٩٠) وقد ناقش هذا القول بالتفصيل.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وكان بعض الفقهاء من أتباع التابعين لم يوافقوا في إطلاق النقصان عليه. لأنهم وجدوا ذكر الزيادة في القران، ولم يجدوا ذكر النقص، وهذا إحدى الروايتين عن مالك"(١)

القول الثاني: قول من قال الإيمان يزيد ولا ينقص.

وهذا قول طائفة من الأشاعرة، رواية **عن أبي حنيفة–رحمه الله–(ت: ١٥٠ هـ)**، والغسانية، النجارية، الإباضية.

أما قول الطائفة من الأشاعرة: فقد أشار إليه البغدادي في "أصول الدين" فقال: "وأما من قال: إنه التصديق (٢) بالقلب فقد منعوا من النقصان فيه، واختلفوا في زيادته فمنهم من منعها ومنهم من أجازها"(٣)

وأما الرواية عن أبي حنيفة–رحمه الله–(ت: ١٥٠ هـ): أن الإيمان يزيد ولا ينقص، فقد ذكرها غير واحد ممن كتب في المقالات، من طريق غسان وغيره عن أبي حنيفة–رحمه الله–.

قال الأشعري–رحمه الله–(ت: ٣٢٤ هـ): "فأما غسان وأكثر أصحاب أبي حنيفة فإنهم يحكون عن أسلافهم أن الإيمان هو الإقرار والمحبة لله والتعظيم له والهيبة منه وترك الاستخفاف بحقه وأنه يزيد ولا ينقص"(٤).

وقال الزبيدي–رحمه الله–(ت: ١٢٠٥ هـ): "وحكى غسان وجماعة من أصحاب أبي حنيفة أنه يزيد ولا ينقص"(٥)

وأما الغسانية: فقد ذكر **البغدادي–رحمه الله–(ت: ٤٢٩ هـ)** عن الغسانية، وهم أتباع غسان المرجئ أن من أقوالهم إن الإيمان يزيد ولا ينقص، ثم قال: "وزعم غسان هذا في كتابه أن قوله في هذا الكتاب كقول أبي حنيفة"(٦)

---

(١) الفتاوى (٧/ ٥٠٦).

(٢) القول بأن الإيمان هو التصديق هو قول الأشاعرة.

(٣) أصول الدين (ص: ٢٥٢).

(٤) مقالات الإسلاميين (ص: ١٣٩).

(٥) إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٥٦).

(٦) الفرق بين الفرق (ص: ٢٠٣). وانظر: انظر مقالات الإسلاميين للأشعري (ص: ١٣٩)، والتبصير في الدين للإسفراييني (ص: ٩٨)، والفرق بين الفرق للبغدادي (ص: ٢٠٣).

وأما النجارية: فلهم أصــول باطلة جانبوا فيها الحق وفارقوه منها: قولهم إن الإيمان يزيد ولا ينقص، وقد حكى ذلك عنهم غير واحد ممن كتب في مقالات الفرق كالأشعري والإسفراييني والبغدادي وغيرهم. (١)

وأما الأباضـــيه: فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن حميد الســـالمي (ت: ١٣٣٢ هـ) من الأباضـية في كتابه مشـارق أنوار العقول: "الإيمان بالمعنى الشــرعي الذي هو أداء الواجبات مطلقاً ليس ينقص نظراً إلى إيمان كل مؤمن، فإنه في ذاته غير متفاوت بالنســـبة إلى إيمان غيره" (٢)

القول الثالث: قول من قال الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

لقد قال بهذا القول طوائف كثيرة من أهل الكلام والإرجاء، والتجهم، وممن نسـب له هذا القول:

أبو حنيفة وأصحابه:

لقد اشتهر عن الإمام أبي حنيفة-رحمه الله تعالى وغفر له-أنه يقول بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، واسـتفاض هذا عنه، بحيث لا يدع مجالاً للشـك أو التردد في نسـبته إليه، ويمكن أن أبرز أهم الأسباب المؤكدة لصحة نسبة هذا القول إليه في النقاط التالية:

١-إن عامة كتب الفرق والمقالات تنســـب هذا القول إليه، كالمقالات لأبي الحســـن الأشعري، والفَرْق بين الفِرَق للبغدادي، والمِلَلْ والنِحَلْ للشهرستاني، وغيرها. (٣)

٢-إن الكتب المؤلفة في العقيدة والمنسوبة إلى أبي حنيفة رحمه الله تذكر هذا القول، كالفقه الأكبر، وكتاب العالم والمتعلم، والوسيطين الصغير والكبير والوصية ورسالته إلى البتي. (٤)

وهذه الكتب إن لم يصح نسبتها جميعاً إليه، فلا بد أن يصح نسبة بعضها أو واحد منها على أقل تقدير إليه، وعلى كل إن لم يصح لا هذا ولا ذاك فإن هذه الكتب مطبوعة متداولة،

(١) انظر مقالات الإســلاميين (ص: ١٣٦) والتبصــير في الدين (ص: ١٠١)، والفرق بين الفرق (ص: ٢٠٨) والفتاوى لابن تيمية (٧/ ٥٤٦).

(٢) مشارق الأنوار (ص: ٣٥-٣٦).

(٣) المقالات (ص: ١٣٩)، الفَرْق بين الفِرَق (ص: ٢٠٣)، ونقله عنه الزبيدي في الإتحاف (٢/ ٢٦٥)، الملل والنحل (١/ ١٤١).

(٤) انظر: فيض الباري للكشميري (١/ ٥٩).

وقد احتفى بها الأحناف شـرحاً ونشـراً ونقلاً، فهي عند عامتهم مسـلم بما فيها، وقد شـرح بعضها شروح مطولة عديدة، ونقل منها نقولٌ متكاثرة، واعتمد على ما فيها من عقائد. (١)

ومن قال بهذا القول: الجهمية.

ومن مقولاتهم الفاسـدة وآرائهم المنحرفة زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضـل أهله فيه.

قال الأشـعري–رحمه الله–(ت: ٣٢٤ هـ): "وزعمت الجهمية أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه"(٢)

وقال الشـهرسـتاني–رحمه الله–(٥٤٨ هـ): "قال أبي الجهم: والإيمان لا يتبعض أي لا ينقسـم إلى عقد وقول وعمل، قال: ولا يتفاضـل أهله فيه، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد، إذ المعارف لا تتفاضل"(٣)

وجهم وأتباعه إنما قالوا بهذا القول لأن الإيمان عندهم مجرد التصـديق، فمن صـدق بقلبه فهو عندهم مؤمن كامل الإيمان وإن تكلم بالكفر، وسـب الله ورسـوله صـلى الله عليه وسـلم وسخر بالدين، وأحل المحرمات، وفعل غير ذلك من الأمور التي هي كفر بواح.

والتصديق عندهم يتساوى فيه العباد، ولا يقبل الزيادة والنقصان فهو إما أن يعدم وإما أن يوجد، ولا يقبل التبعض، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، ولا يتفاضل الناس فيه، فإيمان الملائكة والأنبياء والصديقين وإيمان فساق الأمة وأهل الخنا والفجور سواء"(٤)

ومن قال بهذا القول: الخوارج والمعتزلة:

ذهبت الخوارج والمعتزلة مذهب أهل السنة والجماعة في تعريف الإيمان من حيث إنه شامل للأعمال والأقوال والاعتقادات، إلا أنهم فارقوا أهل السـنة والجماعة بقولهم إن الإيمان كل واحد لا يتجزأ إذا ذهب بعضه ذهب كله، وأنه لا يقبل التبعض.

ومن هنا كان الإخلال بالأعمال وارتكاب الكبائر عندهم مخرجاً من الإيمان كلية، على

(١) انظر كتاب زيادة الإيمان ونقصانه (ص: ٣١٨-٣١٩).
(٢) المقالات (ص: ١٣٢).
(٣) الملل والنحل (١/ ٨٨).
(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٥٨٢).

خلاف بينهم في تسـميته كافراً، فالخوارج قطعوا بكفره، ونازعهم المعتزلة في الاسـم وقالوا نحن لا نســـميه مؤمناً ولا كافراً، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين أي: بين منزلة الإيمان والكفر، وإن كانوا قد اتفقوا جميعاً أنه يوم القيامة خالد مخلد في نار جهنم. (١)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "قالت الخوارج والمعتزلة قد علمنا يقينًا أن الأعمال من الإيمان فمن تركها فقد ترك بعض الإيمان، وإذا زال بعضه زال جميعه؛ لأن الإيمان لا يتبعض ولا يكون في العبد إيمان ونفاق، فيكون أصـحاب الذنوب مخلدين في النار إذ كان ليس معهم من الإيمان شيء"(٢)

وأصل غلط هؤلاء ومنشأ ضلالهم كما **قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**: "أنهم ظنوا أن الشـخص الواحد لا يكون مسـتحقًا للثواب والعقاب والوعد والوعيد والحمد والذم، بل إما لهذا وإما لهذا فأحبطوا جميع حســـناته بالكبيرة التي فعلها، وقالوا: "الإيمان هو الطاعة فيزول بزوال بعض الطاعة، ثم تنازعوا هل يخلفه الكفر على القولين ووافقتهم المرجئة والجهمية على أن الإيمان يزول كله بزوال شـيء منه، وأنه لا يتبعض ولا يتفاضـل فلا يزيد ولا ينقص وقالوا إن إيمان الفساق كإيمان الأنبياء والمؤمنين"(٣)

فهذه الشبهة هي التي أفسـدت على هؤلاء قولهم، بل وعلى جميع المرجئة، كما قال شيخ الإسـلام: "وإنما أوقع هؤلاء كلهم أي المرجئة بأقسـامهم–ما أوقع الخوارج والمعتزلة في ظنهم أن الإيمان لا يتبعض، بل إذا ذهب بعضـه ذهب كله، ومذهب أهل السـنة والجماعة أنه يتبعض وأنه ينقص ولا يزول جميعه"(٤)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وجماع شـــبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشـــرة فإنه إذا زال بعضـــها لم تبق عشـــرة، وكذلك الأجســـام كالســـكنجبين(٥) إذا زال أحد جزئيه خرج عن كونه ســـكنجبين، قالوا فإذا كان الإيمان مركبًا

---

(١) انظر الفتاوى (٧/ ٢٢٣، ٢٥٧) وشرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية (ص: ١٣٧).

(٢) الفتاوى (١٣/ ٤٨).

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٣٧، ١٣٨)، وانظر الفتاوى (٧/ ٤٠٤).

(٤) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٤٣، ١٤٤).

(٥) السكنجبين: شراب مركب من حامض وحلوا–معرب–فارسيته: سركا انكبين انظر المعجم الوسيط (١/ ٤٤٠).

من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها"(١)

ومن قال بهذا القول: الأشاعرة والماتريدية:

لقد ذهب جمهور الأشاعرة وجميع الماتريدية إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لشبه عقلية وأدلة نظرية، وذهب بعض الأشاعرة إلى أن الإيمان يزيد وينقص"(٢)

قال الزبيدي–رحمه الله–(ت: ١٢٠٥ هـ): "وقال أبو حنيفة وأصحابه لا يزيد الإيمان ولا ينقص واختاره أبو منصور الماتريدي ومن الأشاعرة إمام الحرمين وجمع كثير"(٣)

وقال ابن أبي شريف الحنفي–رحمه الله–(ت: ٩٠٦ هـ): "وهذا القول–أي أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص–اختاره من الأشاعرة أمام الحرمين وجمع كثير، وذهب عامتهم أي أكثر الأشاعرة إلى زيادته ونقصانه"(٤)

وقال الفرهاري–رحمه الله–(ت: ١٢٣٩ هـ): "مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله والمتكلمين من أهل السنة أنه لا يزيد ولا ينقص"(٥).

فالماتريدية لهم قول واحد في المسألة وهو أن الإيمان غير قابل للزيادة والنقصان، وأما الأشاعرة فلهم في المسألة قولان: فجمهورهم على أنه لا يقبل الزيادة والنقصان، وذهب بعضهم إلى أنه يقبلهما، والأشاعرة يعرفون الإيمان بأنه التصديق وحده، فلا يدخل فيه القول والعمل، فبحثهم هنا هو في التصديق هل يقبل الزيادة والنقصان أو لا؟

فالذين قالوا لا يزيد ولا ينقص فبناء على أن الإيمان هو التصديق اليقيني الغير قابل للتفاوت، فإن نقص فنقصه شك وكفر، ولشبه أخرى.

ومن قال منهم يزيد وينقص فللقطع بأن تصديق آحاد الأمة ليس كتصديق النبي صلى الله

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥١١).

(٢) انظر شرح مسلم للنووي (١/ ١٤٨)، وفتح الباري لابن حجر (١/ ٤٦)، وعمدة القاري للعيني (١/ ١٣٦) وتحفة القاري "للكاندهلوي" (ص: ٤٤) مجموع "شروح البخاري" (١/ ١١٢)، النبراس شرح العقائد (ص: ٤٠٢)، المسامرة شرح المسايرة (ص: ٣٦٧)، أصول الدين للبغدادي (ص: ٢٥٢)، وأصول الدين للبزدوي (ص: ١٥٣)، والاقتصاد للغزالي (ص: ٢٠٨)، والمواقف للإيجي (ص: ٣٨٨)، والإنصاف للباقلاني (ص: ٨٦)، والإرشاد للجويني (ص: ٣٣٥) وغيرها.

(٣) إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٥٦).

(٤) المسامرة (ص: ٣٦٧).

(٥) النبراس شرح العقائد (ص: ٤٠٢).

عليه وسـلم، واختاره النووي وعزاه التفتازاني في شـرح العقائد لبعض المحققين وقال في المواقف إنه الحق(١)

المسألة الخامسة: ثمرة الخلاف في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

فمســـائل الأسماء لها تناول معين لدى الفرق، ومســـائل الأحكام لها تناول معين لدى الفرق، وهذه مسـائل يطول شـرحها لكن لعل ما أشـرنا إليه يُبين ما مدى صـفاء عقيدة أهل الســـنة وأن والإيمان عندهم قولٌ واعتقادٌ وعمل يزيد وينقص، زيادته بالطاعات ونقصـــانه بالمعاصي.

وزيادة الإيمان ونقصـــانه أمر يراه الإنســـان من نفســـه، فقد يكون حاله اليوم من الإيمان أحســـن من حاله في الأمس، أو قد يكون حاله في الأمس أحســـن من حاله في هذا اليوم، فالإيمان فيه زيادة ونقص، فيزيد إلى ما شـــاء الله، وينقص أحياناً حتى يزول هذا الإيمان ولا يبقى منه شيء، ويُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافرا.

والقول إن الإيمان يزيد وينقص في اعتقاد أهل الســنة والجماعة، يترتب عليه أمور كثيرة في مسائل الأحكام، فهذه المسألة مرتبطة بمسألتين:

الأولى: حكم مرتكب الكبيرة.

فالقول بزيادة الإيمان ونقصـانه له تعلق بمسـألة حكم مرتكب الكبيرة، فأهل السنة لا يرون تكفير مرتكب الكبيرة دون الشـرك الأكبر، ويقولون إن صـاحب الكبيرة مؤمن بإيمانه فاسـق بمعصيته فلا يسلبون عنه اسم الإيمان بالكلية.

والمسألة الثانية: مسألة مراتب الدين.

أي ما يتعلق بدخول الإنســـان إلى هذا الدين متى ينتقل في مراتب الدين؛ لأن مراتب الدين ثلاثة: الإســـلام، الإيمان، الإحســـان، فهي عبارة عن ثلاث دوائر أول دائرة فيه هي الإســـلام، ثم هناك دائرة أضـــيق منها هي الإيمان، ويعني هذا الضـــيق أن من هو مؤمن هو مسـلم، ولكن ليس بالضـرورة من كان مسـلماً أن يكون مؤمنا، ثم تأتي الدائرة الأضـيق هي دائرة الإحسان؛ لأن الإحسان فحواه ومعناه أن تُتقن الظاهر والباطن.

---

(١) انظر شـرح مسـلم للنووي (١/ ١٤٢) وشـرح العقائد النسـفية للتفتازاني (ص: ١٢٦) والمواقف للأيجي (ص: ٣٨٨) وانظر إرشـاد الساري للقسطلاني (١/ ١١٢) ضمن مجموع شروح البخاري.

فعندما أقول أحســنت بمعنى أتقنت فالإحســان إتقان الظاهر والباطن، فإذا أُتقن الظاهر والباطن فهذه مرتبة عليا، فكل مسـلم مؤمن مسـلم، ولكن ليس كل مؤمن محسـن، قد يكون محسن وقد لا يكون محسنا، فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة في هذه المسألة.

كما أنه مرتبط بتفاضــل الناس في إيمانهم وتفاضــل درجاتهم في الآخرة إلى غير ذلك من المسائل ذات الصلة.

المسألة السادسة: مسألة الاستثناء في الإيمان.

أ–الاستثناء في اللغة:

بمعنى المنع والصرف، وأصل الاستثناء مأخوذ من الثني، وهو ردُّ الشيء بعضه على بعض. والثني العطف، وكل شيء عطفته فقد ثنيته؛ كما يطلق الثني على تكرير الشّيء مرّتين، أو جعلُه شيئين متواليَين أو متباينين، ومن ذلك عدد الاثنين. والاستثناء يشمل أمرين:

١ ـ الاستثناء الوضعي، وهو الذي يكون بأداة الاستثناء، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [العصر: الآيات: ٢–٣]

٢ ـ الاستثناء العرفي، وهو ما لم يكن بأداة الاستثناء، بل يكون الموجود كلمة الشرط، كما جاء في قوله تعالى: ﴿...**إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ***﴾ [القلم: الآيات: ١٧–١٨]؛ أي: لا يقولون: إن شاء الله. (١). ومنه قول القائل: لأفعلن كذا إن شاء الله، أو: أنا مؤمن إن شاء الله"(٢).

ب–تعريف الشرعي للاستثناء في الإيمان:

الاســـتثناء في الإيمان هو: أن يُعَلِّق الشـــخص إيمانه على ما لا يدل على الجزم والقطع بكمال الإيمان؛ كأن يعلقه على مشـيئة الله، فيقول: أنا مؤمن إن شـاء الله، أو: مؤمن أرجو، ونحو ذلك، فلا يقطع بكمال الإيمان لنفسه. (٣)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الاستثناء أن يقول: أنا مؤمن إن شـاء الله، أو مؤمن أرجو، أو آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسـله، أو إن كنت تريد الإيمان الذي يعصـم

(١) انظر: تفسير البغوي (١٩٥/٨) [دار طيبة، ط١، ١٤١٧هـ].

(٢) انظر: مقاييس اللغة (٣٩١/١) [دار الجيل، ط٢]، ولسان العرب (١١٥/١٤ ـــ ١٢٥) [دار صادر، ط١]، والكليات للكفوي (٩١)، وبدائع الصنائع للكاساني (١٥٣/٣ ـ ١٥٤) [دار الكتاب العربي، ط٢].

(٣) انظر: بيان اللجنة الدائمة للإفتاء، فتوى رقم (٢١٤٣٦)، صادرة بتاريخ (٨/٤/١٤٢١هـ)..

دمي فنعم، وإن كنت تريد ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: الآية: ٢] فالله أعلم"(١).

وقال ابن أبي العز –رحمه الله–(ت: ٧٩٢ هـ): "الاستثناء في الإيمان،... هو: أن يقول أي: الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله" (٢).

ج–العلاقة بين المعنى اللغوي والشرعي:

المعنى الشرعي للاستثناء في الإيمان مندرج تحت عموم المعنى اللغوي للثني، وهو الرجوع والتكرار، فبعد أن أقر القائل لنفسه بالإيمان بقوله: "أنا مؤمن"، انثنى ورجع ليعلق ذلك الإقرار بأمر آخر، وهو مشيئة الله، فيقول: "إن شاء الله".

وهذا مندرج تحت المعنى الثاني من المعاني اللغوية، وهو الاستثناء العرفي الذي يعلق فيه الأمر على مشيئة الله بغير أداة الاستثناء.

حكم الاستثناء في الإيمان عند أهل السُّنَّة(٣):

الاستثناء في الإيمان له حالتان:

الحالة الأولى: إذا أريد كمال الإيمان: يكون الاستثناء مشروعًا.

وذلك لما يلي:

١ ـ أن الإيمان الكامل يشمل فعل كل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه، ولا يدعي أحد أنه جاء بذلك كله على التمام والكمال.

٢ ـ أن الإيمان النافع هو المتقبل عند الله، والإنسان لا يدري؛ أتقبل الله منه أم لا، فلذلك صح له أن يستثني.

٣ ـ البعد عن تزكية النفس.

٤ ـ أن الإيمان الكامل يقتضي دخول الجنة، والإنسان لا يدري بما يختم له (٤)، فيستثني

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/٦٦٦).

(٢) شرح الطحاوية (٣٩٥)، وانظر: السُّنَّة لعبد الله بن أحمد (١/٣٤٧) [دار ابن القيم، ط١، ١٤٠٦هـ].

(٣) هذا المبحث مستفاد من موسوعة العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة مبحث (الاستثناء في الإيمان).

(٤) انظر حول التعليل بعدم العلم بالخاتمة: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/٤٢).

لعدم العلم بالعاقبة. (١)

الحالة الثانية: إن أريد أصل الإيمان، فلا يخلو ذلك من حالتين:

١ ـ إن كان الاستثناء على جهة الشك: فإنه لا يجوز. سئل الإمام أحمد رحمه الله: يستثنى في الإيمان؟ قال: "نعم، أقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أستثني على اليقين لا على الشك"(٢)

٢ ـ وأما إن كان الاستثناء من باب أنه يجوز في الأمور المتحققة المتيقنة ذكر مشيئة الرب، لا على جهة الشك في أصل الإيمان، بل لأن الأمور كلها إنما تكون بمشيئة الرب؛ فإن الاستثناء جائز.

قال ابن تيمية رحمه الله: "وأما جواز إطلاق القول بأني مؤمن، فيصح إذا عنى أصل الإيمان دون كماله، والدخول فيه دون تمامه"(٣)

وقال: "ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال: أنا مؤمن، بلا استثناء، إذا أراد ذلك. يعني: أصل الإيمان، لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق الكامل، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه... فعلم أن أحمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون في وجود ما في القلب من الإيمان في هذه الحال، ويجعلون الاستثناء عائدًا إلى الإيمان المطلق المتضمن فعل المأمور، ويحتجون أيضًا بجواز الاستثناء فيما لا يشك فيه، وهذا مأخذ ثان وإن كنا لا نشك فيما في قلوبنا من الإيمان"(٤)

الأدلة:

أ ـــ جزم المرء بالإيمان الكامل لنفسه هو من تزكية النفس، ومما يدل على مشروعية البعد عن تزكية النفس ما يلي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿**فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى** *﴾ [النجم: الآية: ٣٢].

---

(١) انظر حول التعليل بعدم العلم بالعاقبة: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/٢٨٩)، وحول هذا الوجه وبقية الوجوه انظر: الشرح والإبانة (المسمى بالإبانة الصغرى) لابن بطة (١٧٩ ـــ ١٨١) [مكتبة العلوم والحكم، ط١، ١٤٢٣هـــ]، والرسالة الواضحة في الرد على الأشاعرة لابن الحنبلي (٢/٨١٤ . ٨١٥) [مجموعة التحف النفائس الدولية، ط١، ١٤٢٠هـ]، والانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٣/٧٨١ ـــ ٧٩٢) [دار أضواء السلف، ط١]، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٤٩٦)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (٣٩٨) [المكتب الإسلامي، ط٤].

(٢) السُّنَّة للخلاّل (٣/٥٩٦) [دار الراية، ط١، ١٤١٠هـ]..

(٣) مجموع الفتاوى (٧/٦٦٩)..

(٤) المصدر نفسه (٧/٤٤٩ . ٤٥٠)..

٢ ــ وقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء: الآية: ٤٩].

وليس هناك تزكية للنفس أعظم من الشهادة لها بالإيمان الكامل.

٣ ـــ ويشهد لهذا ما جاء **عن ابن مسعود**–**رضي الله عنه**–(**ت: ٣٢ هـ**) عندما قال رجل عنده: "أنا مؤمن"، فقال له ابن مســـعود: "أفأنت من أهل الجنة؟" قال: "أرجو"، قال ابن مسعود: "أفلا وكلت الأولى كما وكلت الأخرى"(١)

٤ ـ الإجماع، فإن الاستثناء في الإيمان ـ إذا أريد به كماله ـ هو مذهب جماهير السلف، بل هم مجمعون على مشروعيته في هذه الحال.(٢)

يقول **يحيى بن سعيد القطان**–**رحمه الله**–(**ت: ١٩٨ هـ**): "ما أدركت أحدًا من أصحابنا إلا على الاستثناء"(٣)

ب ــ ومما يدل على أن الإيمان إذا أريد به أصله فإن الإنسان لا يستثني باعتبار الشك في الأصــــل مــا يلي: قولـه تعــالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: الآية: ١٣٦].

فأمر المؤمنين بالإقرار بالإيمان، ولم يذكر الاســـتثناء؛ لأن ما ذكر في الآية هي أصـــول الإيمان، فهي مما يجب أن يجزم الإنسان به لنفسه من دون شك.

ج ـــــ ومما يدل على أن الاســـتثناء يجوز في الأمور المتحققة المتيقنة قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ**﴾ [الفتح: الآية: ٢٧]، فذكر الله الاستثناء، مع أن دخولهم للمسجد الحرام شيء مستيقن. (٤)

---

(١) أخرجه أبو عبيد في الإيمان (٣٥) [مكتبة المعارف، ط١]، والآجري في الشريعة (٢/٦٦٥) [دار الوطن، ط٢].

(٢) انظر: السُّنَّة لعبد الله بن أحمد (١/٣٤٧)، والإبانة لابن بطة (٢/٨٧٣) [دار ابن القيم، ط١، ١٤٠٦هـ]، وشعب الإيمان للبيهقي (١/٢١٢)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٤٣٨، ٤٣٩، ٥٠٥، ٦٦٦). وقد عدد اللالكائي أسماء من روي عنهم الاستثناء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، كما في: شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٥/١٠٤٧).

(٣) رواه الخلال في السُّنَّة (٣/٥٩٥).

(٤) انظر: الإيمان لأبي عبيد (٣٨ ـ ٣٩)، والسُّنَّة للخلال (٣/٥٩٤)، مجموع الفتاوى (٣/٢٨٩) و(٧/٤٢٩ ـ ٤٦٠)، وشرح العقيدة الطحاوية (٢/٤٩٤ ـ ٤٩٦) [مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١١هـ].

أقوال العلماء

عن **عبد الله بن مسـعود**-رضـي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال: "ومن لم يعلم من يؤمن بالله حقاً فلا يقول: أنا مؤمن حقاً، ولكن ليقل: أرجو أن أكون مؤمناً"(١)

عن أبي الدرداء-رضـــي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال: "اللهم اغفر لي ظلمي وكفري" فقال له قائل: يا أبا الدرداء، هذا كفر؟ قال: "نعم، كل من عصى الله فقد كفر"(٢)

عن عائشـــة-رضـــي الله عنها-(ت: ٥٧ هـ)، قالت: "لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا مؤمن، ولكن ليقل: أرجو أن أكون من المؤمنين"(٣)

عن ســعيد بن جبير-رحمه الله-(ت: ٩٥ هـ)، قال: "إن الإيمان يزيد وينقص، فليقل أحدكم: أنا مؤمن إن شاء الله"(٤)

عن مجاهد-رحمه الله-(ت: ١٠٤ هـ)، قال: "الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ولا ينبغي لأحد أن يقول: أنا مؤمن حقاً"(٥)

عن مكحول-رحمه الله-(ت: ١١٣ أو ١١٤ هـ)، قال: "الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ولا ينبغي لأحد أن يقول: أنا مؤمن حقاً، ولكن ليقل: أرجو أن أكون مؤمناً"(٦)

عن الحسـن البصـري-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ)، قال: "لا أقول إنني مؤمن حقاً، ولا كافر حقاً، ولكني أرجو أن أكون من المؤمنين وأخاف أن أكون من الكافرين"(٧)

وسأل رجل الحسـن البصـري-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ)، فقال: يا أبا سعيد، أمؤمن أنت؟ فقال له: "الإيمان إيمانان:

فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب: فأنا به مؤمن.

(١) "صحيح البخاري"، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "بني الإسلام على خمس"
(٢) "مصنف ابن أبي شيبة"، ج ٧، ص ٦٤.
(٣) "التمهيد" لابن عبد البر، ج ٩، ص ٢٣٩.
(٤) "الإبانة الكبرى" لابن بطة، ج ٢، ص ٨٤٥.
(٥) "مصنف ابن أبي شيبة"، ج ٦، ص ١٢٧.
(٦) "التمهيد" لابن عبد البر، ج ٩، ص ٢٤٢.
(٧) "الإبانة الكبرى" لابن بطة، ج ٢، ص ٨٤٤.

وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *﴾ [الأنفال: الآيات ٢-٤] فوالله ما أدري أنا منهم أم لا"(١)

عن الإمام الأوزاعي-رحمه الله-(ت: ١٥٧ هـ)، قال: "من قال أنا مؤمن حقاً فهو من الكاذبين، ومن قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكافرين، ومن قال أنا مؤمن إن شاء الله فقد وفق"(٢)

عن سفيان الثوري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)، قال: "من قال أنا مؤمن حقاً فهو من الكاذبين، ومن قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكافرين، ومن قال أنا مؤمن إن شاء الله فقد وفق"(٣)

عن الليث بن سعد-رحمه الله-(ت: ١٧٥ هـ)، قال: "لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا مؤمن حقاً، ولكن ليقل: أرجو أن أكون من المؤمنين"(٤)

عن الإمام مالك بن أنس-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)، قال: "الاستثناء في الإيمان ليس بشك، ولكنه من التواضع والورع"(٥)

عن الإمام الشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ)، قال: "من استثنى في إيمانه فقد أصاب، ومن لم يستثن لم يخطئ"(٦)

عن الإمام أحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، قال: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ولا يقول أنا مؤمن حقاً، ولكن يقول: أرجو أن أكون مؤمناً"(٧)

(١) تفسير القرطبي (٣٦٧/٧) [دار الشعب].
(٢) "سير أعلام النبلاء" للذهبي، ج ٧، ص ١٢٠.
(٣) "الإبانة الكبرى" لابن بطة، ج ٢، ص ٨٤٨..
(٤) "مصنف ابن أبي شيبة"، ج ٦، ص ١٢٨.
(٥) "التمهيد" لابن عبد البر، ج ٩، ص ٢٣٨.
(٦) "السنن الكبرى" للبيهقي، ج ٦، ص ٣٧٠.
(٧) "السنة" للخلال، ج ١، ص ٢٨٨.

وقال الآجري–رحمه الله–(ت: ٣٦٠ هـ): "من صـــفة أهل الحق، ممن ذكرنا من أهل العلم الاستثناء في الإيمان، لا على جهة الشك ــــ نعوذ بالله من الشك في الإيمان ــــ ولكن خوف التزكية لأنفسهم من الاستكمال للإيمان، لا يدري أهو ممن يستحق حقيقة الإيمان أم لا؟ وذلك أن أهل العلم من أهل الحق إذا سـئلوا: أمؤمن أنت؟ قال: آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والجنة والنار وأشباه هذا، فالناطق بهذا والمصدق بقلبه مؤمن، وإنما الاســـتثناء في الإيمان، لا يدرى أهو ممن يســـتوجب ما نعت الله به المؤمنين من حقيقة الإيمان أم لا؟ هذا طريق الصحابة والتابعين لهم بإحسان، عندهم أن الاستثناء في الأعمال لا يكون في القول والتصديق في القلب، وإنما الاستثناء في الأعمال الموجبة لحقيقة الإيمان"(١).

قال الإمام ابن تيمية–رحمه الله–: "من قال: أنا مؤمن إن شـــاء الله، يخرج به عن دعوى الإيمان المطلق، كما أن من قال: أنا عالم إن شـاء الله، كان أدباً مع الله؛ لأن العلم المطلق هو ما لا يدخله شك ولا نقص، وكذلك الإيمان المطلق"(٢).

قال الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "الاســـتثناء في الإيمان ليس بشـــك، ولكنه من التواضع والورع"(٣)

المسائل المتعلقة

المسألة الأولى: حكم قول الرجل لغيره: أمؤمن أنت؟

لقد أنكر الســـلف ســـؤال الرجل لغيره: أمؤمن أنت، بل عدُّوا ذلك الســـؤال من البدع والتعمق والتكلف، والإيمان القائم بالإنسان علمه عند الله، فمن شـهد لنفسه بالإيمان لم تكن شـهادته موجبة له أن يدخل الجنة، كما أن من لم يشـهد لنفسـه بالإيمان الكامل لم يكن تركه لتلك الشهادة موجبًا له أن لا يدخلها. (٤)

قال إبراهيم النخعي–رحمه الله–(ت: ٩٦ هـ): "ســـؤال الرجلِ الرجلَ: أمؤمن أنت؟

---

(١) الشريعة للآجري (٢/٦٥٦ ـ ٦٥٧).

(٢) "مجموع الفتاوى"، ج ٧، ص ٣٥٢.

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج ٧، ص ١٢١.

(٤) انظر: الشريعة للآجري (٢/٦٧٣ ـ ٦٧٤).

بدعة"[١]

وقيل للإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "إذا ســألني الرجل: أمؤمن أنت؟ قال: سؤاله إياك بدعة، لا يشك في إيمانك، أو قال: لا نشك في إيماننا"[٢].

وقال سفيان بن عيينة–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ): "إذا سئل أمؤمن أنت؟ إن شاء لم يجبه، ويقول: سؤالك إياي بدعة، ولا أشك في إيماني"[٣].

ووجه كراهة الســلف لهذا الســؤال: أنه قد جاء من قِبَل المرجئة؛ فقد ســأل رجلٌ الإمامَ أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ)، فقال له: "قيل لي: أمؤمن أنت؟" قلت: نعم، هل عليَّ في ذلك شيء؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر؟ فغضب الإمام أحمد، وقال: هذا كلام الإرجاء، وقال الله عزّ وجل: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية: ١٠٦]، من هؤلاء؟ ثم قال أحمد: أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قال الرجل: بلى، قال: فجئنا بالقول؟ قال: نعم، قال: فجئنا بالعمل؟ قال: لا. قال: فكيف تعيب أن يقول: "إن شاء الله» ويستثني؟"[٤].

المسألة الثانية: في حكم من قال: «أنا مؤمن إن شاء الله» على جهة الشك:

حسب ما تقدم من تفصيل، فإن من استثنى قاصدًا الشك ففيه تفصيل:

أ ـــ إن قصد الشك في أصل الإيمان، فهذا محرم، وقد يخرج به صاحبه عن الديانة.

ب ـــ وإن كان قاصدًا الشك في كمال الإيمان، فالاستثناء هنا مشروع، وتقدم تفصيل ذلك وبيان علته. [٥].

المسألة الثالثة: في حكم من قال: "أنا مؤمن كامل الإيمان" ولم يستثن:

من أثبت لنفسه كمال الإيمان بدون استثناء فقد وقع في المحظور، ويخشى عليه الإثم لوقوعه في تزكية النفس المنهي عنها في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: الآية: ٣٢]"[٦].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١١/٣٨) [مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٩هـ]، وعبد الله بن أحمد في السُّنَّة (١/١٤١)، والآجري في الشريعة (٢/٦٧١).

(٢) انظر: السُّنَّة للخلال (٣/٦٠١)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٤٤٨).

(٣) السُّنَّة للخلال (٣/٥٩٧)، وانظر: الشريعة للآجري (٢/٦٧٣ ـ ٦٧٤)، الإبانة لابن بطة (٢/٨٨٣).

(٤) السُّنَّة للخلال (٣/٥٩٧)، وانظر: الشريعة للآجري (٢/٦٧٣ ـ ٦٧٤)، الإبانة لابن بطة (٢/٨٨٣)

(٥) انظر: السُّنَّة للخلال (٣/٥٩٦) [دار الراية، ط١، ١٤١٠هـ]، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٦٦٩).

(٦) انظر: مجموع الفتاوى (٧/٦٦٩).

قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "لا نجد بدًّا من الاســتثناء؛ لأنه إذا قال: "أنا مؤمن" فقد جاء بالقول، فإنما الاستثناء بالعمل لا بالقول"(١).

وقال الإمام أبو عبيد القاســـم بن ســـلاّم–رحمه الله–(ت: ٢٢٤ هـ): "وكذلك نرى مذهب الفقهاء الذين كانوا يتسمون بهذا الاسم ــ يعني: الإيمان ــ بلا استثناء، فيقولون: نحن مؤمنون... إنما هو عندنا منهم على الدخول في الإيمان، لا على الاســـتكمال... فأما على مذهب من قال: «كإيمان الملائكة والنبيين» فمعاذ الله، ليس هذا طريق العلماء"(٢).

وقال الإمام ابن بطة العكبري–رحمه الله–(ت: ٣٨٧ هـ): "فهذه ســـبيل المؤمنين، وطريق العقلاء من العلماء، لزوم الاستثناء والخوف والرجاء، لا يدرون كيف أحوالهم عند الله، ولا كيف أعمالهم، أمقبولة هي أم مردودة... فهل يجوز لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يجزم أن أعماله الصالحة من أفعال الخير وأعمال البر كلها مرضيَّة، وعنده زكيَّة، ولديه مقبولة؟! هذا لا يقدر على حتمه وجزمه إلا جاهل مغتر بالله، نعوذ بالله من الغرة بالله، والإصـــرار على معصية الله"(٣).

المسألة الرابعة: الاستثناء في الإسلام:

المشــهور عند أهل السُّــنَّة والجماعة؛ كالإمام أحمد بن حنبل وغيره هو عدم الاســتثناء في الإســلام فيقول أحدهم: أنا مســلم ولا يســتثني، هذا هو الأصــل عندهم في هذه المســألة، بخلاف الإيمان، فالغالب عندهم فيه الاستثناء كما تقدم. (٤).

سئل الإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) عن الاستثناء في الإيمان، فقال: "نحن نذهب إلى الاستثناء"، فقيل له: فأما إذا قال: أنا مسلم فلا يستثني؟ فقال: "لا يستثني إذا قال: أنا مســـلم، قال الزهري: نرى الإســـلام الكلمة، والإيمان العمل"(٥).. إلا أن الإمام أحمد قد تعددت عنه الروايات في ذلك:

---

(١) رواه الخلال في السُّنَّة (٣/٦٠١).

(٢) الإيمان لأبي عبيد (٤٠ ـ ٤١).

(٣) الإبانة لابن بطة (٢/٨٧٢ ـ ٨٧٣).

(٤) انظر: الفرقان بين الحق والباطل ضــمن مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/٤٣) [مكتبة ابن تيمية، ط٢]، والتحبير شــرح التحرير للمرداوي (٢/٥٣١) [مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢١هـ]، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/٤٣٨) [مؤسسة الخافقين، ط٢].

(٥) الشرح والإبانة (المسمى بالإبانة الصغرى) لابن بطة (٢/٨٧٦).

فالرواية الأولى: منع الاستثناء في الإسلام، وهي الرواية المشهورة عنه. (١)

ومما يستدل به على ذلك:

١ ـــ أن نصوص الشريعة قد دلّت على الشهادة للنفس بالإسلام بدون ذكر الاستثناء، ومن ذلك:

ـــ قوله: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾ [الحجرات: الآية: ١٤]، **قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**: "وهذه الآية ـ يعني: آية الحجرات السالفة ـــ مما احتج بها أحمد بن حنبل وغيره على أنه يُستثنى في الإيمان دون الإسلام... **قال الميموني–رحمه الله–(ت: ٢٧٤ هـ)**: سألت أحمد بن حنبل عن رأيه في: أنا مؤمن إن شاء الله، فقال: أقول: مؤمن إن شاء الله، وأقول: مسلم ولا أستثني، قال: قلت لأحمد: تُفَرِّق بين الإسلام والايمان؟ فقال لي: نعم، فقلت له: بأيِّ شيء تحتج؟ قال لي: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾ [الحجرات: الآية: ١٤]"(٢)

٢ ـــ أن كل من نطق بالشهادتين صار مسلمًا، متميزًا عن سائر الكافرين، تجري عليه أحكام المسلمين، وهذا أمر لا شك في تحققه عند جميع المسلمين، فجُزم به بلا استثناء. (٣)

والرواية الثانية: تجويز الاستثناء في الإسلام. (٤)

وليس بين هاتين الروايتين تعارض، وبيان ذلك:

أن الإسلام له إطلاقان عند الإمام أحمد:

الإطلاق الأول: أن يراد بالإســلام: الكلمة. وهذا الإطلاق مشـــهور **عن ابن شـــهاب الزهري–رحمه الله–(ت: ١٢٣ أو ١٢٤ هـ)**. والمراد بالكلمة: الشهادتان. (٥)

وعليه؛ فـــ"يكون مراد الزهري أن المرء يُحكم بإسلامه ويسمى مسلمًا إذا تلفظ بالكلمة؛

(١) الإيمان لابن منده (٣١١/١) [مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٦هـــ]، والسُّنَّة للخلال (٦٠٤/٣)، والإبانة الصغرى لابن بطة (٨٧٦/٢)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٣/٧) و(٤٣/١٣).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٥٣/٧)..

(٣) انظر: الإيمان الكبير ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤١٥/٧)، زيادة الإيمان ونقصانه لعبد الرزاق البدر (٤٩٥ ــ ٤٩٦) [دار القلم والكتاب، ط١، ١٤١٦هـ].

(٤) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤١٥/٧).

(٥) انظر: عون المعبود للعظيم آبادي (٢٨٧/١٢) [دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٩٥م]، ومرقاة المفاتيح لعلي قاري (٥٤٢/٧) [دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ].

أي: كلمة الشهادة، وأنه لا يسمى مؤمنًا إلا بالعمل، والعمل يشمل عمل القلب والجوارح... وأما الإســـلام المذكور في حديث جبريل فهو الشـــرعي الكامل المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: الآية: ٨٥]"(١)

وعلى هذا الإطلاق تحمل رواية المنع من الاســـتثناء في الإســـلام عند الإمام أحمد؛ لأن النطق بالشهادتين هو مما يجزم به كل مسلم ولا يجوز الشك فيه.

الإطلاق الثاني: أن يراد بالإسلام فعل الواجبات الظاهرة كلها كما أمر به الله.

فعلى هذا الإطلاق تحمل رواية جواز الاســتثناء، فيُســتَثنى في الإســلام كما يُســتثنى في الإيمـــــــــــــــــــــــــــــان.(٢)

فالحاصل: أنه إن أريد أصل الإسلام، وهو النطق بالشهادتين: مُنِع الاستثناء.

وإن أريد كمال الإسلام، المتضمن لفعل الواجبات وترك المحرمات على ما أمر به الله جاز الاستثناء.

المسألة الخامسة: الاستثناء في الماضي المعلوم المتيقن:

الاستثناء في الماضي المعلوم المتيقن، مثل قولهم: هذه شجرة إن شاء الله، أو محمد رسول الله إن شاء الله، وأنه قد صلى بالأمس إن شاء الله، فهذا بدعة مخالفة للعقل والدين، ولم يكن عليه أحد من أهل الإسلام السابقين، وأئمة الدين، ولم يأت في الكتاب ولا السُّنَّة استثناء في الماضـــي، بل كل ما ورد فهو في المســـتقبل؛ كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَـــيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: الآيات: ٢٣-٢٤]. (٣)

المسألة السادسة: الاستثناء في الأعمال الصالحة:

الاستثناء في الأعمال الصالحة بحيث يقال: صليت إن شاء الله، وصمت إن شاء الله، وحججت إن شاء الله، القول فيها كالقول في الاستثناء في الإيمان؛ إذ هي أفراد الإيمان؛ فإن كان المقصــد خوف التزكية، أو الخوف من عدم الإتيان بالعمل الصـــالح على وجه الكمال

(١) فتح الباري لابن حجر (١/٨١ـ ٨٢) [دار المعرفة].

(٢) انظر حول هذا التفصيل: الإيمان الكبير ضـمن مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٢٥٩، ٤١٥)، والتحبير شـرح التحرير للمرداوي (٢/٥٣١ـ ٥٣٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٨/٤٢١، ٤٢٥).

شـرع له الاسـتثناء، وإن كان المقصـد مجرد الإخبار عن العمل كأن يقول: صـليت وصـمت وحججت فلا يستثني.

قال ابن تيمية: "وخوف من خاف من الســـلف أن لا يتقبل منه لخوفه أن لا يكون أتى بالعمل على الوجه المأمور، وهذا أظهر الوجوه في اســـتثناء من اســـتثنى منه في الإيمان، وفي أعمال الإيمان؛ كقول أحدهم: أنا مؤمن إن شــاء الله، وصــليت إن شــاء الله؛ لخوف أن لا يكون أتى بالواجب على الوجه المأمور به، لا على جهة الشك فيما بقلبه من التصديق"(١)

مذاهب المخالفين:

للمخالفين عدة أقوال في حكم الاستثناء في الإيمان:

القول الأول: القول بوجوب الاستثناء في الإيمان. وهو قول الكلابية (٢)وجمهور الأشاعرة. (٣) وعلّلوا ذلك بأمرين:

١ـــــ أن الإيمان هو ما مات عليه الإنســان، وكذلك الكفر هو ما مات عليه الإنســان، فالإنســـان إنما يكون عند الله مؤمنًا أو كافرًا باعتبار الموافاة، وما ســبق في علم الله أنه يكون عليه، وما قبل ذلك فلا عبرة به.

٢ ـ البعد عن تزكية النفس بالشهادة لها بالإيمان. (٤)

وهم قد وافقوا الســـلف في الاعتبار الثاني دون الاعتبار الأول، فإن الاعتبار الأول مبني على قولهم بنفي الصـفات الاختيارية عن الله، وهو ما يسـمونه بمنع حلول الحوادث، ومن ثم قالوا: إن الحب والبغض والســخط والغضــب صــفات أزليه قديمة، فلا يكون الله مبغضًــا لشخص ـ حال كفره ـ ثم يصير محبًّا له بعد إيمانه، بل لم يزل محبًّا له في الأزل إذا علم أنه يموت على الإيمان، ولم يزل مبغضًا له في الأزل إذا علم أنه يموت على الكفر.

ثم قرنوا مسـألة الاسـتثناء في الإيمان بهذا القول، وأوجبوه، بناء على أن الإنســان لا يعلم

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/٤٩٦)..

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/٢٨٩) (٧/٤٣٠)، والاستقامة لابن تيمية (١/١٥٠) [طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٠٣هـ].

(٣) انظر: أصـول الدين للبغدادي (٢٥٣) [دار زاهد القدسـي]، وشـرح المقاصـد للتفتازاني (٢٥٣) [دار المعارف النعمانية، ط١، ١٤٠١هـ].

(٤) انظر: الإرشاد للجويني (٣٣٦) [مكتبة الخانجي، ط٣، ١٤٢٢هـ].

على أي شيء يموت عليه، والإيمان هو ما يموت عليه المرء ويوافي به ربه. [١]

وهذا تناقض منهم؛ لأنهم يقولون: إن الإيمان هو التصـــديق؛ لأنه في اللغة كذلك، ثم يقولون: الإيمان في الشرع هو ما يوافي به العبد ربه، وجعلوا الاستثناء واجبًا لأجل ذلك، فهذا عدول منهم عن معنى الإيمان في اللغة إلى معنى آخر، فأبطلوا اســتدلالهم اللغوي في بيان حد الإيمان. [٢]

القول الثاني: من يحرِّم الاســتثناء في الإيمان. وهو قول المرجئة والجهمية [٣] والماتريدية [٤]، وبعض الأشاعرة [٥]، ونحوهم ممن يجعل الإيمان شيئًا واحدًا، وهو التصديق والإقرار.

قال عبد الرحمن بن مهدي–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ): "أول الإرجاء ترك الاستثناء"[٦]

وعلّلوا التحريم بقولهم: إن الإيمان شيء واحد، والاستثناء يقتضي الشك، فإن من استثنى في إيمانه فهو شــاك، ومن تردد في تحقيق الإيمان لم يكن مؤمنًا، بل ذهب بعضــهم إلى تكفير من قال بالاســتثناء. [٧] وقولهم هذا في غاية البطلان، فإن الإيمان الشــرعي يطلق على جميع الاعتقادات والأقوال والأعمال الشــرعية، وليس شــيئًا واحدًا (التصــديق) كما زعمه هؤلاء، فالاستثناء راجع إلى تحقيق كمال الأقوال والأعمال، لا إلى أصل التصديق الذي لا شك فيه.

---

(١) انظر: الإيمان لابن تيمية، ضمن مجموع الفتاوى (٧/٤١٨).

(٢) انظر: الإيمان لابن تيمية (١٣٧ ـ ١٣٨)، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/١٣٧١) [مكتبة الرشد، ط١].

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٧/٤٢٩).

(٤) انظر: التوحيد للماتريدي (٣٨٨) [دار الجامعات المصرية]، وتأويلات أهل السُنَّة (٢٦٥) [مطبعة الإرشاد، ١٤٠٤هـــ]، وبحر الكلام لأبي المعين النسفي (٤٠) [مطبعة الكردي، ١٩١١هـ].

(٥) انظر: أصول الدين للبغدادي (٢٥٣).

(٦) السُنَّة للخلال (٣/٥٩٨).

(٧) انظر: أصول الدين للبغدادي (٢٥٣)، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم المصري (٢/٤٦) [طبع سعيد كمبني، كراتشي]، وإتحاف السـادة المتقين (٢/٢٧٨) [دار الفكر]، وكذلك: زيادة الإيمان ونقصـانه لعبد الرزاق العباد (٥١٩)، وانظر في الرد على هذا القول: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/٤١).

القرآن كلام الله غير مخلوق

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أهمية صفة الكلام.

المسألة الثانية: الأقوال في كلام. الله.

المسألة الثالثة: قول أهل السنة في القرآن وأنه كلام الله.

أولًا: إثبات صفة الكلام لله–عز وجل–.

ثانيًا: أن الله–عز وجل–لم يزل متكلمًا، إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء.

ثالثًا: القرآن كلام الله

رابعًا: القرآن غير مخلوق.

خامسًا: منه بدأ وإليه يعود.

سادسًا: أن الله يتكلم بحرف صوت مسموعين.

سابعًا: أن الله سبحانه وتعالى أسمعه جبريل، وجبريل أبلغه محمد–صلى الله عليه وسلم–.

[٨]– قال المصنف رحمه الله: "والقرآنُ كلامُ الله وتنزيله، ليس بمخلوق". [(١)]

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أهمية صفة الكلام.

هذه مسألة من كبريات مسائلِ باب الصفات؛ فأكبرُ مسألتين في باب الأسماء والصفات ركَّز عليها أعداءُ الإسلام تركيزًا شديدًا

- مسألةُ العلو.
- ومسألةُ الكلام.

لأنهم إذا أبطلوا كونَ القرآن كلام الله أبطلوا حقيقةَ الوحي،

وإذا أبطلوا علوَّ الله تعالى أبطلوا وجوده،

فهذه غايتهم وهدفهم الذي يريدون أن يصلوا إليه.

ذلك لأن أعظم ركيزتين تقوم عليهما المبادئ الفلسفية لدى الفلاسفة هما:

١. أن العلمَ مصدره الإنسان.وفي هذا تكذيب للوحي.

---

(١) ومن الأقوال المأثورة عن سفيان بن عيينة في مسألة القرآن:

- قال أبو بكر عبد الرحمن بن عفان: "سمعت ابن عيينة في السنة التي أخذوا فيها بشرًا المريسي بمنى، فقام سفيان في المجلس مغضبًا، فقال: لقد تكلموا في القدر والاعتزال، وأمرنا باجتناب القوم، رأينا علماءنا، هذا عمرو بن دينار، وهذا محمد بن المنكدر –حتى ذكر أيوب بن موسى والأعمش ومسعرا– ما يعرفونه إلا كلام الله، ولا نعرفه إلا كلام الله، فمن قال غير ذا، فعليه لعنة الله مرتين، فما أشبه هذا بكلام النصارى، فلا تجالسوهم". [سير أعلام النبلاء: ٧/ ٤٢٣]
- قال محمد بن منصور الجواز: "رأيت سفيان بن عينة سأله رجل: ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، منه خرج، وإليه يعود". [سير أعلام النبلاء: ٧/ ٤٢١]

٢. وأن المعلومات والعلوم محصورةٌ في المحسوس المشاهَد.وفي هذا إنكار للغيب وأعظم الغيب هو الله.

فتسلَّط أعداءُ الله على باب الصفات من أجلِ أن يشكِّكُّوا في كلامِ الله وذلك بإنكارهم بأن يكون القرآن كلامُ الله حقيقة.

وأن يشكِّكُّوا في وجودِ الله بإنكارهم لعلو الله عز وجل.

فلذلك وقفوا وقفةً خبيثة، وهجموا هجمةً شرسة ضد هاتين الصفتين، فإذا كنا نقول إنهم يزعمون أن العلوم مصدرها الإنسان، ونحن نقول إن العلم الشرعي مصدره الوحي فلمَّا هؤلاء يلغونَ أن الله تكلم حقيقة، ويشكَّكُّون في أن هناك وحي وقالوا: هذه عبارة محمد؛ أو عبارة جبريل، وأن الله ما تكلم حقيقة.لأنهم إذا أسقطوا الوحي وقطعوا عليك طريق الوحي فسيتساوى قولُ محمد مع قولِ أي بشرٍ من الناس.

صفة الكلام تأتي–من حيث الأهمية–مع صفة العُلو لله سبحانه وتعالى؛ لذلك اهتم بهما أئمة السلف، وأكدوا على ثُبوتهما لله تعالى حقيقة، وأوردوا في ذلك أدلة كثيرة.

وبالنسبة لصفة الكلام التي هي موضوع حديثنا هنا فإن علماء أهل السنة بينوا الحق في هذه المسألة ووقفوا موقفاً عظيماً صلباً حتى إنه كما هو معلوم في زمن فتنةَ القولِ بخلقِ القرآن، فقام المأمون وهو كان من المعتزلة ويتبنَّى قول المعتزلة، فعذَّب مَن عذَّب من العلماء وفصَلَهم عن وظائفهم وسجنهم وقام بتعذيبهم لأجلِ أن يرفعَ هذا الشعار؛ أن القرآنَ مخلوق وأنه ليس كلامُ الله حقيقة.

فدفع أهل السنة شبهات المعطلة من الجهمية والمعتزلة ومَن دَار في فَلَكهم القائلين بأنَّ الله خلق القرآن في غيره، وردوا كذلك على الكلَّابية الذين قالوا: القرآن حكاية عن كلام الله، وردوا–أيضًا–على الأشاعرة الذين قالوا: القرآن عبارة عن كلام الله.

فالمعطلة أرادوا بقولهم هذا: إسقاط قيمة الوحي؛ ليصبح لدى الناس خلل في اتباع الوحي، فأهل السنة يؤمنون بأن أول مصدر للتشريع هو وحي الله تعالى إلى رسوله ﷺ، أي: كلامه بحروفه ومعانيه، وأن الله تعالى قاله بحرف وصوت.

وأوَّل مَن عُرِف أنه قال: مخلوق الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان.

وأول مَن عُرف أنه قال: هو قديم عبد الله بن سعيد بن كلاب، (ت: ٢٤١ هـ)، ثم افترق

الذين شاركوه في هذا القول؛ فمنهم مَن قال: الكلام معنى واحد قائم بذات الرَّبِّ، ومعنى القرآن كله والتوراة والإنجيل وسائر كتب الله وكلامه هو ذلك المعنى الواحد الذي لا يَتعدد ولا يتبعض، والقرآن العربي لم يتكلم الله به، بل هو مخلوق خلقه في غيره.

وقال جمهور العقلاء: هذا القول معلوم الفساد بالاضطرار؛ فإنَّه مِن المعلوم بصريح العقل أن معنى (آية الكرسي) ليس معنى (آية الدَّيْن)، ولا معنى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية: ١]، معنى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: الآية: ١]؛ فكيف بمعاني كلام الله كله في الكتب المنزلة وخطابه لملائكته وحسابه لعباده يوم القيامة وغير ذلك من كلامه؟!

ومنهم مَن قال: هو حروف، أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته لم يَزل ولا يزال موصوفًا بها.

وكلا الحزبين يقول: إن الله تعالى لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وإنه لم يزل ولا يزال يقول: يا نوح، يا إبراهيم، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر، ولم يقل أحد من السلف بواحد من القولين، ولم يقل أحدٌ من السلف: إنَّ هذا القرآن عبارة عن كلام الله، ولا حكاية له، ولا قال أحد منهم: إن لفظي بالقرآن قديم أو غير مخلوق، فضلًا عن أن يقول: إن صوتي به قديم أو غير مخلوق؛ بل كانوا يقولون بما دلَّ عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله، والناس يَقرءونه بأصواتهم، ويكتبونه بمدادهم، وما بين اللوحين كلام الله، وكلام الله غير مَخلوق".[١]

وأما المعتزلة والجهمية فقالوا: القرآن كلام الله مخلوق؛ فهم أضافوا الكلام إلى الله من باب إضافة الوصف على حد قولهم: (ناقة الله).

ومن المتفلسفة مَن يزعم أن المعاني والحروف تأليفه؛ لكنها فاضت عليه كما يفيض العلم على غيره من العلماء.

المسألة الثانية: الأقوال في كلام الله.[٢]

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٠١، ٣٠٢).

(٢) لخص شارح العقيدة الطحاوية أقوال المخالفين في صفة الكلام فقال: "وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال:

=

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "مسألة كلام الله تعالى، والناس فيها مضطربون، وقد بلغوا فيها إلى تسعة أقوال: وعامة الكتب المصنفة في الكلام وأصول الدين لم يذكر أصحابها إلا بعض هذه الأقوال إذ لم يعرفوا غير ما ذكروه، فمنهم من يذكر قولين، ومنهم من يذكر ثلاثة، ومنهم من يذكر أربعة، ومنهم من يذكر خمسة، وأكثرهم لا يعرفون قول السلف.

- **أحدها**: قول من يقول: إن كلام الله ما يفيض على النفوس من المعاني التي تفيض: إما من العقل الفعال عند بعضهم، وإما من غيره.

وهذا قول الصابئة والمتفلسفة الموافقين لهم كابن سينا وأمثاله، ومن دخل مع هؤلاء من متصوفة الفلاسفة ومتكلميهم كأصحاب وحدة الوجود.وفي كلام صاحب الكتب "المضنون بها على غير أهلها" (بل "المضنون الكبير والمضنون الصغير") ورسالة "مشكاة الأنوار" وأمثاله ما قد يشار به إلى هذا، وهو في غير ذلك من كتبه يقول ضد هذا، لكن كلامه يوافق هؤلاء تارة وتارة يخالفه، وآخر أمره استقر على مخالفتهم ومطالعة الأحاديث النبوية.

وثانيها: قول من يقول: إنه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه.

أحدها: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معاني، إما من العقل الفعال عند بعضهم، أو من غيره، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة.

وثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه، وهذا قول المعتزلة.

وثالثها: أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبريه كان توراة، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه، كالأشعري وغيره.

ورابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث.

وخامسها: أنه حروف وأصوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلما، وهذا قول الكرامية وغيرهم.

وسادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر، ويميل إليه الرازي في المطالب العالية.

وسابعها: أن كلامه يتضمن معنى قائما بذاته هو ما خلقه في غيره، وهذا قول أبي منصور الماتريدي.

وثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي ومن تبعه.

وتاسعها: أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديما، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة".

شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٢-١٧٤.

وهذا قول هذا الإمامي وأمثاله من الرافضة المتأخرين، والزيدية، والمعتزلة، والجهمية.

وثالثها: قول من يقول: إنه معنى واحد قديم قائم بذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة.

وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وغيره.

ورابعها: قول من يقول: إنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل.

وهذا قول طائفة من أهل الكلام وأهل الحديث.ذكره الأشعري في " المقالات " عن طائفة.وهو الذي يذكر عن السالمية ونحوهم.وهؤلاء

قال طائفة منهم: إن تلك الأصوات القديمة هي الصوت المسموع من القارئ، أو هي بعض الصوت المسموع من القارئ.

وأما جمهورهم مع جمهور العقلاء فأنكروا ذلك، قالوا: هذا مخالف لضرورة العقل.

وخامسها: قول من يقول: إنه حروف وأصوات لكن تكلم به بعد أن لم يكن متكلما، وكلامه حادث في ذاته كما أن فعله حادث في ذاته بعد أن لم يكن متكلما ولا فاعلا.وهذا قول الكرامية وغيرهم.

وهو قول هشام بن الحكم وأمثاله من الشيعة.وهؤلاء منهم من يقول: هو حادث وليس بمحدث، ومنهم من يقول: بل هو محدث أيضا.وقد ذكر القولين الأشعري عنهم في "المقالات" وذكر الخلاف بين أبي معاذ التومني وبين زهير الأثري.والكرامية يقولون: حادث لا محدث.

وسادسها: قول من يقول: إنه لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء بكلام يقوم به وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام أزلي قديم، م وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديما.

وهذا هو المأثور عن أئمة الحديث والسنة.

وسابعها: قول من يقول: كلامه يرجع إلى ما يحدث من علمه وإرادته القائم بذاته.ثم من هؤلاء من يقول: لم يزل ذاك حادثا في ذاته، كما يقوله أبو البركات صاحب "المعتبر" وغيره، ومنهم من لا يقول بذلك، وأبو عبد الله الرازي يقول بهذا القول في مثل " المطالب العالية ".

وثامنها: قول من يقول: كلامه يتضمن معنى قائما بذاته وهو ما خلقه في غيره.ثم من هؤلاء من يقول في ذلك المعنى بقول ابن كلاب، وهذا قول أبي منصور الماتريدي.

ومنهم من يقول بقول المتفلسفة وهذا قول طائفة من الملاحدة الباطنية متشيعهم ومتصوفيهم.

وتاسعها: قول من يقول: كلام الله مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات.وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه من متأخري الأشعرية".(١)

وفصل ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ) هذه الأقوال فقال: "فصل: اختلف أهل الأرض في كلام الله تعالى،

[مذهب الاتحادية]

فذهب الاتحادية القائلون بوحدة الوجود أن كل كلام في الوجود كلام الله: نظمه ونثره وحقه وباطله سحره وكفره والسب والشتم والهجر والفحش، وأضداده كله غير كلام الله تعالى القائم به كما قال عارفهم:

وكل كلام في الوجود كلامه ...سواء علينا نثره ونظامه

وهذا المذهب مبني على أصلهم الذي أصلوه، وهو أن الله سبحانه هو عين هذا الوجود، فصفاته هي صفات الله، وكلامه هو كلام الله، وأصل هذا المذهب إنكار مسألة المباينة والعلو، فإنهم لما أصلوا أن الله تعالى غير مباين لهذا العالم المحسوس صاروا بين أمرين لا ثالث لهما إلا المكابرة.

أحدهما: إنه معدوم لا وجود له، إذ لو كان موجودا لكان إما داخل العالم وإما خارجا عنه، وهذا معلوم بالضرورة، فإنه إذا كان قائما بنفسه، فإما أن يكون مباينا للعالم أو محايثا له، إما داخلا فيه وإما خارجا عنه.

الأمر الثاني: أن يكون هو عين هذا العالم، فإنه يصح أن يقال فيه حينئذ أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا مباينا له ولا حالا فيه، إذ هو عينه، والشيء لا ينافي نفسه ولا يحايثها، فرأوا أن هذا خير من إنكار وجوده وبالحكم عليه بأنه معدوم، ورأوا أن الفرار من هذا إلى إثبات موجود قائم بنفسه، لا داخل العالم ولا خارجا، ولا متصل به ولا منفصل عنه ولا مباين له ولا

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٥٨-٣٦٣).

محايث ولا فوقه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه، فرارا إلى ما لا يسيغه عقل ولا تقبله فطرة ولا تأتي به شريعة.ولا يمكن أن يقر برب هذا شأنه إلا على أحد وجهين لا ثالث لهما.

أحدهما: أن يكون ساريا فيه حالا فيه، فهو في كل مكان بذاته، وهو قول جميع الجهمية الأقدمين.

الوجه الثاني: أن يكون وجوده في الذهن لا في الخارج، فيكون وجوده سبحانه وجودا عقليا، إذ لو كان موجودا في الأعيان لكان إما عين هذا العالم أو غيره، ولو كان غيره لكان إما بائنا عنه أو حالا فيه، كلاهما باطل، فثبت أنه عين هذا العالم، فله حينئذ كل اسم حسن قبيح، وكل صفة كمال ونقص، وكل كلام حق وباطل، نعوذ بالله من ذلك.

[مذهب الفلاسفة المتأخرين]

المذهب الثاني: مذهب الفلاسفة المتأخرين أتباع أرسطو، وهم الذين يحكي ابن سينا والفارابي والطوسي قولهم: إن كلام الله فيض فاض من العقل الفعال على النفوس الفاضلة الزكية بحسب استعدادها، فأوجب لها ذلك الفيض تصورات وتصديقات بحسب ما قبلته منه، لهذه النفوس عندهم ثلاث قوى: قوة التصور وقوة التخييل وقوة التعبير، فتدرك بقوة تصورها من المعاني ما يعجز عنه غيرها، وتدرك بقوة تخيلها شكل المعقول في صورة المحسوس، فتتصور المعقول صورا نورانية تخاطبها وتكلمها بكلام تسمعه الآذان، وهو عندهم كلام الله ولا حقيقة له في الخارج، وإنما ذلك كله من القوة الخيالية الوهمية، قالوا وربما قويت هذه القوة على إسماع ذلك الخطاب لغيرها، وتشكيل تلك الصور العقلية لعين الرائي فيرى الملائكة ويسمع خطابهم، وكل ذلك من الوهم والخيال لا في الخارج.

فهذا أصل هؤلاء في إثبات كلام الرب وملائكته وأنبيائه ورسله، والأصل الذي قادهم إلى هذا عدم الإقرار بالرب الذي عرفت به الرسل ودعت إليه، وهو القائم بنفسه المباين العالي فوق سماواته فوق عرشه الفعال لما يريد بقدرته ومشيئته، العالم بجميع المعلومات، القادر على كل شيء، فهم أنكروا ذلك كله.

[مذهب المعتزلة]

المذهب الثالث: مذهب الجهمية لصفات الرب تعالى أن كلامه مخلوق ومن بعض مخلوقاته،

فلم يقم بذاته سبحانه، فاتفقوا على هذا الأصل واختلفوا في فروعه، قال الأشعري في كتاب المقالات: اختلفت المعتزلة في كلام الله، هل هو جسم أو ليس بجسم، وفي خلقه على ستة أقاويل:

فالفرقة الأولى: منهم يزعمون أن كلام الله جسم، وأنه مخلوق، وأنه لا شيء إلا جسم.

والفرقة الثانية: زعموا أن كلام الخلق عرض وهو حركة؛ لأنه لا عرض عندهم إلا الحركة وأن كلام الخالق جسم، وأن ذلك الجسم صوت متقطع مؤلف مسموع، وهو فعل الله وخلقه، وهذا قول أبي الهذيل وأصحابه، وأحال النظام أن يكون كلام الله في أماكن كثيرة أو مكانين في وقت واحد، وزعم أنه في المكان الذي خلق فيه.

والفرقة الثالثة: من المعتزلة تزعم أن القرآن مخلوق لله وأنه عرض وأنه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد إذا تلاه قال فهو يوجد مع تلاوته، وإذا كتبه وجد مع كتابته، وإذا حفظه وجد مع حفظه، وهو يوجد في الأماكن بالتلاوة والحفظ والكتابة ولا يجوز عليه الانتقال والزوال.

والفرقة الرابعة: يزعمون أن كلام الله عز وجل عرض وأنه مخلوق وأحالوا أن يوجد في مكانين في وقت واحد، وزعموا أن المكان الذي خلقه الله تعالى فيه محال انتقاله وزواله منه ووجوده في غيره، وهذا قول جعفر بن حرب وأكثر البغداديين.

والفرقة الخامسة: أصحاب معمر يزعمون أن القرآن عرض، والأعراض عندهم قسمان: قسم منهما يفعله الأحياء وقسم منهما يفعله الأموات، ومحال أن يكون ما يفعله الأموات فعلا للأحياء، والقرآن مفعول وهو عرض، ومحال أن يكون الله فعله في الحقيقة، لأنهم يحيلون أن تكون الأعراض فعلا لله، وزعموا أن القرآن فعل للمحل الذي يسمع منه، إذ سمع من الشجرة، فهو فعل لها حيث سمع، فهو فعل المحل الذي حل فيه.

والفرقة السادسة: يزعمون أن كلام الله عرض مخلوق، وأنه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد، وهذا قول الإسكافي.

واختلفت المعتزلة في كلام الله هل يبقى؟ فقالت فرقة منهم: يبقى بعد خلقه، وقالت فرقة أخرى: لا يبقى إنما يوجد في الوقت الذي خلقه الله ثم يعدم بعد ذلك، وهذا المذهب هو من فروع الأصل الباطل المخالف لجميع كتب الله ورسله، ولصريح المعقول والفطر، من جحد صفات الرب وتعطيل حقائق أسمائه ونفي قيام الأفعال به، فلما أصلوا أنه لا يقوم به وصف

ولا فعل كان من فروع هذا الأصل أنه لم يتكلم بالقرآن ولا بغيره، وأن القرآن مخلوق، وطرد ذلك إنكار ربوبيته وإلهيته، فإن ربوبيته سبحانه إنما تتحقق بكونه فعالا مدبرا متصرفا في خلقه، يعلم ويقدر ويريد ويسمع ويبصر، فإذا انتفت أفعاله وصفاته انتفت ربوبيته، إذا انتفت عنه صفة الكلام انتفى الأمر والنهي ولوازمها وذلك ينفي حقيقة الإلهية، فطرد ما أصلوه أن الله سبحانه ليس برب العالم ولا إله، فضلا عن أن يكون لا رب غيره ولا إله سواه.

[مذهب الكلابية]

المذهب الرابع: مذهب الكلابية، أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، أن القرآن معنى قائم بالنفس لا يتعلق بالقدرة والمشيئة، وأنه لازم لذات الرب كلزوم الحياة والعلم، وأنه لا يسمع على الحقيقة، والحروف والأصوات حكاية له دالة عليه وهي مخلوقة، وهو أربع معان في نفسه: الأمر والنهي والخبر والاستفهام، فهي أنواع لذلك المعنى القديم الذي لا يسمع، وذلك المعنى هو المتلو المقروء، وهو غير مخلوق، والأصوات والحروف هي تلاوة العباد وهي مخلوقة، وهذا المذهب أول من يعرف أنه قال به ابن كلاب، وبناه على أن الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم، والحروف والأصوات حادثة فلا يمكن أن تقوم بذات الرب تعالى لأنه ليس محلا للحوادث، فهي مخلوقة منفصلة عن الرب، والقرآن اسم ذلك المعنى وهو غير مخلوق.

[مذهب الأشعري]

المذهب الخامس: مذهب الأشعري ومن وافقه أنه معنى واحد قائم بذات الرب، وهو صفة قديمة أزلية ليس بحرف ولا صوت، ولا ينقسم ولا له أبعاض ولا له أجزاء ولا عين الأمر وعين النهي وعين الخبر وعين الاستخبار، الكل من واحد وهو عين التوراة والإنجيل والقرآن والزبور، وكونه أمرا ونهيا، وخبرا واستخبارا صفات لذلك المعنى الواحد، وأنواع له، فإنه لا ينقسم بنوع ولا جزء، وكونه قرآنا وتوراة وإنجيلا تقسيم للعبارات عنه لا لذاته، بل إذا عبر عن ذلك المعنى بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان اسمه إنجيلا، والمعنى واحد، وهذه الألفاظ عبارة عنه ولا يسميها حكاية، وهي خلق من المخلوقات، وعنه لم يتكلم الله بهذا الكلام العربي، ولا سمع من الله وعنده ذلك المعنى سمع من الله حقيقة، ويجوز أن يرى ويشم، ويذاق ويلمس، ويدرك بالحواس الخمس، إذ المصحح عنده لإدراك الحواس هو الوجود، فكل وجود يصح تعلق الإدراكات كلها به كما قرره في مسألة رؤية من ليس في جهة

من الرائي، وأنه يرى حقيقة وليس مقابلا للرائي.

هذا قولهم في الرؤية وذلك قولهم في الكلام.

والبلية العظمى نسبة ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه جاء بهذا ودعا إليه الأمة، وأنهم أهل الحق، ومن عداهم أهل الباطل، وجمهور العقلاء يقولون: إن تصور هذا المذهب كاف في الجزم في بطلانه، وهو لا يتصور إلا كما تتصور المستحيلات الممتنعات، وهذا المذهب مبني على مسألة إنكار قيام الأفعال والأمور الاختيارية بالرب تعالى ويسمونها مسألة حلول الحوادث، وحقيقتها إنكار أفعاله وربوبيته إرادته ومشيئته.

[مذهب الكرامية]

المذهب السادس: مذهب الكرامية، وهو أنه متعلق بالمشيئة والقدرة قائم بذات الرب تعالى، وهو حروف وأصوات مسموعة، وهو حادث بعد أن لم يكن، فهو عندهم متكلم بقدرته ومشيئته بعد أن لم يكن متكلما، كما يقوله سائر فرق المتكلمين أنه فعل بقدرته ومشيئته بعد أن لم يكن فاعلا، كما ألزموا به الكرامية في مسألة الكلام، فهو لازم لهم في مسألة الفعل، والكرامية أقرب إلى الصواب منهم، فإنهم أثبتوا كلاما وفعلا حقيقة قائمين بذات المتكلم الفاعل، وجعلوا لهما أولا، فرارا من القول بحوادث لا أول لها، ومنازعون أبطلوا حقيقة الكلام والفعل، وقالوا لم يقم به فعل ولا كلام البتة، وأما من أثبت منهم معنى قائما بنفسه سبحانه، فلو كان ما أثبته مفعولا لكان من جنس الإرادة والعلم لم يكن شيئا خارجا عنهما، فهم لم يثبتوا له كلاما ولا فعلا وأما الكرامية فإنهم جعلوه متكلما بعد أن لم يكن متكلما، كما جعله خصومهم فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا.

[مذهب السالمية] (١)

المذهب السابع: مذهب السالمية ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وأهل الحديث أنه صفة قائمة بذات الرب تعالى لم يزل ولا يزال، لا يتعلق بقدرته ومشيئته، ومع ذلك هو حروف

(١) "جماعة ينسبون إِلَى مَذْهَب أبي الحسن مُحَمَّد بن أَحمد بن سالم السالمي فِي الْأُصُول يُقَال لَهُم السالمية وَهُوَ مَذْهَب مَشْهُور بِالْبَصْرَة وسوادها"اللباب في تهذيب الأنساب (٢/ ٩٣).

وقال الذهبي عن أبي الحسن البصري هذا: "وَلَهُ أَصْحَابُ يُسَمَّوْنَ السَّالِمِيَّة، هجرهُمُ النَّاسُ لأَلْفَاظِ هُجنَةٍ أطلقُوهَا وَذَكَرُوهَا ... وَمَاتَ ابْنُ سَالِمٍ وَقَدْ قَاربَ التِّسْعِيْنَ سَنَةَ بضع وَخَمْسِيْنَ وَثَلاَثِ مِائَةٍ" – سير أعلام النبلاء – ط الرسالة (١٦/ ٢٧٣).

وأصوات، وسور وآيات سمعه جبرائيل منه، وسمعه موسى بلا واسطة، ويسمعه سبحانه من يشاء، وإسماعه نوعان: بواسطة وبغير واسطة ومع ذلك فحروفه وكلماته لا يسبق بعضها بعضا، بل هي مقترنة الباء مع السين مع الميم في آن واحد، لم تكن معدومة في وقت من الأوقات ولا تعدم، بل لم تزل قائمة بذاته سبحانه قيام صفة الحياة والسمع والبصر، وجمهور العقلاء قالوا: تصور هذا المذهب كاف في الجزم ببطلانه.

والبراهين العقلية والأدلة القطعية شاهدة ببطلان هذه المذاهب كلها، وأنها مخالفة لصريح العقل والنقل، والعجب أنها هي الدائرة بين فضلاء العالم لا يكادون يعرفون غيرها.

المسألة الثالثة: قول أهل السنة في القرآن وأنه كلام الله

صفة الكلام من الصفات التي لها تشعبات كثيرة متعددة يحسن عند عرضها أن يكون العرض لها مفصلًا بحسب تلك التفريعات التي سأضع لها عناوين جانبية مما يساعد من جهة على التعرف على قول أهل السنة بشكل أدق، والتعرف على أقوال المخالفين حين عرضها في تلك الجزئيات من جهة أخرى.

أولًا: إثبات صفة الكلام لله عز وجل.

يثبت أتباع الرسل صفة الكلام لله عز وجل كما أثبتوا له سائر الصفات، ومحال قيام هذه الصفة بنفسها كما يقوله بعض المكابرين أنه خلق الكلام لا في محل، ومحال قيامها بغير الموصوف بها كما يقوله المكابر الآخر أنه خلق في محل فكان هو المتكلم به دون المحل، قالوا والكلام الحقيقي هو الذي يوجد بقدرة المتكلم وإرادته قائما به، لا يعقل غير هذا، وأما ما كان موجودا بدون قدرته ومشيئته وإن سمع منه فإنه ليس بكلام له، وإنما هو مخلوق خلقه الله فيه، فلو كان ما قام بالرب تعالى من الكلام غير متعلق بمشيئته بل يتكلم بغير اختياره لم يكن هذا هو الكلام المعهود، بل هذا شيء آخر غير ما يعرفه العقل ويشهد به الشرع، قالوا: ولو لم يكن هناك ألفاظ مسموعة حقيقة السمع لم يكن ثم صفة كلام البتة، ولو كان عاجزا عن الكلام في الأزل لم يصر قادرا عليه فيما لم يزل، فإنه إذا كانت حاله قبل وبعد سواء وهو لم يستفد صفة الكلام من غيره، فمن المستحيل أن تجدد له هذه الصفة بعد أن كان فاقدا لها بالكلية.

وكذلك إثبات قدم عين كل فرد من أنواع الكلام وبقائه أزلا وأبدا واقتران حروفه بعضها

ببعض بحيث لا يسبق شيء منها لغيره، لا يسيغه عقل ولا تقبله فطرة وقد دلت النصوص النبوية أنه متكلم إذا شاء بما شاء، وأن كلامه يسمع، وأن القرآن العزيز الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات عين كلامه حقا، لا تأليف ملك ولا بشر، وأنه سبحانه الذي قاله بنفسه: ﴿**المص**﴾ [الأعراف: الآية: ١]، ﴿**حم عسق**﴾ [الشورى: الآية: ١]، ﴿**كهيعص**﴾ [مريم: الآية: ١].

وأن القرآن جميعه، حروفه ومعانيه نفس كلامه الذي تكلم به، وليس بمخلوق ولا بعضه قديما، وهو المعنى وبعضه مخلوق، وهو الكلمات والحروف، ولا بعضه كلامه وبعضه كلام غيره، ولا ألفاظ القرآن وحروفه ترجمة ترجم بها جبرائيل أو محمد عليهما السلام عما قام بالرب من المعنى من غير أن يتكلم الله بها، بل القرآن جميعه كلام الله، حروفه ومعانيه، تكلم الله به حقيقة، والقرآن اسم لهذا النظم العربي الذي بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن جبرائيل عن رب العالمين.

فللرسولين منه مجرد التبليغ والأداء، لا الوضع والإنشاء، كما يقول أهل الزيغ والاعتداء، فكتاب الله عندهم غير كلامه، كتابه مخلوق وكلامه غير مخلوق، والقرآن إن أريد به الكتاب كان مخلوقا، وإن أريد به الكلام كان غير مخلوق، وعندهم أن الذي قال السلف هو غير مخلوق هو عين القائم بالنفس وأما ما جاء به الرسول وتلاه على الأمة فمخلوق، وهو عبارة عن ذلك المعنى، وعندهم أن الله تعالى لم يكلم موسى، وإنما اضطره إلى معرفة المعنى القائم بالنفس من غير أن يسمع منه كلمة واحدة، وما يقرؤه القارئون ويتلوه التالون فهو عبارة عن ذلك المعنى، وفرعوا على هذا الأصل فروعا: منها: أن كلام الله لا يتكلم به غيره، فإنه عين القائم بنفسه، ومحال قيامه بغيره فلم يتل أحد قط كلام الله ولا قرأه.

ومنها: أن هذا الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كلام الله إلا على سبيل المجاز.

ومنها: أنه لا يقال إن الله تكلم ولا يتكلم ولا قال ولا يقول ولا خاطب ولا يخاطب، فإن هذه كلها أفعال إرادية تكون بالمشيئة، وذلك المعنى صفة أزلية لا يتعلق بالمشيئة.

ومنها: أنهم قالوا لا يجوز أن ينزل القرآن إلى الأرض، فألفاظ النزول والتنزيل لا حقيقة لشيء منها عندهم.

ومنها: أن القرآن القديم لا نصف له ولا ربع ولا خمس ولا عشر ولا جزء له البتة.

ومنها: أن معنى الأمر هو معنى النهي، ومعنى الخبر والاستخبار، وكل ذلك معنى واحد بالعين.

ومنها: أن نفس التوراة هي نفس القرآن ونفس الإنجيل والزبور، والاختلاف في التأويلات فقط.

ومنها: أن هذا القرآن العربي تأليف جبرائيل أو محمد أو مخلوق خلقه الله تعالى في اللوح المحفوظ، فنزل به جبرائيل من اللوح لا من الله على الحقيقة كما هو معروف من أقوالهم.

ومنها: أن ذلك العين القديم يجوز أن تتعلق به الإدراكات الخمس فيسمع ويرى ويشم ويذاق ويلمس إلى غير ذلك من الفروع الباطلة سمعا وعقلا وفطرة.

وقد دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على أن الله سبحانه يتكلم بمشيئته، كما دل على أن كلامه صفة قائمة بذاته، وهي صفة ذات وفعل قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [النحل: الآية: ٤٠] ، وقوله: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [يس: الآية: ٨٢] فإذا: تخلص الفعل للاستقبال (وأن) كذلك (ونقول) فعل دال على الحال والاستقبال (وكن) حرفان يسبق أحدهما الآخر، فالذي اقتضته هذه الآية هو الذي في صريح العقول والفطر.

وكذلك قوله: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً**﴾ [الإسراء: الآية: ١٦] الآية، سواء كان الأمر هاهنا أمر تكوين أو أمر تشريع فهو موجود بعد أن لم يكن، وكذلك قوله: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**﴾ [الأعراف: الآية: ١١] وإنما قال لهم اسجدوا بعد خلق آدم وتصويره.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣] الآيات كلها، فكم من برهان يدل على أن التكلم هو الخطاب وقع في ذلك الوقت.

وكذلك قوله: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ**﴾ [القصص: الآية: ٣٠]، والذي ناداه هو الذي قال له: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي**﴾ [طه: الآية: ١٤]، وكذلك قوله: ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ**﴾ [القصص: الآية: ٦٢]، وقوله: ﴿**وَيَوْمَ**

يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: الآية: ٤٠] وقوله: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ**﴾ [ق: الآية: ٣٠] الآية، ومحال أن يقول سبحانه لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد قبل خلقها ووجودها.

وتأمل نصوص القرآن من أوله إلى آخره ونصوص السنة، ولا سيما أحاديث الشفاعة وحديث المعراج وغيرها، كقوله:" **(أتدرون ماذا قال ربكم الليلة)**.(١)، وقوله: " **(إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث ألا تكلموا في الصلاة)**.(٢)، وقوله: " **(ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حاجب)**.(٣).

وقد أخبر الصادق المصدوق أنه يكلم ملائكته في الدنيا فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي، ويكلمهم يوم القيامة، ويكلم أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين يومئذ ويكلم أهل الجنة في الجنة ويسلم عليهم في منازلهم، وأنه كل ليلة يقول: **(من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، من يقرض غير عديم ولا ظلوم)**.(٤)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحا)**.(٥)، ومعلوم أنه في ذلك الوقت كلمه وقال له: تمن علي.

إلى أضعاف أضعاف ذلك من نصوص الكتاب والسنة التي إن دفعت دفعت الرسالة بأجمعها، وإن كانت مجازا كان الوحي كله مجازا، وإن كانت من المتشابه كان الوحي كله من المتشابه، وإن وجب أو ساغ تأويلها على خلاف ظاهرها ساغ تأويل جميع القرآن والسنة على خلاف ظاهره، فإن مجيء هذه النصوص في الكتاب وظهور معانيها وتعدد أنواعها واختلاف مراتبها أظهر من كل ظاهر، وأوضح من كل واضح، فكم جهد ما يبلغ التأويل والتحريف والحمل على المجاز.

هب أن ذلك يمكن في موضع واثنين وثلاثة وعشرة، أفيسوغ حمل أكثر من ثلاثة آلاف

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) باختلاف يسير.

(٢) أخرجه أبو داود (٩٢٤) واللفظ له، والنسائي (١٢٢١) باختلاف يسير. وأخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم قبل حديث (٧٥٢٢) مختصراً.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٤٣)، ومسلم (١٠١٦) باختلاف يسير.

(٤) أخرجه البخاري (١١٤٥) بنحوه، ومسلم (٧٥٨) باختلاف يسير.

(٥) أخرجه الترمذي (٣٠١٠) واللفظ له، وابن ماجه (١٩٠) باختلاف يسير، وأحمد (١٤٨٨١) مختصراً.

وأربعة آلاف موضع كلها على المجاز وتأويل الجميع بما يخالف الظاهر؟ ولا تستبعد قولنا أكثر من ثلاث آلاف، فكل آية وكل حديث إلهي وكل حديث فيه الإخبار عما قال الله تعالى أو يقول، وكل أثر فيه ذلك، إذا استقرئت زادت على هذا العدد، ويكفي أحاديث الشفاعة وأحاديث الرؤية وأحاديث الحساب، وأحاديث تكليم الله لملائكته وأنبيائه ورسله وأهل الجنة، وأحاديث تكليم الله لموسى، وأحاديث تكلمه عند النزول الإلهي، وأحاديث تكلمه بالوحي، وأحاديث تكليمه للشهداء، وأحاديث تكليم كافة عباده يوم القيامة بلا ترجمان ولا واسطة، وأحاديث تكليمه للشفعاء يوم القيامة حين يأذن لهم في الشفاعة، إلى غير ذلك، إذ كل هذا وأمثاله وأضعافه مجاز لا حقيقة له، سبحانك هذا بهتان عظيم، بل نشهدك ونشهد ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك أنك أحق بهذه الصفة وأولى من كل أحد، وأن البحر لو أمده من بعده سبعة أبحر، وكانت أشجار الأرض أقلاما يكتب بها ما تتكلم به، لنفدت البحار والأقلام ولم تنفد كلماتك، وأنك لك الخلق والأمر، فأنت الخالق حقيقة".[١]

قال ابنُ تَيميَّةَ –رحمه الله– (ت: ٧٢٨ هـ): "الرب تعالى لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال، منعوتا بنعوت الجلال والإكرام، وكماله من لوازم ذاته، فيمتنع أن يزول عنه شيء من صفات كماله، ويمتنع أن يصير ناقصا بعد كماله. وهذا الأصل عليه قول السلف وأهل السنة: أنه لم يزل متكلما إذا شاء، ولم يزل قادرا، ولم يزل موصوفا بصفات الكمال، ولا يزال كذلك".[٢]

قال ابن تيمية –رحمه الله– (ت: ٧٢٨ هـ): "ولا نزاع بين العلماء أن كلام الله تعالى لا يفارق ذات الله، ولا يباينه كلامه، ولا شيء من صفاته، بل ليس صفة شيء من موصوف تباين موصوفها وتنتقل عنه إلى غيره. فكيف يتوهم عاقل أن كلام الله يباينه، وينتقل إلى غيره".[٣]

قال ابن القيم –رحمه الله– (ت: ٧٥١ هـ): "وقد دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على أن الله سبحانه يتكلم بمشيئته، كما دل على أن كلامه صفة قائمة بذاته، وهي صفة ذات وفعل".[٤]

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٤٩٤-٥٠٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٥٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢)، مجموعة الرسائل والمسائل (٣/ ٣٥).

(٤) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ١٣١٨).

فصفة الكلام صفة ذاتية فعلية [١].فكلام الله عز وجل باعتبار أصله ونوعه: صفة ذات، وباعتبار آحاد الكلام وأفراده: صفة فعل".[٢]

وقال السعدي-رحمه الله-(ت: ١٣٧٦ هـ): "يصفونه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من الصفات الذاتية؛ كالحياة الكاملة، والسمع والبصر، وكمال القدرة، والعظمة والكبرياء، والمجد والجلال والجمال، والحمد المطلق، ومن صفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته؛ كالرحمة، والرضا، والسخط، والكلام، وأنه يتكلم بما يشاء كيف يشاء، وكلماته لا تنفد، ولا تبيد".[٣]

أ-الأدلة من القرآن.

وقد أثبت الله الكلام لنفسه، خلافًا لما يعتقده الضالون،

١ - قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ**﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٣].

٢ - وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾ [النساء: الآية: ١٦٤].

٣ - وقال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣].

٤ - وقال تعالى: ﴿**وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى.إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: الآيات: ١٣ - ١٤].

٥ - وقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [القصص: الآية: ٣٠].

٦ - وقالَ تعالى: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [النحل: الآية: ٤٠].

- وقال تعالى: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ**

(١) "الصفات الفعلية من حيث قيامها بالذات تسمى: صفات ذات، ومن حيث تعلقها بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال تسمى: صفات أفعال، ومن أمثلة ذلك: صفة الكلام"يُنظر: القواعد المثلى، لابن عثيمين (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: القواعد المثلى، لابن عثيمين (ص: ٢٥)

(٣) القول السديد (ص: ٨). يُنظر: القواعد المثلى، لابن عثيمين (ص: ٢٥).

رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: الآية: ١٠٩].

٨ – وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: الآية: ١١٥].

٩ – وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ﴾ [الفتح: الآية: ١٥].

١٠ – وقال تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية: ٧٥].

١١ – وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: الآية: ٦].

وأمَّا الأدلَّةُ على حِرْمانِ أقوامٍ من تكليمِ الله لهم، فمنها:

١ – قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: الآيات: ١٧٤ – ١٧٥].

٢ – وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: الآية: ٧٧].

والآيات في ذلك كثيرةٌ جدًا.

ب–الأدلة من السنة.

١– **حديث أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)**، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (**احتجّ آدمُ وموسى، فقالَ له موسى: يا آدم، أنتَ أبونا، خَيَّبْتَنا وأخرَجْتَنا من الجنَّة، قال له آدم: يا موسى، اصطفاكَ الله بكلامِهِ، وخَطَّ لكَ [التوراةَ] بيدِهِ، أتلومُني على أمْرٍ قدَّرهُ الله عليَّ قبلَ أن يخلقَني بأربعينَ سنةً؟ فحَجَّ آدمُ موسى، فحَجَّ آدمُ موسى –ثلاثًا–**).(١)

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٦٠)، (٩/ ٣٨٨)، (١١/ ٥٤٨–٥٤٩)، ومسلم رقم: (١٢٧).

٢- **حديث جابر بن عبد الله-رضي الله عنه-(ت: ما بين ٧٣ إلى ٧٧ هـ)**، قال: "كانَ النبيُّ-صلى الله عليه وسلم-يَعْرِضُ نفسَه على الناس بالموقفِ فيقول: **(هلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُني إلى قومِهِ؟ فإنَّ قريشًا قدْ مَنعوني أن أبلِّغَ كلامَ رَبِّي عَزَّ وجلَّ)**.الحديث.(١).

٣ - **حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "فضلُ كلامِ الله على سائرِ الكلامِ كفَضْلِ الله على سائرِ خلقِه".(٢)

٤-**حديث أبي أمامةَ-رضي الله عنه-(ت: ٨١ أو ٨٦ هـ)** أنَّ رجلًا أتى النبيَّ-صلى الله عليه وسلم-قال: يا نبيَّ الله، أنبيَّاً كانَ آدمُ؟ قالَ: **(نَعَمْ، مُكَلَّمًا)**.قَالَ: كم بينَه وبينَ نُوحٍ؟ قالَ: **(عَشرةُ قُرون)**.(٣)

٥-**حديث النعمان بن بشير-رضي الله عنه-(ت: ٦٥ هـ)**، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إنَّ اللهَ كَتَبَ كتابًا قبلَ أن يخلقَ السماواتِ والأرضَ بألفَي عام، فأنزلَ منه آيتين ختمَ بِهما سورةَ البقرةِ، فلا تقْرآنِ في "دارٍ ثلاثَ ليالٍ فيقرَبُها شَيْطانٌ).(٤)

٦-**حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، قال: سمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: **(يَقبِضُ اللهُ الأرضَ، ويَطْوِي السَّماواتِ بيمينه، ثمَّ يقول: أنا المَلِكُ؛ أَينَ**

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٠)، وأبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجة (٢٠١)، والدارمي (٣٣٥٧)، والنسائي في "الكبرى" -كما في "تحفة الأشراف" (٢/ ١٧٥)-، والبخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (٨٦، ٢٠٥)، وعثمان الدارمي في "الرد على الجهمية" رقم (٢٨٤)، والحاكم (٢/ ٦١٢ – ٦١٣)، وأبو نعيم في "دلائل النبوة" رقم (٢١٧)، واللالكائي في "السنة" رقم (٥٥٤، ٥٥٥)، والبيهقي في "الاعتقاد" (ص: ١٠٠)، و"الأسماء والصفات" (ص: ١٨٧)، و"دلائل النبوة" (٢/ ٤١٣)، وإسماعيل بن الفضل الأصبهاني في "الحجة" (ق ٤٨/ أ-ب) من طرق عن إسرائيل: حدثنا عثمان ابن المغيرة عن سالم بن أبي الجعد عن جابر به.

(٢) أخرجه عثمان الدارميُّ في "الرَّدِّ على الجَهْمِيَّة" رقم (٢٨٧، ٣٤٠)، واللالكائي رقم (٥٥٧)، والترمذي رقم (٢٩٢٦)، والدارمي رقم (٣٣٥٩)..

(٣) أخرجه الدارمي في "الرد على الجهمية" رقم (٢٩٩)، وابن حبان رقم (٢٠٨٥-موارد)، والطبراني في "الكبير" (٨/ ١٣٩-١٤٠)، و"الأوسط" رقم (٤٠٥)، والحاكم (٢/ ٢٦٢)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (ص: ٢٠٦)، وابن عساكر (٢/ ٣٢٥/ ب)، وقال الحاكم: "صحيح على شرط مسلم"وأقرّه الذهبي، وابن كثير في "البداية والنهاية" (١/ ١٠١). وقال الهيثمي في "المجمع" (١/ ١٩٦) و (٨/ ٢١٠): "رجاله رجال الصحيح" زاد في الموضع الثاني: "غير أحمد بن خُليد الحلبي وهو ثقة"

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٤)، والترمذي رقم (٢٨٨٢)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (٩٦٧)، والدارمي رقم (٢٢٩٠)، وابن حبان رقم (١٧٢٦ - موارد)، والحاكم ١/ ٥٦٢ أو البيهقي في "الأسماء والصفات" (ص: ٢٣١ – ٢٣٢).

مُلوكُ الأرضِ؟ " وفي لفظ: "يَقبِضُّ الله الأرضَ يوم القيامة ...).(١)

٧- **وحديث عَدِىّ بنِ حاتِمٍ-رضي الله عنهما-(ت: ٦٦ أو ٦٩ هـ)**، قالَ: قالَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-:

(ما مِنْكمْ من أحَدٍ إلا سيكلِّمُهُ الله، ليسَ بينَه وبينَه تُرْجُمانٌ، فينظُرُ أيْمَنَ منه فلا يَرى إلاَّ ما قدَّم، وينظُرُ بينَ يدَيْهِ فَلَا يَرى إلاَّ النَّارَ تِلقاءَ وَجْهِهِ، فاتَّقوا النَّارَ ولو بشِقِّ تَمْرةٍ).

وفي لَفْظٍ: **(ما مِنْكُمْ من أحْدٍ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، ليسَ بينَه وبينَه تُرْجُمانٌ ولا حِجَابٌ يَحْجُبُه)**.(٢)

وبوَّب البخاري في «صحيحه» على ذلك فقال: «باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة» (٣)، وقال لأهل النار: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ [المؤمنون: الآية: ١٠٨].

ثانيًا: أن الله تعالى لم يَزل متكلِّمًا، إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء.

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "منشأ النزاع بين الطوائف أن الرب تعالى هل يتكلم بمشيئته أم كلامه بغير مشيئته على قولين،

فقالت طائفة: كلامه بغير مشيئته واختياره، ثم انقسم هؤلاء أربع فرق،

١-قالت فرقة: هو فيض فاض منه بواسطة العقل الفعال على نفس شريفة فتكلمت به كما يقول ابن سينا وأتباعه وينسبونه إلى أرسطو.

٢-وفرقة قالت: بل هو معنى قائم بذات الرب تعالى هو به متكلم، وهو قول الكلابية ومن تبعهم، وانقسم هؤلاء فريقين،

فرقة قالت: هو معان متعددة في أنفسها أمر ونهي وخبر واستخبار، ومعنى جامع لهذا الأربعة، وفرقة قالت: بل هو معنى واحد بالعين لا ينقسم ولا يتبعض.

وفرقة قالت: كلامه هو هذه الحروف والأصوات، خلقها خارجة عن ذاته، فصار بها متكلما، وهذا قول المعتزلة وهو في الأصل قول الجهمية تلقاه عنهم أهل الاعتزال فنسب إليهم.

٣-وفرقة قالت: يتكلم بقدرته ومشيئته كلاما قائما بذاته سبحانه كما يقول به سائر أفعاله

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥٥١) و (١١/ ٣٧٢) و (١٣/ ٣٦٧)، ومسلم رقم (٢٧٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٦)، والبخاري (١١/ ٤٠٠) و (١٣/ ٤٢٣، ٤٧٤)، ومسلم (٢/ ٧٠٣-٧٠٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٩/ ١٥١).

لكنه حادث النوع، وعندهم أنه صار متكلما بعد أن لم يكن متكلما كما قاله من لم يصفهم من المتكلمين أنه صار فاعلا بعد أن لم يكن، فقول هؤلاء في الفعل المتصل كقول أولئك في الفعل المنفصل، وهذا قول الكرامية.

٤-وفرقة قالت: يتكلم بمشيئته، وكلامه سبحانه هو الذي يتكلم به الناس كله حقه وباطله وصدقه وكذبه، كما يقوله طوائف الاتحادية.

وقال أهل الحديث والسنة: إنه لم يزل سبحانه متكلما إذا شاء ويتكلم بمشيئته ولم تتجدد له هذه الصفة، بل كونه متكلما بمشيئته هو من لوازم ذاته المقدسة، وهو بائن عن خلقه بذاته وصفاته وكلامه، وليس متحدا بهم ولا حالا فيهم".(١)

قال الإمام أحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): "بل نقول: إن الله لم يزل متكلما إذا شاء ولا نقول: إنه كان ولا يتكلم حتى خلق الكلام.ولا نقول: إنه قد كان لا يعلم حتى خلق علما فعلم، ولا نقول: إنه قد كان ولا قدرة له حتى خلق لنفسه القدرة، ولا نقول: إنه كان قد كان ولا نور له حتى خلق لنفسه نورا، ولا نقول: إنه قد كان ولا عظمة له حتى خلقه لنفسه عظمة".(٢)

وقال عبد المغني المقدسي-رحمه الله-(ت: ٦٠٠ هـ): "مذهب أهل الحق أن الله عز وجل لم يزل متكلما بكلام مسموع مفهوم مكتوب".(٣)

وقال ابن أبي العز الحنفي-رحمه الله-(ت: ٧٩٢ هـ): "والحق أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن من كلام الله حقيقة، وكلام الله تعالى لا يتناهى؛ فإنه لم يزل يتكلم بما شاء إذا شاء كيف شاء، ولا يزال كذلك ...كلام الله محفوظ في الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف".(٤)

قال عبد الباقي المواهبي الحنبلي-رحمه الله-(ت ١٠٧١ هـ): "قال الأئمة: إن الله سبحانه وتعالى يتكلم بمشيئته وقدرته، بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء، فإن الكلام صفة

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٥٢٧-٥٢٨).
(٢) كتاب الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد (ص: ١٣٩).
(٣) الاقتصاد في الاعتقاد (١/ ١٣٠).
(٤) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ١٩٢).

كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لم يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته، أكمل ممن يكون الكلام ممكنا له".(١)

ثالثًا: القرآن كلام الله.

من أركان الإيمان السّتة: الإيمانُ بالكُتُبِ التي أنزلها اللهُ، كما دلَّ على ذلك قولُه سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا**﴾ [النساء: الآية: ١٣٦]، وكذلك جاء في حديث جبريل عليه السلام، وفيه: (الإيمان)، قال: (**أن تُؤمن باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِر، وتُؤمن بالقَدَرِ؛ خَيْرِه وشَرِّه**).(٢)

ومن الإيمانِ بالكتب: الإيمانُ بِأَنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ.

والقرآنُ في الأصل: مصدر قرأ قراءة وقرآنًا؛ قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾ [القيامة: ١٧]، أي: قراءته، فهو مَصدر على وزن فُعلان-بالضم- كالغُفران والشُّكران.(٣)

وفي الاصطلاح هو: «كلام الله المنَزَّل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، المعجز بلفظه ومعناه، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس".(٤)

والقرآنُ كلامُ الله، وهو صِفَةٌ مِن صِفَاتِهِ عز وجل؛ قال تَعَالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾ [التوبة: الآية:٦]، وروي عن **جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما-(ت: ما بين ٧٣ إلى ٧٧ هـ)** أنه قَالَ: "كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفسَهُ

(١) كتاب العين والأثر في في عقائد أهل الأثر (ص: ٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما-.

(٣) انظر: لسان العرب (١/ ١٢٩)، ومناهل العرفان للزرقاني (١/ ٧).

(٤) انظر: مناهل العرفان (١/ ١٠-١٣)، و«مباحث في علوم القرآن» لمناع القطان (ص: ٢٠-٢١).

فِي المَوْسِمِ؛ فَيَقُولُ: (أَلَا رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ لِأُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي).(١)

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "إنَّ سلفَ الأمَّةِ وأئمَّتَها كانوا على الإيمان الذي بعثَ الله به نبيَّه–صلى الله عليه وسلم–، يصِفون الله بما وصَف به نفسَه، وبما وصَفَه به رسولُهُ من غير تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، ويقولون: إنَّ القرآنَ كلامُ الله تعالى، ويصفونَ الله بما وصفَ به نفسَهُ، من التكليمِ، والمناجاة، والمناداةِ، وما جاءت به السُّنَنُ والآثارُ موافقةً لكتاب الله تعالى".(٢)

رابعًا: القرآن غير مخلوق.(٣).

الذِي عَلَيهِ إجماعُ السَّلفِ الصَّالحِ مِنَ الصَّحابةِ–رضي الله عنهم–وَالتَّابعِينَ لَهم بِإحسَانٍ: أَنَّ القرانَ كلامُ اللهِ غَيرُ مَخلوقٍ؛ حُرُوفه وَمَعَانِيه، مُنَزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ نَزَلَ بِهِ جبريلُ عليه السلام إِلَى نَبِيِّنَا ﷺ.فكلامُ الله تعالى صفةٌ من صفاتهِ غيرُ مَخلوقٍ كسائر صِفاتِه، سَواء كان القرآن العربيَّ، أوِ التَّوراةَ العِبريَّةَ، أو غيرَ ذلك من كلامِهِ تعالى، ممَّا وقَعَ من كلامِهِ، وممَّا لَم يقع بَعْدُ.

ولَقَدْ كانَ السَّلفُ في صَدْرِ الإسلام في غِنًى عن إطلاقِ لفظِ (غير مخلوق) لأنَّه كانَ من المسَلَّمِ عندهم أنَّ كلامَ الله صفةٌ مِن صفاتِهِ، وصفاتُهُ غيرُ مَخلوقةٍ، حتى ظَهَرت الجَهميةُ، فنفَتْ صفةَ الكلامِ عن الله تعالى، لكنْ لما كانَ هذا القولُ منكَراً شَنيعاً، تَنفرُ منه قلوبُ الناسِ، وتقشَعِرُّ منه جلودُهم، ويرفُضُهُ إيمانُهُمْ، أبدَلوهُ بقَوْلِهم: كلامُ الله مَخْلوقٌ، فتظاهَروا بإثباتِ الكلامِ، وأبطلُوهُ بقولهم: مخلوقٌ.

فلمَّا كانَ حقيقةُ قَوْلِهم إبطالَ صفةِ الكلامِ وتَعطيلَها قابَلهم السَّلَفُ برفْضِ هذهِ البدعةِ وإنكارِها، والتَّشديدِ عليهم في ذلكَ، بل وتكفيرِهم، لأنَّ حقيقةَ قولهم الكفرُ، لِما تضمَّنَ من تكذيبِ القرآنِ، وإثبات النَّقْصِ للرَّحمنِ، فقالَ السَّلَفُ حينئذٍ: (كلامُ الله –كالقرآن وغيره– غيرُ مخلوقٍ).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١)، والحاكم (٢/ ٦٦٩) وصححه، من حديث أبي هريرة–رضي الله عنه–، وقال في «المجمع» (٦/ ٣٥): «رجاله ثقات"

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٥١٨).

(٣) المصدر: كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبد الله بن يوسف الجديع.

ولقَدْ كانَتْ لهذه العقيدةُ مبنيَّةً على أسُسٍ متينةٍ وقَواعدَ عظيمةٍ من الكتابِ والسُّنَّةِ، والمعقولِ الصَّريحِ، ونُصوصِ السَّلَفِ وكَلامِهم، خِلافًا لما يحسَبُه الجاهلونَ.

الأدلة من القرآن الكريم:

١ – قالَ الله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤].

والاحتجاجُ بهذه الآيةِ من وَجْهَيْنِ:

الأول: أنَّه تعالى فرَّقَ بين الخَلْقِ والأمْرِ، وهما صِفَتان من صِفاتِهِ، أضافَهما إلى نفسهِ، أمَّا الخَلْقُ فَفِعْلُهُ، وأمَّا الأمرُ فقولُهُ، والأصْلُ في المتعاطفين التَّغايُرُ إلاَّ إذا قامَتِ القرينةُ على عَدم إرادَة ذَلكَ، وهنا قد قامتِ القرائنُ على توكيدِ الفَرْقِ بَيْنَهُما، ومنها الوجهُ الآتي.

والثاني: أنَّ الخَلْقَ إنَّما يكونُ بالأمْرِ، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [يس: الآية: ٨٢].

فقوله تعالى: ﴿**كُنْ**﴾ هو أمْرُهُ، فلو كانَ مَخْلوقاً لاحتاجَ خلقُهُ إلى أمْرٍ، والأمْرُ إلى أمرٍ، إلى ما لا نِهاية، وهذا باطلٌ.

وقد احَتجَّ الإمامُ أحمدُ–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) على الجَهْمِيَّة المعْتزلةِ بهذه الآية.

قال–رحمه الله–: "قلتُ: قال الله: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ والأمْرُ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤]، ففرَّقَ بين الخَلْقِ والأمْرِ".(١)

وقال لهم: "قال الله: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللهِ** ...﴾ [النحل: الآية: ١] فأمْرُهُ كلامُه واستطاعَتُهُ ليسَ بمخلوقٍ، فلا تَضْرِبوا كِتابَ الله بعضَهُ بِبعضٍ".(٢)

وقالَ فيما كتَبَهُ للمتوكِّل حينَ سألَهُ عن مَسألةِ القرآنِ: "وقَدْ قالَ الله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ...﴾ [التوبة: الآية: ٦]، وقَالَ: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤]، فَأخبَرَ بالخَلْقِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿**وَالأمْرُ**﴾، فأخبرَ أنَّ

(١) رواه حنبل في "المحنة" (ص: ٥٣) عن أحمد.

(٢) رواه حنبل في "المحنة" (ص: ٥٤) عنه.

الأمرَ غَيْرُ مَخلوقٍ".(١)

وقد سبَقَ الإمامَ أحمد إلى هذا الاحتجاج شيخُه الإمامُ **سفيانُ بن عُيَيْنَةَ الهِلاليُّ–الحافظُ الثِّقةُ الحُجَّةُ–(ت: ١٩٨ هـ)**، فقالَ رَحمه الله: "ما يَقولُ هذا الدُّوَيْبَّةُ؟ " –يعني بشرًا المريسِيّ–

.

قالوا: يا أبا محمَّدٍ، يزعُمُ أنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ،

فقالَ: "كَذَبَ، قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأمْرُ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤]، فالخَلْقُ خَلْقُ الله تبارك وتعالى، والأمْرُ القرآنُ".(٢)

قال الحافظُ هبةُ الله ابنُ الطَّبَرِيّ–رحمه الله–(ت: ٤١٨ هـ)، عقبَ هذا: "وكذلكَ قالَ أحمدُ بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ)، ونُعَيْمُ بن حمَّادٍ (ت: ٢٢٨ هـ)، ومحمَّدُ بن يحي الذُّهْليُّ (ت: ٢٥٨ هـ)، وعَبْدُ السَّلام بن عاصمٍ الرازيُّ، وأحمدُ بن سِنانٍ الواسطيُّ (ت: ٢٥٦ هـ)، وأبو حاتِمٍ الرازيُّ (ت: ٢٧٧ هـ)".(٣)

٢ – وقالَ تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ**﴾ [الرحمن: الآيات: ١ – ٣].

ففرَّقَ تعالى بينَ عِلمهِ وخَلْقِهِ، فالقرآنُ عِلْمُهُ، والإنسانُ خلقُهُ، وعِلْمُهُ تعالى غيرُ مَخلوقٍ.

قالَ تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ [البقرة: الآية: ١٤٠].

وقالَ تعالى: ﴿...**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: الآية: ١٤٥].

وقالَ تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ**﴾ [الرعد: الآية: ٣٧].

فسمَّى الله تعالى القرآنَ عِلْماً، إذْ هو الذي جاءَه مِنْ رَبِّهِ؟ وهو الذي عَلَّمهُ الله تعالى إيَّاه

(١) رواه صالح ابنه في "المحنة" روايته (ص: ١٢٠–١٢١).

(٢) رواه الآجري في "الشريعة" (ص: ٨٠)، وابن الطبري في "السنة" رقم (٣٥٨) والخطيب في "تاريخ بغداد" (٩/ ٨٨–٨٩) بسند جيد عنه.

(٣) ابن الطبري في "السنة" رقم (٣٥٨).

-صلى الله عليه وسلم-، وعِلْمُهُ تعالى غيرُ مَخلوقٍ، إذ لو كانَ مخلوقًا لاتَّصَفَ تعالى بِضدِّهِ قبلَ الخَلْقِ، تعالى الله عن ذلك وتنزَّه وتقدَّس.

وبهذا احتجَّ **الإمامُ أحمدُ**-رحمه الله-**(ت: ٢٤١ هـ)**، على الجَهْميةِ فيما كتبَهُ للمتوكِّل في مسألة القرآنِ.

قالَ-رحمه الله-: "قالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾، فَأخبرَ تَعالى أنَّ القرآنَ مِنْ عِلْمِهِ" ثمَّ احتجَّ بالآياتِ الثلاثِ المذكوراتِ، ثمَّ قال: "فالقرآنُ من علم الله تعالى، وفي هذه الآيات دليلٌ على أنَّ الذي جاءَه -صلى الله عليه وسلم- هو القرآنُ، لقولِهِ: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ [البقرة: الآية: ١٢٠]."(١).

وقالَ-رحِمَه الله-في حكايةِ مُناظرتِهِ للجَهْميةِ في مَجْلس المعتصِم: "قالَ لي عبدُ الرَّحمن القزّازُ(٢): كانَ اللهُ ولا قرآنَ، قلتُ له: فكانَ الله ولا عِلْم! فأمْسَكَ، ولَوْ زعَمَ أنَّ اللهَ كانَ ولا عِلْم لكفَرَ باللهِ".(٣)

وقيلَ له-رحِمَه الله-: قومٌ يقولونَ: إذا قال الرَّجُلُ: كلامُ الله ليسَ بمخلوقٍ، يقولون: مَنْ إمامُكَ في هذا؟ ومِنْ أيْنَ قلتَ: ليس بمخلوقٍ؟ قال:

"الحجَّة قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ [البقرة: الآية: ١٢٠]، فما جاءَه غيرُ القرآن".

قال: "القرآنُ من عِلْمِ الله، وعلمُ الله ليسَ بمخلوقٍ، والقُرْآنُ كلامُ الله ليسَ بمخلوقٍ، ومثلُ هذا في القرآنِ كثيرٌ".(٤)

وقالَ رحِمَه الله: "القُرآنُ علمٌ مِنْ عِلمِ الله، فمَنْ زعَمَ أنَّ عِلمَ الله مخلوقٌ فهو كافرٌ".(٥)

٣ - وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف: الآية: ١٠٩].

(١) رواه صالح في "المحنة" (ص: ١٢١)، وعبد الله في "السنة" رقم (١٠٧) عن أبيهما به.

(٢) أحدُ مناظِري الإمام بحضرة المعتصم.

(٣) رواه حنبل في "المحنة" (ص: ٤٥)، عنه.

(٤) رواه صالح في "المحنة" (ص: ٦٩)، عنه.

(٥) رواه ابن هانئ في "المسائل" (٢/ ١٥٣، ١٥٤)، عنه.

وقالَ تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [لقمان: الآية: ٢٧].

فأخبرَ تعالى -وقولُهُ الحَقُّ- أنَّ كَلِماتِهِ غيرُ مُتَناهِيَةٍ، فَلو أنَّ البحارَ التي خَلَقَ الله كانتْ مِدادًا تُكْتَبُ به، والشَّجَرَ الذي خلقَ الله أقلاماً تُخَطُّ بِهِ، لَنَفِدَ مِدادُ البُحورِ، وَلَفَنِيَت الأقْلاَمُ، ولم تَفْنَ كَلِماتُ الله.

وإنَّمَا فِي هذه الإبانةُ عن عَظَمَةِ كَلَامِهِ تعالى، وأنَّه وَصْفُهُ وَعِلْمُهُ، وهذا لا يُقاسُ بالكلامِ المخلوقِ الفاني، إذ لَوْ كان مخلوقًا لَفَنِيَ من قبلِ أنْ يَفنى بَحْرٌ من البُحورِ، ولكنَّ الله تعالى إنَّما كَتَبَ الفناءَ على المخلوقِ لا عَلَى نفسِهِ وصِفَتِهِ.

٤ - أسماءُ الله تعالى في القُرآنِ، كـ (الله، الرحمن، الرحيم، السميع، العليم، العفور، الكريم ...) وغيرها من أسمائِهِ الحُسْنى، وهي من كلامِهِ، إذ هو الذي سَمَّى بها نفسَه، بألفاظِها وَمَعانيها.

وقد ساوى الله تعالى بين تَسبيحِ نَفْسِهِ وتَسبيحِ أسمائِهِ، فقال تعالى: ﴿**وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ [الأحزاب: الآية: ٤٢]، وقال: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾ [الأعلى: الآية: ١]، وقال: ﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ [الواقعة: الآيات: ٧٤، ٩٦ والحاقة: الآية: ٥٢].

وساوى تعالى بين دُعائِهِ بنفسهِ ودُعائِهِ بأسمائِهِ، فقال: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٥] وقال: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ [الإسراء: الآية: ١١٠] وقال: ﴿**وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: الآية: ١٨٠].

وكذلك ساوى تعالى بين ذِكْرِهِ بنفسهِ وذِكْرِهِ بأسمائِهِ، فقالَ: ﴿**وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً**﴾ [الأعراف: الآية: ٢٠٥] وقالَ: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ [الإنسان: الآية: ٢٥].

وهذا التَّسبيحُ والدُّعاءُ والذِّكْرُ إنْ كانَ يَقَعُ لمخلوقٍ كان كُفْراً بالله.

فإنْ قيلَ: إنَّ كلامَه تعالى مَخلوقٌ، كانتْ أسماؤُهُ داخِلةً في ذلكَ، ومَنْ زعَمَ ذلك فقَدْ كَفَرَ لِما ذكرنا، ولأنَّ معنى ذلكَ أنَّ الله تعالى لم تكن لَه الأسماءُ الحُسنى قبل خَلْقِ كلامهِ، ولَكانَ الحالفُ باسْم من أسمائِهِ مُشْرِكاً لأنه حلَفَ بمَخلوقٍ، والمخلوقُ غيرُ الخالقِ، وقد قالَ النَّبيُّ -

صلى الله عليه وسلم-: **(مَن حَلَفَ بغير الله فقد أشركَ)**.[١]

وبهذه الحُجَّةِ احتجَّ جماعةٌ من السَّلفِ والأئمَّةِ على كَوْنِ القرآنِ غيرَ مخلوقٍ، منهم:

١) **الإمام الحُجَّة سُفيان بن سَعيد الثوريّ-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ).**

قال: "مَنْ قالَ: إنَّ ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ [الإخلاص: الآيات: ١-٢] مخلوقٌ، فهو كافِر".[٢]

٢) **ناصرُ السُّنَّة أبو عبد الله محمَّد بن إدريسَ الشَّافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ).**

قال: "مَنْ حَلَفَ باسمٍ مِن أسماءِ الله فحنَثَ فعليه الكفَّارة، لأنَّ اسمَ الله غيرُ مَخلوقٍ، ومن حلَفَ بالكعبةِ، أو بالصَّفا والمرْوةِ، فليسَ عليه الكفَّارةُ، لأنَّهُ مَخلوقٌ، وذاكَ غيرُ مَخْلوقٍ".[٣]

٣) **إمامُ أهل السُّنَّة أحمدُ بن حَنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ).**

قال: "مَنْ قالَ: القرآن مخلوق فهو عندنا كافرٌ، لأنَّ القُرآن من عِلْمِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وفيه أسماءُ الله عَزَّ وَجَلَّ".[٤]

وقالَ: "وأسماءُ الله في القُرْآنِ، والقُرْآنُ من عِلْمِ الله، فمَنْ زَعَمَ أنَّ القرآنَ مخلوقٌ فهو كافرٌ، ومن زعَمَ أنَّ أسْمَاءَ الله مخلوقةٌ فقدْ كَفَرَ".[٥]

وذَكَرَ لَه رَجُلٌ أنَّ رَجُلاً قالَ: إنَّ أسماءَ الله مخلوقةٌ، والقرآنُ مخلوقٌ، فقال أحمدُ: "كُفْرٌ بَيِّنٌ".[٦]

وقالَ: "أسْماءُ الله في القرآنِ، والقرآنُ من عِلْم الله، وعِلْمُ الله ليس بمخلوقٍ، والقرآنُ كلامُ الله ليسَ بمخلوقٍ على كلِّ وجهٍ، وعلى كلِّ جهةٍ، وعلى أيِّ حالٍ".[٧]

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٤٩٠٤، ٦٠٧٢)، وأبو داود رقم (٣٢٥١)، والترمذي رقم (١٥٣٥)، وابن حِبّان رقم (١١٧٧-موارد)، والحاكم (١/ ١٨) و (٤/ ٢٩٧)، وآخرون من حديث عبد الله بن عمر به. وحسّنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقرَّه الذهبي.

(٢) أخرجه عبد الله في "السنة" رقم (١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في "آداب الشافعي" (ص: ١٩٣)، وأبو نعيم (٩/ ١١٣)، والبيهقي في "السنن" (١٠/ ٢٨) و"الأسماء والصفات" (ص: ٢٥٥ – ٢٥٦)، و"المناقب" (١/ ٤٠٥) بإسناد صحيح.

(٤) رواه ابنه عبد الله في "السنة" (١/ ١٠٢).

(٥) رواه ابنه صالح في "المحنة" (ص: ٥٢، ٦٦ – ٦٧).

(٦) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٢)، عنه.

(٧) رواه ابنه صالح في "المحنة" (ص: ٦٩).

وكما أنَّه تعالى لا يوصَف بصفةٍ مخلوقةٍ، فلا يسمَّى باسم مخلوقٍ.

٥ – أخبرَ تعالى عن تَنزيلِه منه وإضافتهِ إليهِ، كما قالَ: ﴿**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [السجدة: الآية: ٢]، وقالَ: ﴿**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ [الأنعام: الآية: ١١٤]، وقال: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ [النحل: الآية: ١٠٢]، ولَم يُضِف شيئًا ممَّا أنزلَه إلى نفسِه غير كلامِهِ (١)، ممَّا دَلَّ على الاختصاصِ بمَعنى، فليسَ هو كإنزالِ المطَرَ والحديد وغير ذلك، فإنَّ هذه الأشياءَ أخبرَ عن إنزالِها، لكنَّه لم يُضِفْها إلى نفسِهِ، بخِلافِ كلامِهِ تعالى، والكلامُ صِفَةٌ، والصِّفَةُ إنَّمَا تُضافُ إلى مَن اتَّصَفَ بها لا إلى غيرِهِ، فلو كانت مخلوقةً لفارقت الخالقَ، ولم تصلحْ وَصْفاً له، لأنَّه تعالى غَنِيٌّ عن خَلقِهِ، لا يَتَّصفُ بشيءٍ منه.

الأدلة السنة:

١ – **حديث خَوْلَةَ بنت حَكيم السُّلميَّة–رضي الله عنها–**، قالَتْ: سَمِعْتُ رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم–يقول:

(مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ: أعوذُ بِكَلِماتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ، لم يَضُرَّهُ شَيْءٌ حتَّى يرتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذلكَ).(٢)

وحديثُ أبِي هُرَيْرَةَ–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)، قالَ: جاء رجلٌ إلى النَّبِيِّ–صلى الله عليه وسلم–، فقال: يا رَسُولَ الله، ما لَقِيتُ مِنْ عَقْربٍ لَدَغَتْني البارحةَ، قال:

(أما لَو قُلْتَ حين أمْسَيْتَ: أعوذ بكلماتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ لم تَضُرَّكَ).(٣)

وفي سياق آخرَ عنه قال: قال النَّبِيُّ–صلى الله عليه وسلم–:

(مَنْ قالَ إذَا أمْسى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أعوذُ بكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ من شَرِّ ما خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّهُ حُمَةٌ تلك اللَّيْلة).

---

(١) انظر: "مجموع الفتاوى": (١٢/ ٢٤٧، ٢٩٧).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٧، ٤٠٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٠)، والترمذي رقم (٣٤٣٧)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (٥٦٠، ٥٦١) وابن ماجة رقم (٣٥٤٧) من حديث سعد بن أبي وقاص عن خولة به. وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح غريب".

(٣) أخرجه مالك (٢/ ٩٥١)، وأحمد (٢/ ٣٧٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٨١)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (٥٨٥ – ٥٨٩، ٥٩١ – ٥٩٢) وابن ماجة رقم (٣٥١٨).

قال: فكان أهلُنا قد تعلَّموها، فكانوا يقولونَها، فلُدِغَتْ جاريةٌ منهم، فلم تَجِدْ لها وَجَعاً". [١]

وحَديثُ عبد الله بن عباسٍ–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)، أنَّ رَسولَ الله–صلى الله عليه وسلم–كانَ يُعَوِّذُ حَسَنًا وحُسَيْنًا، يقولُ:

"أعيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيطانٍ وهامَّةٍ، ومِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ".

وكانَ يقولُ: **"كانَ إبْراهيمُ أبي يُعَوِّذُ بهما إسْماعيلَ وإسحاقَ".** [٢].

فأثبتَ النَّبيُّ –صلى الله عليه وسلم– بما ذَكَرْناهُ عنه شرعيَّةَ الاستعاذةِ بكلماتِ الله، فلو كانَتْ كلماتُهُ مخلوقةً لكانت الاستعاذةُ بها شِرْكًا، لأنَّها استعاذةٌ بمَخلوقٍ، ومن المعلوم أنَّ الاستعاذةَ بغير الله تعالى وأسمائِهِ وصفاتِهِ شِرْكٌ، فكيفَ يَصِحُّ أن يُعلِّمَ النَّبيّ–صلى الله عليه وسلم–أمَّتَه ما هو شركٌ ظاهرٌ، وهو الذي جاءهم بالتَّوحيدِ الخالصِ؟

فدلَّ هذا على أنَّ كلماتِ الله تعالى غيرُ مخلوقةٍ.

وقالَ نُعَيْمُ بن حمَّاد (شيخُ البخاري، ومن أئمَّة السُّنَّة): "لا يُستعاذُ بالمخلوقِ، ولا بكلامِ العباد والجنّ والإنسِ والملائكةِ".

وقال البخاري عَقِبهُ: "وفي هذا دَليلٌ أنَّ كلامَ الله غيرُ مخلوقٍ، وأنَّ سواه خَلْقٌ" [٣].ثمَّ احتجَّ البخاريُّ لذلك بما ذكرنا.

واعترضَ بعضُ أهل البدَعِ على هذه الحُجَّة بقوله –صلى الله عليه وسلم–: **"اللَّهمَّ أعوذُ برِضاكَ من سَخَطِكَ، وبمُعافاتِك من عُقوبَتِك** ..." الحديث [٤]، فقالوا: فاستعاذَ النبي –صلى

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٠)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (٥٩٠).

(٢) أخرجه أحمد رقم (٢١١٢، ٢٤٣٤)، والبخاري (٦/ ٤٠٨)، وأبو داود رقم (٤٧٣٧)، والترمذي رقم (٢٠٦٠)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (١٠٠٦، ١٠٠٧)، وابن ماجة رقم (٣٥٢٥)، من طريق منصور بن المعتمر عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح"..

(٣) "خلق أفعال العباد" ص: ١٤٣.

(٤) حديث صحيح. مرويٌّ من حديث عائشة وعلي، رضي الله عنهما.

أما حديث عائشة، فأخرجه أحمد (٦/ ٥٨، ٢٠١)، ومسلم رقم (٤٨٦)، وأبو داود رقم (٨٧٩)، والنسائي (١/ ١٠٢ و ٢/ ٢١٠)، وابن ماجة رقم (٣٨٤١) من طريق عُبَيْد الله ابن عمر عن محمد بن يحيى بن حَبَّان عن الأعرج عن أبي هريرة عن عائشة قالت: فَقَدْتُ رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– ليلة من الفراش، فالتمسْتُهُ، فوقَعتْ يَدِي على بطنِ قَدَمَيْه وهو في المسجد، وهما منصوبتان (زاد في بعض الطرق: وهو ساجد) وهو يقولُ: (اللَّهمَّ أعوذُ برضاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبمعافاتك من عقوبتِكَ، وأعوذُ بكَ منكَ، لا أحصي ثناءً

=

الله عليه وسلم-بالرِّضا والمعافاة وهما مَخلوقان.

والجوابُ: أن هذا الاعتراضَ من فاسدِ الفهْم الذي أدخلَه عليهم الشيطانُ-لعنه الله- وذلك أنَّهم حَسِبوا أنَّ الرِّضا والمعافاةَ من خَلْقه تعالى، جَرْياً على سُنَّتِهم في أنَّ الله تعالى لا يقوم به اختيارٌ ولا مَشيئة، والرِّضا والمعافاةُ إنَّما يتعلَّقان بالمشيئةِ، وكلُّ ما تعلَّقَ بالمشيئة فهو مخلوقٌ.

وهذا الأصل الفاسِدُ جرَّهم إلى الوقوع في تعطيل جميع الصفاتِ الاختيارية، كالرِّضا، والغَضبِ، والرَّحْمةِ، والرَّأفةِ، والحُبِّ، والبُغْضِ، والإِنْعام، والانتقامِ، وغيرِها مَما يتعلَّقُ بمشيئتهِ تعالى واختيارِه.

والحَقُّ الأبلجُ الذي يبهَرُ أبصارَ أهلِ البِدَع أنَّه تعالى تقومُ به الصِّفاتُ الاختياريةُ، والاستعاذة بالرِّضا والمعافاةِ، استعاذةٌ بصفته تعالى، إذ رضاهُ تعالى صفتهُ التي يرضى بها عمَّنْ شاءَ من عبادهِ، ومعافاتُهُ صفَتُهُ التي يُعافي بها من شاءَ من عبادِهِ، والمخلوق إنَّما هو العافيةُ الموجودةُ في الناس، والتي كانت بمعافاتِهِ تبارك وتعالى، فتأمَّل هذا رحِمَكَ الله ترشَد إن شاءَ الله.

عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسِك).

وأخرجه مالك (١/ ٢١٤)، والترمذي رقم (٣٤٩٣)، والنسائي (٢/ ٢٢٢)، عن يحيى ابن سعيد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن عائشة بنحوه.

قلت: وهذا سند منقطع، محمد بن إبراهيم لم يسمَع من عائشةَ، وقد حسَّن الترمذي هذه الطريق لمجيء الحديث من غير هذا الوجه عن عائشة.

وللحديث طريق ثالثة.

أخرجها النسائي ٨/ ٢٨٣ - ٢٨٤ من حديث مسروق بن الأجدع عن عائشة به نحوه.

قلت: لكن إسناده ضعيف، لحال العلاء بن هلال أحد رجال الإسناد فإنَّه منكر الحديث جداً.

أما حديث علي رضي الله عنه. فأخرجه أحمد رقم (٧٥١، ٩٥٧)، وأبو داود رقم (١٤٢٧)، والترمذي رقم == (٣٥٦٦)، والنسائي (٣/ ٢٤٨ — ٢٤٩)، وابن ماجة رقم (١١٧٩) من طرق عن حماد بن سلمة عن هشام بن عمرو عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن عليّ أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- كان يقولُ في آخر وترِه: (اللَّهم إِنِّي أعُوذُ برضاكَ من سَخَطِكَ، وأعُوذُ بمعافاتِكَ من عقوبتِكَ، وأعوذُ بكَ منكَ، لا أحصي ثناءٌ عليك، أنتَ كما أثنيْتَ على نفسِكَ).

قال الترمذي: "حديث حسنٌ غريبٌ من حديث عليّ، لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه، من حديث حماد بن سلمة".

قلت: إسناده صحيح، وهشام هذا هو الفَزاري معروف برواية هذا الحديث، وهو ثقة.

وقد رواه عن عليّ أيضاً إبراهيم بن عبد الله بن عَبْدٍ القاري.

أخرجه النسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (٨٩١، ٨٩٢).

وإسناده منقطع، إبراهيم عن علي مرسل.

٢ - **حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **(فَضْلُ كلامِ الله على سائرِ الكلامِ كفَضْلِ الله على سائرِ خلقِهِ)**.[١]

تضمَّن هذا الحديث إثباتَ عقيدةِ السَّلَفِ (القرآن كلام الله غيرُ مخلوق) وذلك من وجهين:

الأوَّل: التفريق بين كلام الله وما سِواه من الكلام، والكلامُ إما كلامُ الله الذي هو صفته، أو الكلامُ المخلوق الذي يقَعُ من خلقِهِ، فأضافَ ما كانَ صفةً لله إلى الله، وعمَّمَ ما سِواهُ، ليشمَلَ كلَّ كلام سوى ما أضافه إلى الله، ولو كان الجميعُ مَخْلوقاً لِما كانت هناك حاجة إلى التفريق.

والثاني: جعلَ الفَرْقَ بينَ كلام الله وكلام غيره كالفَرْقِ بينَ ذاتِ الله وذاتِ غيره، فجعلَ كلامَه مساوياً لذاتِهِ، وكَلامَ المخلوقِ مساوياً لذات المخلوقِ، ولو كان كلامُهُ مخلوقاً لم يساوِه بذاتِهِ، فإنَّ الله تعالى ليسَ يُساويه شيءٌ غيرُ صفاتِهِ وأسمائِهِ.

وقد احتجَّ بهذا الإمام عثمان بن سعيد الدَّارِمِيُّ في "الردِّ على الجهمية" فقال بعدَما ذكَر الأحاديثَ في هذا المعنى:

"ففي هذه الأحاديث بيانُ أنَّ القرآنَ غير مخلوقٍ, لأنَّه ليس شيءٌ من المخلوقينَ من التفاوت في فَضْلِ ما بينهما كما بين الله وبينَ خلقِهِ في الفَضْلِ, لأنَّ فَضْلَ ما بين المخلوقين يُسْتَدْرَك، ولا يُسْتدرَكُ فَضْلُ الله على خلقِهِ، ولا يُحْصِيهِ أحَدٌ، وكذلك فَضْلُ كلامِهِ على كلام المخلوقين، ولو كانَ مخلوقاً لم يكن فضْلُ ما بينَه وبين سائر الكلام كفضْلِ الله على خلقِهِ، ولا كَعُشْرِ عُشْرِ جُزْءٍ من ألفِ ألفِ جُزْءٍ، ولا قريباً فافْهَموه، فإنَّه ليسَ كمثله شيءٌ, فليسَ كَكَلامِهِ كلامٌ، ولن يُؤْتى بمثلِهِ أبداً".[٢]

الأدلة من المعقول الصريح:

وذلك من وجهين:

الأول: أنَّ كلامَ الله إنْ كانَ مخلوقاً، فلا يخلو من أحَدِ حالَيْن:

الأولى: أنْ يكونَ مخلوقاً قائماً بذاتِ الله.

والثانية: أنْ يكونَ منفصلاً عن الله بائناً عنه.

---

(١) أخرجه عثمان الدارمي في " الرد على الجهمية " رقم: (٢٨٧، ٣٤٠)، واللالكائي رقم: (٥٥٧).

(٢) "الرد على الجهمية" (ص: ١٦٢-١٦٣).

وكلا الحالين باطلٌ، بل كفرٌ شنيعٌ.

أمّا الأولى فيَلزَمُ منها أن يقوم المخلوقُ بالخالقِ، وهو باطلٌ في قولِ أهلِ السُّنَّةِ، وعامَّةِ أهلِ البِدَعِ، فإنَّ الله تعالى مُستغنٍ عن خلقهِ من جميع الوجوهِ.

وأمّا الثانية فيلزَمُ تعطيلُ صفَةِ الكلام للباري تعالى، إذْ أنَّ الصفةَ إنَّما تقومُ بالموصوف -كما سبق تقريرةُ- لا تقومُ بسِواه، فإنْ قامَتْ بغير الموصوف كانت وصفاً لمن قامتْ به، وهذا معناه أنَّ الرَّبَّ تعالى غيرُ متكلّمٍ، وهو كفرٌ بَيّنٌ، كما بَيَّنا الدلالةَ عليه.

والثاني: علمتَ أنَّ الصفةَ لا تقومُ بنفسِها، فإن كانتْ صفةً للخالق قامت به، وإن كانتْ صفةً للمخلوقِ قامتْ به ولا بدَّ، فالحركةُ، والسُّكونُ، والقيامُ، والقعودُ، والقدرةُ، والإرادةُ، والعلمُ، والحياةُ، وغيرُها من الصِّفاتِ، إن أضيفت لشيءٍ كانت وصفاً لهُ، وهي تابعةٌ لمن قامَتْ به، فهذه صفاتٌ تُضاف للمخلوقِ، فهي صفات له حيث أضيفتْ له، ومنها ما يُضافُ إلى الخالق، كالقُدْرةِ والإرادةِ والعلمِ والحياةِ وغيرِ ذلك، فهي صفاتٌ له حيثُ أضيفت له، وحيثُ أضيفت للمخلوقِ فهي مخلوقةٌ، وحيثُ أضيفت للخالقِ فهي غير مخلوقةٍ.

فصفةُ الكلامِ كغيرها من الصِّفاتِ، لا بدَّ أن تقومَ بمَحَلٍّ، فإذا قامت بمَحَلٍّ كانت صفةً لذلك المِحَلِّ، لا صفةً لغيرِه، فإنْ هى أضيفت إلى الخالق تعالى فهيَ صفتُهُ، وإنْ أضيفتْ إلى غيرِهِ فهي صفةٌ لذلك الغيرِ، وصفةُ الخالقِ غير مخلوقةٍ كنفسهِ، وصفةُ المخلوقِ مخلوقةٌ كنفسهِ.

فلمَّا أضافَ الله لنفسه كلاماً، ووصَفَ نفسَهُ به، كان كلامُهُ غيرَ مخلوقٍ، لأنَّه تابعٌ لنفسِهِ، ونفسُهُ تعالى غيرُ مخلوقةٍ، والكلامُ في الصِّفات فَرْعٌ عن الكلامِ في الذاتِ.

فإنْ قيلَ: هو مخلوقٌ، قُلْنَا: إذاً يتنزَّهُ الله عن الاتّصافِ بمخلوقٍ، وأنتم تنزهونه تعالى بزَعْمِكُمْ عن قيام الحوادث به، فحيثُ نزّهتم ربَّكم تعالى عن ذلك فإنَّه يلزمُكُم أن لا تضيفوا إليه كلاماً، وبهذا تكذّبون السَّمْعَ والعقل الشاهِدَيْنِ على أنَّ لله تعالى صفةَ الكلام، كما قدْ بيَّناه فيما مضى.

لكنَّهم أبَوُا الإقرار بأنَّ كلامَ الله تعالى غيرُ مخلوقٍ بأدهى ممَّا سبَقَ من الباطل، فقالوا: نُثْبِتُ أنَّ الله متكلمٌ بكلامٍ قائمٍ في غيرِهِ، فكلَّم الله تعالى موسى بكلامٍ مَخَلوقٍ قائمٍ بالشَّجَرة، لا بهِ تعالى، فنحن نزَّهناه عن قيام الحوادث بهِ.

قُلْنا: جعلتُمُ الكلامَ إذاً صفةً للمَحَلِّ الذي قامَ به، وهو على قولِكم الشَّجَرةُ، فكانت

الشجرةُ بهذا هي القائلةُ لموسى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: الآية: ٣٠]، فانتفى حينئذ الفرقُ بين قولِ الشَّجرةِ وقول فرعونَ اللَّعين: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: الآية: ٢٤]؛ لأنَّ كلامَ الشجرةِ صفَتُها لا صفةُ الله، وكلامَ فرعونَ صفتُهُ، وكلٌّ ادَّعى الربوبيَّة، فلم يكن موسى إذاً مُحِقّاً في إنكارِهِ قولَ فرعونَ وقبولِهِ قولَ الشجرةِ.

سُبحان الله! كم تجُرُّ البدعُ على أهلِها من المحاذير؟

تأمَّل رحِمَكَ الله لهذا الكُفْرَ الصُّراح، الَّذي أوقعَ أهلَه فيه الابتداعُ المشِينُ، وعدَمُ الرِّضا والتَّسليم لحَقائق التَّنزيلِ، واستبدالُ الوحي الشريفِ بزُبالاتِ الأذْهانِ التي تُصَرِّفها الأهواءُ كيف شاءَت.

ولقد كانتْ هذه الحجَّةُ العَقْليَّة ممَّا احتجَّ به الإمامُ أحمدُ-رحمه الله-على الجَهْميةِ المعتزلةِ حين ناظرَهم بحضْرَةِ المعتصِم، قال-رحمه الله-:

"وهذه قصَّةُ موسى، قال الله في كتابهِ حكاهُ عن نفسهِ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾ [النساء: الآية: ١٦٤]، فأثبتَ الله الكلامَ لموسى كرامةً منه لموسى، ثمَّ قالَ بعدَ كلامهِ له ﴿تَكْلِيمًا﴾ تأكيداً للكلامِ، قالَ الله تعالى: يَا مُوسَى ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: الآية: ١٤]، وَتُنْكرونَ هذا، فتكونُ هذه الياءُ تَرِدُ على غير الله، ويكونُ مخلوقٌ يدَّعِي الرُّبوبية؟! ألَا هو الله عَزَّ وجَلَّ".[1].

وكذا احتجَّ بهذه الحُجَّة من أئمَّة السَّلَفِ

الثِّقةُ المأمونُ أبو أيوب سليمانُ بن داودَ الهاشميُّ-رحمه الله-(ت: ٢١٩ هـ)، فقال:

"مَنْ قالَ: القرآن مخلوقٌ فهو كافرٌ، وإن كانَ القرآنُ مخلوقاً كما زعمها فلِمَ صارَ فرعونُ أولى بأنْ يُخَلَّدَ في النَّارِ، إذْ قالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: الآية: ٢٤]، وزعَموا أنَّ هذا مخلوقٌ، والذي قال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: الآية: ١٤]، هذا أيضاً قد ادّعى ما ادّعى فرعونُ، فَلِمَ صارَ فرعونُ أولي بأن يُخَلَّدَ في النَّارِ من هذا، وكلاهُما مخلوقٌ؟ ".

قال البُخاريُّ-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ): فأخْبِرَ بذلكَ أبو عُبَيْد [2] فاستحسَنَه وأعجَبه.[3]

(١) رواه حنبل في "المحنة" (ص: ٥٢)، عنه.

(٢) أبو عُبَيد هو القاسم بن سلاَّم-رحمه الله-(ت: ٢٢٤ هـ) لغويُّ أهلِ الحديث.

(٣) "خلق أفعال العباد" رقم (٥٩) عن سليمان به.

كلام أئمة السلف في إثبات هذه العقيدة:

١-عمرو بن في دينار-رحمه الله-(ت: مابين: ١٢٥إلى ١٢٩ هـ) (من خيار أئمَّةِ التَّابعينَ):

قال: "أدركتُ أصحابَ النَّبي-صلى الله عليه وسلم-فَمَن دونَهم منذ سبعينَ سنة، يقولون: الله الخالقُ، وما سِواه مخلوق، والقرآن كلام الله، منه خَرجَ وإليه يعودُ".(١)

٢-قال إسحاقُ بن راهوَيْهِ-رحمه الله-(ت: ٢٣٨ هـ):

"وقد أدْرَكَ عَمْرُو بن دينارٍ أجلّةَ أصحابِ رسولِ الله-صلى الله عليه وسلم-، من البَدْريينَ، والمهاجِرينَ، والأنصار، مثل: جابر بن عبد الله، وأبي سعيدٍ الخُدْري، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عبَّاس، وعبد الله بن الزبير، وأجلّة التابعين، وعلى هذا مضى صدرُ هذه الأمَّةِ".(٢)

٣-جَعفر بن محمَّد بن عليّ بن الحُسَين المَعروف بـ "الصادق"-رحمه الله-(ت: ١٤٨ هـ) (إمامٌ ثقةٌ سُنِّيٌّ):

قال معاويةُ بن عمَّارٍ الدُّهْنِيُّ-رحمه الله-(ت: ١٧٥ هـ): قلْتُ لجَعْفر -يعني ابنَ محمد- إنَّهم يسألون عن القرآنِ: مخلوقٌ هو؟ قال:

"ليس بخالِقٍ ولا مَخلوقٍ، ولكنَّه كلامُ الله".(٣).

٤-مالك بن أنس-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ) (إمام دار الهجرة):

قال عبد الله بن نافع-رحمه الله-(ت: ١٨٦ هـ): كان مالكٌ يقول: "كلَّم الله موسى -صلى الله عليه وسلم- " ويقول: "القرآنُ كلامُ الله" ويستفظِع قولَ من يقول: القرآن مخلوق.(٤).

---

(١) أخرجه الدارمي في " الردّ على الجهمية" رقم (٣٤٤) و"النقض على المريسي" (ص: ١١٦)، والبيهقي في "السنن" (١٠/ ٢٠٥).

(٢) قول إسحاق هذا زاده البيهقي في "السنن" ١٠/ ٢٠٥ و"الأسماء والصفات" (ص: ٢٤٥)، عقب قول عمرو بن دينار، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (١٠٩) والدارمي في "الرد على الجهمية" رقم (٣٤٥) و"النقض على المريسي" (ص: ١١٦)، وعبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٣٢-١٣٤) وأبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٥)، والآجري في "الشريعة" (ص: ٧٧)، البيهقي في "الأسماء" (ص: ٢٤٦-٢٤٧)، و"الاعتقاد" (ص: ١٠٧)، من طريق معاوية به.

(٤) رواه صالح بن أحمد في "المحنة" (ص: ٦٦)، بسند صحيح عنه.

٥-سفيان بن عُيَيْنَة-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ) (إمامٌ حُجَّةٌ):

سئل عن القرآن؟ فقال: "كلامُ الله، وليس بمخلوقٍ".(١).

٦-عبد الله بن المبارك-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ) (ذاكَ العَلَم):

قال: "القرآنُ كلامُ الله عَزَّ وَجَلَّ، ليسَ بخالقٍ ولا مَخلوقٍ".(٢).

٧-أبو عبد الله الشَّافعيُّ الإمامُ-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ):

قالَ الرَّبيعُ بن سُلَيْمان-رحمه الله-(ت: ٢٧٠ هـ) صاحبهُ وتلميذُهُ حاكياً المناظرةَ التي جَرَتْ بينَهُ وبينَ حفْصٍ الفَرْدِ في القرآن:

فسألَ الشَّافعيَّ، فاحتجَّ عليه الشافعيُّ وطالَت فيه المناظرةُ، فأقامَ الشَّافعيُّ الحُجَّةَ عليهِ بأنَّ القرآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، وكفَّر حَفْصاً الفَرْدَ.

قال الرَّبيعُ:

فلقيتُ حفْصاً الفَرْدَ في المجْلسِ بَعْدُ، فقال: أرادَ الشَّافعيُّ قَتْلي.(٣)

٨-وكيعُ بن الجرَّاح-رحمه الله-(ت: ١٩٧ هـ) (أحدُ كبارِ الحُفَّاظ):

قال: "القرآنُ كلامُ الله عزَّ وجَلَّ ليسَ بالمخلوقِ".(٤)

٩- يحيى بن سعيد القطَّان-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ) (رأسٌ في الحَديثِ وعِلَلِهِ):

قال الحافظُ أبو الوليد الطَّيالِسيُّ-رحمه الله-(ت: ٢٢٧ هـ): قالَ لي يحيى بن سعيدٍ:

"كيف يصْنَعونَ بـ ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ١]؟ كيف يَصْنَعونَ بهذه الآية: ﴿**إِنِّي أَنَا اللَّهُ**﴾؟ يكونُ مخلوقاً؟ ".(٥)

١٠-يزيد بن هارون-رحمه الله-(ت: ٢٠٦ هـ) (من كبار أئمَّةِ الحَديثِ):

قال: "مَنْ قالَ: القرآنُ مخلوقٌ فهو كافرٌ".(٦)

---

(١) أخرجه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٥)، بسند جيد عنه.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٤٤) وسنده صحيح، وكذا رواه اللالكائي رقم (٤٢٦).

(٣) رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في "آداب الشافعي" (ص: ١٩٤-١٩٥)، وسنده صحيح..

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٥١) بسند صحيح.

(٥) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٥٧) بسند صحيح. وكذا أخرجه البخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (٣٠) عن الطيالسي نحوه.

(٦) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٨)، بسند صحيح.

١١-عبد الله بن إدريس-رحمه الله-(ت: ١٩٢ هـ) (ثِقَةٌ ثَبْتٌ):

قال: "القرآنُ كلامُ الله، ومنَ الله، وما كانَ مِنَ الله عَزَّ وجَلَّ فليسَ بمخلوقٍ".[١]

١٢-أبو الوليد الطَّيالِسي: هشامُ بن عبد الملك-رحمه الله-(ت: ٢٢٧ هـ) (ثِقَةٌ حافِظٌ):

قال: "القرآنُ كلامُ الله، وكلامُ الله ليسَ بمَخلوقٍ".[٢]

١٣-سليمان بن حَرْبٍ-رحمه الله-(ت: ٢٢٤ هـ) (ثِقَةٌ جَبَلٌ صاحبُ سُنَّة):

قال عباسُ بن عبد العظيم-رحمه الله-(ت: ٢٤٦ هـ)، -وكان ثِقَةً- سمعتُ سُليمانَ بن حَرْبٍ قال:

"القرآنُ ليسَ بمَخلوقٍ".

فقلت له: إنَّكَ كنتَ لا تقولُ هذا، فما بَدا لكَ؟

قالَ: "استَخْرَجْتُهُ من كتاب الله عَز وجَل: ﴿**لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ**﴾ [آل عمران: الآية: ٧٧] فالكلام والنظرُ واحدٌ".[٣]

١٤-الإمام أحمدُ بن حَنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ) إمام أهل السُّنَّة:

النَّقْلُ عنه في ذلك متواترٌ، والناقلونَ عنه لا يُحصيهم العدُّ، وكَفى ما كان منه في المِحْنَةِ مع الجهميةِ المعتزلةِ القائلين بخلقِ القرآن، وقد تقدَّم ذكرُ بعضِ النقلِ عنه، وسيأتي بعض ذلك متناثِراً.

ومِمَّا يَحْسُنُ ذكرُهُ هنا ما قالَه الإمام أحمدُ جواباً لسؤالِ المتوكِّلِ عن مسألة القرآنِ:

"وقد رُوِيَ عن غير واحدٍ مِمَّن مَضى من سَلَفِنا رحمهم الله أنَّهم كانوا يقولون: القرآنُ كلام الله عَزَّ وجَلَّ، وليس بمخلوقٍ، وهو الذي أذْهَبُ إليه، ولسْتُ بصاحبِ كلامٍ، ولا أرى الكلامَ في شَيْءٍ من هذا، إلاَّ ما كانَ في كتابِ الله عَزَّ وجَلَّ، أو في حديثٍ عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو عن أصحابِهِ، أو عنِ التابعينَ، فأمَّا غير ذلك فإنَّ الكلامَ فيه غيرُ مَحْمودٍ".[٤]

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٦١) بسند صحيح.

(٢) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٦)، بسند صحيح.

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٦٩) عن عباس عنه به.

(٤) رواه صالح في "المحنة" (ص: ١٢٢)، وعبد الله في "السنة" رقم (١٠٨) عن أبيهما.

وقال حنبلٌ: سمعتُ أبا عبد الله يقولُ:

"لم يَزَل اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- متكلِّماً، والقرآنُ كلامُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- غيرُ مخلوقٍ، وعلى كلِّ جِهَةٍ، ولا يوصَفُ الله بشَيْءٍ أكثرَ ممَّا وصَفَ به نَفْسَهُ -عَزَّ وَجَلَّ-".(١)

١٥ - يحيى بن مَعين -رحمه الله- (ت: ٢٣٣ هـ) (إمامُ الجَرْحِ والتَّعديلِ) وأبو خيثمة زُهَيْر بن حَرْب -رحمه الله- (ت: ٢٧٩ هـ) (حافظٌ إمامٌ ناقِدٌ):

قالا: "القرآنُ كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وهو غيرُ مَخْلوقٍ".(٢)

١٦ - أبو بكر بن أبي شَيْبَة -رحمه الله- (ت: ٢٣٥ هـ) (حافظٌ إمامٌ مُصَنِّفٌ):

قال له رجُلٌ من أصحابِهِ: القرآنُ كَلامُ الله وليسَ بمَخلوقٍ، فقال أبو بكر:

"مَنْ لَمْ يَقُلْ هذا فهو ضالٌّ مُضِلٌّ مُبْتَدِعٌ".(٣)

١٧ - عثمان بن أبي شَيْبَة -رحمه الله- (ت: ٢٣٩ هـ) (ثِقَةٌ حافِظٌ):

قال: "القرآنُ كلامُ الله وليسَ بمَخلوقٍ".(٤)

١٨ - جماعةٌ من شُيوخ أبي داودَ السِّجِستاني صاحب "السُّنن":

قال أبو داود -رحمه الله- (ت: ٢٧٥ هـ):

سمعتُ إسحاقَ بن إبراهيمَ بن راهُوَيهِ -رحمه الله- (ت: ٢٣٨ هـ)، وهَنَّادَ بن السَّريّ -رحمه الله- (ت: ٢٤٣ هـ)، وعبدَ الأعلى بنَ حمَّادٍ -رحمه الله- (ت: ٢٣٧ هـ)، وعُبيدَ الله بن عُمَر بنِ مَيسرةَ القواريريَّ -رحمه الله- (ت: ٢٣٥ هـ)، وحكِيم بن سيفٍ الرَّقيَّ -رحمه الله- (ت: ٢٣٥ هـ)، وأيوبَ بن محمَّدٍ -رحمه الله- (ت: ٢٤٦ هـ)، وسَوّارَ بنَ عبد الله -رحمه الله- (ت: ٢٤٥ هـ)، والرَّبيعَ بن سليمان -رحمه الله- (ت: ٢٧٠ هـ) -صاحبَ الشَّافعيّ-، وعبدَ الوهّابِ بن الحَكَم -رحمه الله- (ت: ٢٥١ هـ)، ومحمَّدَ بن الصَبّاح بنِ سُفيانَ -رحمه الله- (ت: ٢٤٠ هـ)، وعُثمانَ بن أبي شَيْبَة -رحمه الله- (ت: ٢٣٩ هـ)، ومحمَّدَ بنَ بَكّارِ بنِ الرَّيَّانِ -رحمه الله- (ت: ٢٣٨ هـ)، وأحمدَ بن جَوَّاس الحَنَفيَّ -رحمه

(١) رواه حنبل في "المحنة" (ص: ٦٨)، وانظر (ص: ٧٤).

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٧٣) بسند صحيح، وانظر "تاريخ يحيى" رواية الدوري (٣/ ٣٣٥).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٦٢) عنه به.

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٦٣) عنه به.

الله-(**ت: ٢٣٨ هـ**)، **ووَهْبَ بن بَقِيَّةَ**-رحمه الله-(**ت: ٢٣٩ هـ**)، ومَن لا أحْصيهم من عُلمائِنا، كلُّ هؤلاءِ سَمِعْتُهم يقولونَ:

"القُرْآنُ كلامُ الله ليسَ بمَخلوقٍ".

وبعضهُم [قال: "القرآنُ] غيرُ مخلوقٍ".(١)

قلتُ: وجميعُ هؤلاءِ الشيوخِ من أئمَّة الحديثِ، وكلُّهم ثِقاتٌ، سِوى حَكيم بن سَيْف فإنَّه صالحٌ لا بأس به.

١٩-**عليُّ بن المديني**-رحمه الله-(**ت: ٢٣٤ هـ**) (صَيْرفيّ الحَديثِ وأهلِهِ).

قال محمَّدُ بن عثمانَ بن أبي شَيْبة-رحمه الله-(ت: ٢٩٧ هـ): سمعتُ عليَّ بن المَديني يقولُ قبلَ أن يموتَ بشَهرين:

"القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، ومَن قالَ: مخلوقٌ، فهو كافرٌ".(٢)

٢٠-**أبو يعقوب البُويْطيّ**-رحمه الله-(**ت: ٢٣١ هـ**) (تلميذُ الشافعي وخرّيجُهُ):

قال:"مَنْ قالَ: القرآنُ مخلوقٌ، فهو كافرٌ".(٣)

٢١-**المُزَنيُّ: إسماعيل بن يحيى**-رحمه الله-(**ت: ٢٦٤ هـ**) (إمامٌ فَقيهٌ، من أخَصّ أصحابِ الشافعي به):

قال: "القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، ومَن قالَ: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ، فهو كافرٌ".(٤)

٢٢-**البخاريّ: محمَّد بن إسماعيل**-رحمه الله-(**ت: ٢٥٦ هـ**) (إمامُ المحدّثين):

قال: "القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ".(٥).

٢٣-**أبو حاتِمٍ**-رحمه الله-(**ت: ٢٧٧ هـ**) **وأبو زُرْعَة**-رحمه الله-(**ت: ٢٨٩ هـ**) الرّازيانِ (عالمانِ حافظانِ، من كبارِ أئمَّةِ الحديثِ):

---

(١) "المسائل" لأبي داود (ص: ٢٦٦).

(٢) أخرجه ابن الطبري في "السنة" رقم (٤٥٣) والخطيب في "تاريخ بغداد" (١١/ ٤٧٢)، بسند صحيح، وانظر "مسائل ابن أبي شيبة لابن المديني" (ص: ١١٣).

(٣) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٨)، بسند صحيح عنه.

(٤) رواه البيهقي في "الأسماء والصفات" (ص: ٢٥٢)، بسند صحيح، ورواه هو وابن الطبري بإسنادين آخرين عنه.

(٥) "خلق أفعال العباد" (ص: ٣٧).

قال عبدُ الرَّحمن بن أبي حاتِمٍ -رحمه الله- (ت: ٣٢٧ هـ):

سألتُ أبي وأبا زُرْعةَ عن مَذاهبِ أهل السُّنَّة في أصولِ الدّينِ، وما أدركا عليه العلماءَ في جميع الأمصارِ، وما يَعْتَقِدان من ذلك؟

فقالا: "أدْرَكْنَا العُلَماءَ في جَميع الأمصار: حِجازاً، وعِراقاً، وشاماً، ويَمَناً، فكان من مذهبهم: الإيمان قولٌ وعَمَلٌ يَزيدُ وينقصُ، والقرآنُ كلامُ الله غير مخلوقٍ بجميع جهاتِهِ".[1]

فهؤلاءِ بِضْعةٌ وثلاثونَ من الأئمَّةِ، قد سمِّيناهم، عامَّتهم ممَّن يُقْتَدى بهم، وجميعهم من أهلِ القُرونِ المفَضَّلَة التي هي خيرُ القرون.

٢٤-قال الإمام أبو عثمانَ الصابونيُّ-رحمه الله-(ت: ٤٤٩ هـ):

"ويشهَد أصحابُ الحديث، ويعتقدونَ: أنَّ القرآنَ كلام الله وكتابُه، وخِطابُه، ووحيُهُ، وتنزيلُهُ، غيرُ مخلوقٍ، ومَنْ قالَ بِخَلْقِهِ واعتقدَه فهو كافرٌ عندهم".[2]

ولو أرَدْنا استيعاب ما بلَغنا من أقوالهم في إثباتِ هذه العقيدةِ (القرآنُ كلامُ الله غيرُ مَخْلوقٍ) لاحتاجَ ذلك إلى تصنيفٍ مُستقلٍّ.

وقد ساقَ الإمامُ أبو القاسِم هبةُ الله بن الحَسَن الطَّبريُّ اللَّالكائي-رحمه الله-(ت: ٤١٨ هـ) في كتابه العَظيم (شرحِ أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) أو (كتاب السنة) القولَ بذلك عن خَمْسِ مِئَةٍ وخَمسينَ نَفْساً من علماءِ الأمَّةِ وسَلَفِها، كلُّهُم يقولونَ: "القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، ومَن قال: مخلوقٌ، فهو كافرٌ".

قال-رحمه الله-: "فهؤلاء خَمْسُ مِئَةٍ وخمسونَ نَفْساً أو أكثر، من التَّابعينَ، وأتباع التَّابعينَ، والأئمةِ المرْضيِّينَ، سوى الصحابة الخيِّرين، على اختلاف الأعصارِ، ومُضِيّ السّنين والأعوامِ، وفيهم نحوٌ من مِئة إمامٍ، ممَّن أخذَ الناسُ بقَوْلهم، وتَديَّنوا بمَذاهبهم، ولو اشتغلتُ بنقلِ قولِ المحَدِّثينَ لبلَغتْ أسماؤهم ألوفاً كثيرةً".[3].

وفيما ذُكر كفايةٌ لإثباتِ الحَقّ البيّن الصَّريحِ الذي أطبقَ على اعتقادهِ سادةُ علماءِ الأمَّة، فهو إجماعُ أهلِ السُّنَّة الَّذي لا يقعُ فيهِ امتراءٌ، والله أعلم.

(١) أخرجه ابن الطبري في "السنة" (١/ ١٧٦)، بسند صحيح.

(٢) "رسالته في السُّنَّة" (ص: ٦).

(٣) كتاب "السنة" رقم (٤٩٣).

مسألة القائلين بالتوقف.

أما مَسْألة السُّكوتُ عن القولِ: القرآنُ مَخلوقٌ، أو غيرُ مَخلوقٍ، والاكتفاء بالقول: إنَّه كلامُ الله.

فقد سُئِلَ الإمامُ أحمدُ-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): هَلْ لهم رُخْصَةً أنْ يقولَ الرجلُ: القرآن كلام الله تعالى ثمَّ يَسْكت؟ فقالَ: "ولِمَ يسكُت؟ لولا ما وقَعَ فيه الناس كان يسَعُهُ السُّكوتُ، ولكن حيثُ تكلَّموا فيما تكلَّموا لأيِّ شيءٍ لا يتكلَّمون؟ ".[١]

قال الحافظ أبو بكر الآجُريُّ-رحمه الله-(ت: ٣٦٠ هـ):"معنى قول أحمدَ بن حنبل في هذا المعنى، يقول: لم يختلفْ أهلُ الإيمان أنَّ القرآنَ كلامُ الله عَزَّ وجَلَّ، فلمَّا جاءَ جَهْمٌ فأحْدَثَ الكُفْرَ بقولِهِ: إنَّ القرآن مخلوقٌ، لم يسَع العلماءَ إلاَّ الرَّدُّ عليه بأنَّ القرآنَ كلامُ الله عَزَّ وجَلَّ غيرُ مخلوقٍ بلا شكٍّ ولا تَوقُّفٍ فيهِ، فمَنْ لم يَقُلْ: غيرُ مخلوقٍ، سُمِّيَ واقفيّاً شاكاً في دينه".[٢]

وقال أحمدُ أيضاً: "كنا نرى السُّكوتَ عن هذا قبلَ أن يخوضَ فيه هؤلاء، فلمَّا أظهروهُ لم نَجِدْ بُدّاً من مُخالفتهم والرَّدِّ عليهم".[٣]

والأئمةُ جميعاً على إنكارِ مَسْلَكِ هؤلاءِ، والتَّشديد عليهم، وتَبْدِيعهم، وأبو عبد الله أحمد بن حنبل أشدُّهم إنكاراً.

قال أبو داود السِّجِستانيُّ-رحمه الله-(ت: ٢٧٥ هـ): سمعتُ أحمدَ ذَكَرَ رَجُلينِ كانا وَقَفا في القرآنِ، ودَعَوَا إليه، فجعَلَ يَدعو علَيْهما، وقالَ لي: هذا لأحدِهما فِتْنةٌ، وجعَلَ يذكرهما بالمكْروهِ.[٤]

وقالَ: رأيتُ أحمدَ سلَّمَ عليه رجلٌ من أهْلِ بغداد ممَّن وقَفَ-فيما بلَغني-فقال: "اغْرُبْ، لا أرَيَنَّكَ تَجِيءُ إلى بابي-في كلام غَليظ-" ولَمْ يرُدَّ عليه السَّلامَ، وقالَ لَهُ:

"ما أحوَجَكَ إلى أنْ يُصْنَعَ بك ما صنَعَ عُمَرُ بصَبِيغٍ".

---

(١) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٣-٢٦٤)، ومن طريقه: الآجري (ص: ٨٧)، وإسماعيل بن الفضل (ق ١١٤/أ).

(٢) "الشريعة" للآجري (ص: ٨٧).

(٣) ذكره عنه عثمان الدارمي في "النقض على المريسي" (ص: ١١٠).

(٤) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٤) ومن طريقه الآجري (ص: ٨٧).

قال أبو داودَ: فهَّمَني بصَبيغ بعضُ ولَد أحمدَ - [فدخَلَ بيتَه وردَّ البابَ].(١)

وقالَ أبو طالب: سألتُ أبا عبد الله عمَّن أمسكَ، فقال: لا أقولُ ليسَ هو مخلوقاً، إذا لَقِيَني بالطريقِ وسلَّمَ عليَّ، أسَلِّمُ عليه؟

قال: "لا تُسَلِّمْ عليه، ولا تكلِّمْهُ، كيفَ يعرفُه الناسُ إذا سلَّمتَ عليْهِ؟ وكيفَ يعرفُ هو أنَّك مُنكِرٌ عليه، فإذا لَمْ تُسَلِّم عليه عَرَفَ الذّلَّ، وعرفَ أنك أنكرتَ عليه، وعرفهُ النَّاسُ".(٢)

وقال أبو داودَ: سمعتُ أحمدَ وقيلَ له: ما تَرى في الصَّلاةِ خَلْفَ من يقولُ في القرآنِ: كلامُ الله، ويَقِفُ؟ قال: "يُعْجِبُني أنْ يُجْفَوا".(٣)

وقال الإمامُ أحمدُ–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "افترقَت الجَهميَّةُ على ثَلَاثِ فِرَق: فِرْقَةٍ قالوا: القرآنُ مخلوقٌ، وفرقةٍ قالوا: كلامُ الله وتسْكُتُ، وفرقةٍ قالوا: لفظُنا بالقرآنِ مخلوقٌ".(٤)

ومقالاتُ الإمام أحمدَ فيهم كثيرةٌ مُستفيضةٌ، وكذا عن غيرِه من أئمَّةِ السُّنَّة، فمِنْ ذلك:

١ - قال مُهَنّا أبو عبد الله السُّلَميّ–رحمه الله–(ت: ٢٦٠ هـ تقريبًا) (وكان من خيار أصحاب أحمد):

سألتُ أحمدَ بن حنبل بعدَ ما أخْرجَ من السِّجنِ بسنتين: ما تقول في القرآنِ؟ فقَالَ: "كلامُ الله غيرُ مخلوق" وقال: "مَن رَوى عنّي غيرَ هذا القولَ فهو مُبْطِل" قلتُ له: إنَّ بعضَ مَن ذكَرَ عنك أنَّك قلتَ له: هو كلام الله، لا مَخلوق ولا غيرُ مخلوق، ولكن هو كلام الله، فقال أحمد: "أبْطَلَ، ما قلتُ هذا، ولكنَّه هو كلامُ الله غير مخلوقٍ".(٥)

٢ - وقالَ سلَمةُ بن شَبيب–رحمه الله–(ت: ٢٤٦ هـ): دخلتُ على أحمد بن حنبل فقلتُ: ما تقول فيمن يقول: القرآن كلامُ الله؟ فقال أحمد: "مَنْ لم يَقُلْ: القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوق فهو كافرٌ".

---

(١) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٤)، ومن طريقه: الآجري (ص: ٨٧). وصَبيغ هذا بصريٌّ قَدِمَ على عُمَر فكان يجادل في متشابه القرآن، فجلَده عمر–رضي الله عنه–لذلك، وقصته صحيحة مشهورة، رويت موصولةً بسند صحيح عند ابن عساكر (٨/ ١١٧) وغيره، ورويت مرسلةً من وجوه متعددة..

(٢) رواه الآجري (ص: ٨٨)، بسند صحيح.

(٣) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٤).

(٤) رواه صالح في "المحنة" (ص ٧٢) عن أبيه به.

(٥) رواه عبد الله في "السنة" رقم (٥٢٩) عن مهنّا عن أحمد.

ثمَّ قالَ: "لا تَشُكَّنَّ في كُفْرِهم، فإنَّ مَن لم يَقُلِ: القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوق فهو يقول: مخلوقٌ، ومَن قال: هو مخلوقٌ، فهو كافر بالله عزَّ وجَلَّ".

قال سلمَةُ: وقلتُ لأحمدَ: الواقفة كفّارٌ؟ فقال:"كفّارٌ".(١)

٣ - **وقال عبد الله بن أحمدَ-رحمه الله-(ت: ٢٩٠ هـ)**: سمعتُ أبي -وسُئلَ عن الواقفة- فقال أبي:

"مَن كانَ يُخاصِمُ ويُعرَفُ بالكلام فهو جَهْميٌّ، ومن لم يُعرَف بالكلام يُجانَب حتى يَرْجِعَ، ومَن لم يكن له عِلمٌ يَسأل".(٢)

وقالَ مرَّةً في الواقِفَةِ:"هُمْ شَرٌّ مِن الجهميَّةِ".(٣)

قلتُ: لخَفاءِ أمرِهم.

٤ - **وقال إسحاقُ بن راهُوَيْهِ-رحمه الله-(ت: ٢٣٨ هـ)** (الإمامُ الفقيةُ الحافِظُ):

"مَنْ قالَ: لا أقولُ: القرآنُ مخلوقٌ، ولا غيرُ مخلوقٍ، فهو جَهميٌّ".(٤)

٥ - **وقال قُتَيبةُ بن سعيد-رحمه الله-(ت: ٢٤٠ هـ)** (وهو ثِقَةٌ ثَبْتُ حافِظٌ):

"هؤلاءِ -يعني الواقفة- شَرٌّ مِنْهم، ممَّن قالَ: القرآنُ مخلوقٌ".(٥)

٦ - **وقال الحافظُ الإمامُ أبو الوليد الطَّيالِسيُّ-رحمه الله-(ت: ٢٢٧ هـ)**:

"مَن لم يَعْقِدْ قلبَه على أنَّ القرآنَ ليسَ بمخلوقٍ فهو خارجٌ من الإسلام".(٦)

٧ - **وقال عثمانُ بن أبي شيبة-رحمه الله-(ت: ٢٣٩ هـ) (ثِقَةٌ حافِظٌ)**:

"هؤلاء الذين يقولونَ: كلامُ الله ويسكُتونَ، شَرٌّ من هؤلاء -يعني ممن قالَ: القرآنُ مخلوقٌ".(٧)

٨ - **وقال أبو داودَ: سألتُ أحمدَ بن صالح المِصْريَّ-رحمه الله-(ت: ٢٤٨ هـ)** (الحافظ

(١) رواه ابن الجوزي في "مناقب الإمام أحمد" (ص: ١٥٧)، بسند جيد.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (٢٢٣).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (٢٢٥).

(٤) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٧٠)، ومن طريقه الآجري في "الشريعة" (ص: ٨٨).

(٥) رواه أبو داود في "المسائل" (ص:٢٧٠) ومن طريقه الآجري (ص: ٨٨).

(٦) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٦)، بسند صحيح.

(٧) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٧١)، ومن طريقه الآجري (ص: ٨٨).

الإمام) عمَّن يقول: القرآن كلامُ الله، ولا يقول: مخلوقٌ، ولا غيرُ مخلوقٍ؟ قال: "لهذا شاكٌّ".(١)

٩ - وقال أبو خَيْثَمة-رحمه الله-(ت: ٢٧٩ هـ) (ثِقَةٌ حافِظٌ) -وسأل يَحيى بن مَعِين-رحمه الله-(ت: ٢٣٣ هـ)، فقال:

إنَّهم يقولون: إنّكَ تقولُ: القرآنُ كلامُ الله، وتَسْكُت، ولا تقولُ: مخلوقٌ، ولا غيرُ مَخلوقٍ، قال: "لا" فعاوَدتهُ، فقال: "مَعاذَ الله، القرآنُ كلامُ الله غيرُ مَخْلوقٍ، ومَن قالَ غير لهذا فعليه لعنةُ الله".(٢)

١٠ - وقالَ أبو حاتِمٍ-رحمه الله-(ت: ٢٧٧ هـ)، وأبو زُرْعةَ-رحمه الله-(ت: ٢٨٩ هـ) الرّازيان الحافظان:

"ومَن شَكَّ في كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، فوقَفَ شاكّاً فيه، يقولُ: لا أدْري، مَخْلوقٌ أو غير مَخلوقٍ، فهو جَهميّ، ومَن وقَفَ جاهلاً عُلِّمَ، ويُدّعَ ولَم يُكَفَّر".(٣)

وكذا ذكَر الإمامُ هِبَةُ الله ابنُ الطَّبريّ-رحمه الله-(ت: ٤١٨ هـ) نحوَ ما ذُكِرَ من الإنكار عن نَحْوِ مِئَةٍ من المحدِّثينَ والفُقَهاء.(٤).(٥)

خامسًا: مسألة أنه منه بدأ وإليه يعود.(٦).

الجانب الأول: (منه بدأ).

يَعْتَقدُ السَّلَفُ أنَّ القرآنَ كلامُ الله تعالى، منه خرجَ وبدأ، تكلَّمَ به بحُروفِهِ ومَعانيهِ، فأسمَعَهُ جبريلَ عليه السَّلام، ونَزل به جبريلُ على قلبِ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم، وهو هذا اللِّسانُ العربيُّ المبينُ، النّازلُ بلغةِ قُرَيْشٍ.

الأدلة على ذلك:

وهذا مُبَيَّن في غيرِ مَوْضع من كتاب الله تعالى، فمِنْ ذلك:

---

(١) رواه أبو داود (ص: ٢٧١)، وعنه الآجري (ص: ٨٨).

(٢) رواه ابن الطبري في "السنة" رقم (٤٥٦) بسند صحيح.

(٣) رواه ابن الطبري (١/ ١٧٨) بسند صحيح.

(٤) كتاب "السنة" (٢/ ٣٢٣-٣٢٩).

(٥) المصدر: كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبد الله بن يوسف الجديع.

(٦) المصدر: كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبد الله بن يوسف الجديع.

١ - قولُه تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: الآية: ١].

٢ - وقولُه -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه: الآية: ٤].

٣ - وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: الآية: ٦].

٤ - وقولُه تعالى: ﴿الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [السجدة: الآيات: ١ - ٣].

٥ - وقولُه جلَّ وَعَلا: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ...﴾ [الزمر: الآيات: ١ - ٢].

٦ - وقولُه تعالى: ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ *كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصّلت: الآيات:١ - ٤].

٧ - وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: الآيات: ٤١ - ٤٢].

فأخبرَ تعالى في هذه الآيات وما يشبَهُها أنَّ القرآنَ العربيَّ الذي هو كلامهُ، إنَّما هو تنزيلُه، نَزلَ منهُ، فمنه بدَأ وَخَرَجَ لا مِنْ سِواه.

٨ - وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: الآيات: ١٠١ - ١٠٣].

فأنبأ تعالى في هذه الآياتِ أنَّ القرآنَ العربيَّ نزَلَ به رُوحُ القُدُس منه، ورُوحُ القُدُس هو جبريلُ عليه السَّلام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: الآية: ٩٧].

فليسَ هو كلامَ محمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- كما زعَمَ الكفَّارُ- ولا كلامَ جبريلَ عليه السَّلام -كما زعمَه بعضُ أهلِ البِدَعِ- وإنَّما هو كلامُ الله تعالى، منه بدأ وخَرَجَ، وهو الذي أنزلَه بواسطةِ رسولِه الملَك جبريلَ، فمن قال غير هذا فقدْ كَفَرَ، لأنَّه كذَّبَ الله في قولِه، وجَحَدَ

ما أنبأتْ به رسلُه، وإنِ ادّعى الإسلامَ وانتسبَ إليه، فالإسلامُ يَبْرأ منه.

والله تعالى لم يُضِف شيئاً ممَّا أنزله إلى نفسِهِ غيرَ كلامِهِ، وذلك لأنَّه صفتُهُ.

تنبيه:

ويجب أن يُعلَمَ أنَّه ليسَ معنى قولهم (منه خَرَجَ) أنَّ صفةَ الكلام فارَقَتْهُ تعالى، وحلَّتْ في غيرِهِ، وأنَّ ما تكلَّم به نُسِبَ إلى غيرِه، وصارَ وصفاً لذلك الغَيْرِ -كما قد وَسْوَسَ به بعضُ أهل البدَع-فإنَّ هذا المعنى لا يُعقَل في حَقّ الإنسانِ المخلوقِ الضَّعيفِ، إذا تكلَّمَ بكلام تزولُ عنهُ صفةُ الكَلام بذلك وتفارقُه إلى غيرِهِ، فإنَّ من كانَ كذلكَ لم يمكِنْه الكلامُ إلاَّ مرّةً واحدةً، فإذا تكلَّمَ هذه المرَّة فارقَتْهُ صفتُهُ، لأنَّ الكلامَ خرَجَ منه وفارقَهُ، وبمفارقته زالتْ عنه الصّفة ولَحِقَتْ غيرَهُ، هذا كلامٌ لا يقوله مَن يَدري ما يقولُ، فإنَّ مَنْ وُصِفَ بالكلام على هذا المعنى موصوفٌ بالعَجْز عنه، وهو غيرُ متصوَّرٍ في حقّ الناطق المخلوق على ضَعْفه، فكيف تصوَّرَهُ هؤلاء الضُّلاَّلُ في حقّ الله الذي ليسَ كمثلهِ شيءٌ، فإنَّه تعالى وصفَ نفسَه بأنَّه متكلمٌ بكلامٍ متعلقٍ بمَشيئتهِ وقُدْرتهِ، يُسْمِعُه من شاءَ من خلقهِ، متى شاءَ، وأنَّ كلماتِهِ تعالى لا تَنْفَدُ، ومن كان هذا وصْفُهُ لم تفارقْهُ صفَتُهُ بتكلّمهِ مرَّةً أو مرَّاتٍ، وكانَ كلُّ ما تكلَّمَ به منسوباً إليه لا إلى غيرِهِ.

قالَ الإمام الحافظُ أبو الوليد الطَّيالِسيُّ-رحمه الله-(ت: ٢٢٧ هـ): "القُرْآنُ كلامُ الله ليسَ ببائنٍ من الله".(١)

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وإنَّ قولَ السَّلَف: (منه بدأ) لم يُريدوا به أنه فارقَ ذاتَهُ، وحَلَّ في غيره، فإنَّ كلامَ المخلوقِ، بل وسائرَ صفاتهِ لا تفارقُه وتَنْتَقِلُ إلى غيرِهِ، فكيفَ يجوزُ أنْ يفارقَ ذاتَ الله كلامُه أو غيرُهُ من صفاتِهِ".(٢)

قالَ الله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾ **[التوبة: الآية: ٦]** فالَّذي يسمَعُهُ المشْرك المستجيرُ من القارئ إنَّما هو كلامُ الله المضافُ إليه لا إلى غيرِهِ، فلو أن كلامَه بانَ منه وفارقَه لَما صَحَّتْ إضافَتُهُ إليه إضافةَ الصِّفَةِ إلى الموصوفِ.

وهذا الكلامُ بعَيْنِهِ هو الذي في مَصاحفِ المسلمينَ بلا شَكٍّ ولا ريبٍ، خِلافاً لِلَّفظيةِ من

---

(١) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٦)، بسند صحيح عنه.

(٢) "مجموع الفتاوى" (١٢/ ٢٧٤)، وانظر: (١٢/ ٥١٧- ٥١٨، ٥٥٠،٥٦١).

الأشعريةِ وغيرهم القائلينَ بأنَّ ما في المِصاحفِ دلالةٌ على كلام الله، وليسَ هو كلامَ الله، وقد قالَ الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الواقعة: الآيات: ٧٧-٨٠]، فأبان أنَّ كلامَه الذي هو وحيُهُ وتنزيلُهُ يكونُ في الكتاب المكنونِ، فكذلك كونُه في المِصاحفِ، ونحنُ لا نعلَمُ القرآنَ إلاَّ هذا العربيَّ المنزَلَ، وهو الذي سمَّاه الله تعالى كلامَه.

وقَدْ قالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-:)لا تُسافِروا بالقرآن إلى أرْضِ العَدُوّ، فإِنِّي أخافُ أن ينالَهُ العدوُّ(.[١]

ولا خِلافَ في أنَّ النَّهيَ عن السَّفر بالقرآن، إنَّما هو النَّهْيُ عن السَّفَرِ بالمِصاحفِ، لأنَّ القرآنَ إنَّما يكونُ فيها، وهي التي تُحْمَلُ وتُنْقَلُ، ولا نعلَمُ القرآنَ إلاَّ كلامَ الله المنزَلَ على الحقيقةِ.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وممَّا كانَ أحمدُ أنكرَه من قولِ الجهميَّةِ قولُ من زعَمَ أنَّ القرآنَ ليسَ في الصُّدورِ، ولا في المِصاحفِ".[٢]

الجانب الثاني: (إليه يعود)

وقد اختلف العلماء في تفسير معنى قوله: وإليه يعود.

القول الأول: وقد تأوَّلَهُ بعضُ أهلِ السُّنَّة بعَودِ تلاوته وقراءته التي هي كَسْبُ العبدِ.

وهذا المعنى حَق، فإنَّه تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر: الآية: ١٠]

القول الثاني: يعود إليه نسبة.

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٤٤٦)، والشافعي رقم (١١٤٩، ١١٥٠)، وأحمد رقم (٤٥٠٧، ٤٥٢٥، ٤٥٧٦، ٥١٧٠، ٥٢٩٣)، والبخاري (٦/ ١٣٣)، ومسلم رقم (١٨٦٩)، وأبو داود رقم (٢٦١٠)، والنسائي في "فضائل القرآن" -من "الكبرى"- رقم (٨٥)، وابن ماجة رقم (٢٨٧٩، ٢٨٨٠)، من طرق عن نافع عن ابن عمر به مرفوعًا.

وتابع نافعاً عليه عبد الله بن دينار، أخرجه أحمد رقم (٦١٢٤) وابن أبي داود في "المصاحف" (ص: ١٨٣) بسند صحيح عنه.

وكذا تابعه سالم عن أبيه، أخرجه ابن أبي داود (ص: ١٧٩ - ١٨٠)، بسند صالح في المتابعات.

(٢) المصدر: كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبد الله بن يوسف الجديع.

أي أنه يعود إلى الله تعالى وصفا، فهو الموصوف به سبحانه وتعالى لا يوصف به أحد سوى الرب سبحانه وتعالى.

قال ابن النجار الفتوحي-رحمه الله-(ت ٩٧٢ هـ): "قال أحمد: كلام الله من الله ليس ببائن منه.وقد جاء في الأحاديث والآثار "أنه منه بدأ، ومنه خرج، وإليه يعود" نصا منه، ومن غيره عليه.

ومعنى ذلك: أنه هو المتكلم به، أو الذي يخرج منه، ولا يقتضي ذلك أنه يباينه وانتقل عنه.(١)

وقال: ومعلوم أن كلام المخلوق لا يباين محله.(٢)

قال أحمد: منه بدأ وإليه يعود.(٣)

وقال: منه بدأ علمه، وإليه يعود حكمه.(٤)

وقال تارة: منه خرج، وهو المتكلم به، وإليه يعود، وهو القرآن".(٥)

القول الثالث: يُسرى به من الأرض في آخر الزمان، كما روي في بعض الآثار أنه إذا لم يعمل الناس بالقرآن، أي: أطبقت الأرض على عدم العمل به، ينزه الله كتابه فيرفعه من صدور الناس ومن مدادهم.

وبهذا جاء الخبرُ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وغيرِه من أصحابه.

فأمَّا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

١-عن حذيفة بن اليمان (ت: ٣٦ هـ)، وأبي هريرة-(ت: ٥٧ هـ)-رضي الله عنهما-، قالا: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (يسرى على كتاب الله ليلا، فيصبح الناس ليس في الأرض ولا في جوف مسلم منه آية). (٦)

(١) ينظر: فتاوى ابن تيمية (١٢/ ٥٢)، مجموعة الرسائل والمسائل (٣/ ٣٥).
(٢) ينظر: مسائل الإمام أحمد (ص: ٢٦٦).
(٣) ينظر: فتاوى ابن تيمية (٢/ ٥١٧).
(٤) ينظر: ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة (٢/ ٥١٨).
(٥) ينظر: الفتوحي، شرح الكوكب المنير شرح مختصر التحرير (٢/ ٨٨).
(٦) أورده الديلمي في الفردوس (٥/ ٤٨٨) (٨٨٤٨) عن أبي هريرة. وعزاه السيوطي إلى أبي الشيخ، وابن مردويه.

٢ – عن أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–أنه قال:

(يسرى على كتاب الله عز وجل فيرفع إلى السماء؛ فلا يصبح في الأرض آية من القرآن ولا من التوراة والإنجيل ولا الزبور، وينتزع من قلوب الرجال فيصبحون ولا يدرون ما هو).(١)

ومما ورد من الآثار (٢):

١–وعن شَدَّاد بن مَعْقِل–رحمه الله–أنَّ عبد الله بن مسعودٍ–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)، قال:

"لَيُنْتَزَعَنَّ هذا القرآنُ من بين أظْهُرِكُمْ".

قال: قلتُ: يا أبا عبد الرَّحمن! كيفَ يُنْتَزَعُ وقد أثْبَتْنَاهُ في صُدورِنا، وأثبتناهُ في مَصاحِفنا؟ قالَ: "يُسْرَى عليهِ في ليلةٍ، فلا يَبقى في قَلْبِ عَبْدٍ منه، ولا مُصحَفٍ منه شَيْءٌ، ويُصْبِحُ الناسُ فُقَراءَ كالبَهائم".

ثمَّ قرأ عبد الله: **﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾** [الإسراء: الآية: ٨٦]".(٣)

٢–عن عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)، من طريق زر بن حبيش– قال: "ليسرين على القرآن في ليلة، فلا تترك آية في قلب رجل ولا مصحف إلا رفعت".(٤)

٣–عن عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)، من طريق عبد الله بن عتبة بن مسعود– قال: "اقرءوا القرآن قبل أن يرفع، فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع.قالوا: هذه المصاحف ترفع، فكيف بما في صدور الناس؟ قال: يعدى عليه ليلا فيرفع من

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٨٥٤٤)، وقال الإمام الذهبي في التلخيص: صحيح على شرط الإمام مسلم.

(٢) كما ورد عن ابن مسعود–رضي الله عنه–، موقوفًا، أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٦٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٥٣٤)، والبخاري في خلق أفعال العباد، رقم (٣٨١، ٣٨٢)، وسعيد بن منصور في السنن (٢/ ٣٣٥)، وابن جرير الطبري في التفسير (١٥/ ١٥٨)، والبيهقي في السنن (٦/ ٢٨٩).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٥٣٨) وصحَّحه، وأخرجه الطبراني (٨٧٠٠)، وله طُرُقٌ مرفوعةٌ وموقوفةٌ، ذَكَرَ تخريجَها الشوكانيُّ في فتح القدير (٣/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).

(٤) أخرجه يحيى بن سلام (١/ ١٦١). وعزاه السيوطي إلى ابن أبي داود في المصاحف.

صدورهم، فيصبحون فيقولون: لكأنا كنا نعلم شيئا.ثم يقعون في الشعر".[١]

٤-**عن حذيفة بن اليمان-رضي الله عنه-(ت: ٣٦ هـ)**، من طريق ربعي بن حراش- قال: "يوشك أن يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، ويقرأ الناس القرآن لا يجدون له حلاوة، فيبيتون ليلة ويصبحون وقد أسري بالقرآن وما قبله من كتاب، حتى ينتزع من قلب شيخ كبير وعجوز كبيرة، فلا يعرفون وقت صلاة ولا صيام ولا نسك، حتى يقول القائل منهم: إنا سمعنا الناس يقولون: لا إله إلا الله.فنحن نقول: لا إله إلا الله".[٢]

٥-**عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، من طريق أبي حازم- قال: "يسرى على كتاب الله، فيرفع إلى السماء، فلا يبقى في الأرض آية من القرآن ولا من التوراة والإنجيل والزبور، فينزع من قلوب الرجال، فيصبحون في الضلالة، لا يدرون ما هم فيه".[٣]

٦-**عن عبد الله بن عمرو بن العاص-رضي الله عنهما-(ت: ٦٥ هـ)**، قال: "لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دوي حول العرش كدوي النحل، يقول: أتلى ولا يعمل بي".[٤]

٧-**عن علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-(ت: ٤٠ هـ)**: "يذهب الناس حتى لا يبقى أحد يقول لا إله إلا الله، فإذا فعلوا ذلك ضرب يعسوب الدين ذنبه فيجتمعون إليه من أطراف الأرض كما يجمع قرع الخريف.ثم قال علي: إني لأعرف اسم أميرهم ومناخ ركابهم، يقولون: القرآن مخلوق.وليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله، منه بدأ وإليه يعود".[٥]

٨-**عن عكرمة-رحمه الله-(ت: ١٠٥ هـ) قال: كان ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**، في جنازة، فلما وضع الميت في لحده قام رجل فقال: "اللهم رب القرآن اغفر له.فوثب إليه ابن عباس فقال: "مه، القرآن منه" زاد الصهبي في حديثه فقال ابن عباس: "القرآن كلام الله ليس بمربوب، منه خرج وإليه يعود".[٦]

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٠٢٦).
(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه (١/ ٤٠٠).
(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٠٦). وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.
(٤) عزاه السيوطي إلى محمد بن نصر في كتاب الصلاة.
(٥) أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (٢/ ٢٥٤)، عن علي رضي الله عنه موقوفًا.
(٦) أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (٢/ ٢٥٦).

٩-**عن شمر بن عطية-رحمه الله-(ت: في ولاية خالد القسري)**، قال: "يسرى على القران في ليلة، فيقوم المتهجدون في ساعاتهم فلا يقدرون على شيء، فيفزعون إلى مصاحفهم فلا يقدرون عليها، فيخرج بعضهم إلى بعض فيلتقون، فيخبر بعضهم بعضا بما قد لقوا".(١)

١٠-**عن عمرو بن دينار-رحمه الله-(ت: ١٢٦ هـ)**، يقول: "أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون: القرآن كلام الله، منه بدأ وإليه يعود".(٢)

١١- **سفيان الثَّوْري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ).**

قال: "القرآنُ كلامُ الله غيرُ مَخلوقٍ، منه بَدَأ وإليه يعودُ، مَنْ قال غيرَ هذا فهو كُفْرٌ".

١٢- **أبو بكر بن عيَّاش (ت: ١٩٣ هـ).**

قال: "القرآنُ كلامُ الله، ألقاه إلى جبرائيلَ، وألقاهُ جِبرائيلُ إلى محمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم-، منه بدَأ، وإليه يعودُ".(٣)

١٣-**سفيان بن عُيَيْنَة-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ).**

سأله رجُلٌ: يا أبا محمَّدٍ، ما تقولُ في القرآنِ؟ فقال: "كَلامُ الله، مِنْهُ خَرجَ وإليه يَعودُ".

١٤- **الإمام أحمدُ بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ).**

قال: "لقيتُ الرِّجالَ، والعُلَماءَ، والفُقَهاءَ، بمكَّةَ، والمدينةِ، والكُوفةِ، والبَصْرةِ، والشامِ، والثُّغورِ، وخُراسانَ، فرأيتُهم على السُّنَّة والجَماعَة، وسألتُ عنها -يعني هذه اللفظة- الفُقَهاءَ؟ فكلٌّ يقولُ: القرآنُ كلامُ الله غيرُ مَخْلوق، منه بدَأ، وإليه يعودُ".(٤)

وقالَ: "لم يَزَلِ الله عالماً متكلّماً، نعبُدُ الله لصِفاتهِ، غير محدودَةٍ ولا مَعلومةٍ إلَّا بما وصَفَ به نفسه، ونردُّ القرآن إلى عالمِهِ تبارك وتعالى، إلى الله، فهو أعلَمُ به، منه بَدَأَ وإليه يَعودُ".(٥)

١٥- **أبو جعفر أحمد بن سِنان الواسطي (ت: ٢٥٦ هـ).**

قال: "مَن زَعَمَ أنَّ القرآنَ شَيْئَين أو أنَّ القرآنَ حِكايةٌ، فهو والله الذي لا إله إلاَّ هو، زِنديقٌ

(١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي داود، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (٢/ ٢٦٠). وذكر الحافظ ضياء الدين المقدسي في "اختصاص القرآن" فقرة [٦] عشرة أنفس من الصحابة أدركهم عمرو بن دينار فيهم: عبد الله بن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وجابر بن عبد الله، وغيرهم.

(٣) جميع هذه الآثار الأربعة صحيحة، انظر تخريجها في التعليق على "اختصاص القرآن" وأثر عمرو قد سبق ذكره.

(٤) ذكر هذا النص الحافظ الضياء في "اختصاص القرآن" عن المرّوذى عن أحمد، فقرة (٩).

(٥) رواه حنبل في "المحنة" (ص: ٤٥)، عنه به.

كافرٌ بالله، هذا القُرْآنُ هو القُرآنُ الذي أنزله الله على لسانِ جبريلَ على محمَّد -صلى الله عليه وسلم-، لا يغيَّر ولا يُبَدَّل: ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت: الآية: ٤٢]، كما قالَ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِه ...**﴾ [الإسراء: الآية: ٨٨]، ولو أنَّ رجلاً حلفَ لا يتكلَّمُ اليومَ، ثمَّ قرأ القرآنَ، أو صلَّى وقرأ القرآنَ، أو سلَّمَ في الصَّلاةِ، لم يحنَثْ، لا يُقاسُ بكَلام الله شَيْءٌ، القرآنُ كلامُ الله، منه بَدَأ وإليه يَعودُ، ليس من الله تعالى شَيْءٌ مخلوقٌ، ولا صِفاتُهُ، ولا أسماؤُهُ، ولا عِلْمُهُ".(١)

وقال ابن قدامة-رحمه الله-(ت: ٦٢٠ هـ): "من كلام الله سبحانه القرآن العظيم، وهو كتاب الله المبين، وحبله المتين، وصراطه المستقيم، وتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين بلسان عربي مبين، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود".(٢)

ونقلَ ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)، اتّفاقَ السَّلَفِ والأئمَّةِ على ذلك في غيرِ موضع من كلامه.(٣)

فبهذا يظهرُ لكَ معنى قولِ من قال من السَّلَفِ: "القرآنُ كلامُ الله، مُنْزَلٌ غيرُ مَخْلوقٍ، منه بدَأ وإليه يَعودُ".

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فقالوا: (منه بدأ) ردّاً على الجَهْميةِ الذين يقولون: بدأ من غيرِهِ، ومقصودُهُم أنَّه هو المتكلِّمُ به، كما قالَ تعالى: ﴿**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ [الزمر: الآية: ١]، وقالَ تعالى: ﴿**وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ...**﴾ [السجدة: الآية: ١٣]، وأمثال ذلك".(٤)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وأمَّا (إليه يَعودُ) فإنه يُسْرى به في آخِرِ الزَّمانِ، من المِصاحفِ والصُّدور، فلا يبقى في الصُّدور منه كلمةٌ، ولا في المصاحف منه

(١) أخرجه الضياء في "اختصاص القرآن" رقم (١٦).
(٢) لمعة الاعتقاد (ص: ١٨).
(٣) انظر: "مجموع الفتاوى": (٦/ ٥٢٨)، (١٢/ ١٦٤).
(٤) "درء التعارض" (٢/ ١١٣).

حرفٌ".(١)

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وَالَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالأَئِمَّةُ: أَنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَإِنَّمَا قَالَ السَّلَفُ: «مِنْهُ بَدَأَ» لِأَنَّ الجَهْمِيَّة-مِن المعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ-كَانُوا يَقُولُونَ: إنَّهُ خَلَقَ الكَلَامَ فِي المحَلِّ.فَقَالَ السَّلَفُ: «مِنْهُ بَدَأَ».أَيْ: هُوَ المتَكَلِّمُ بِهِ؛ فَمِنْهُ بَدَأَ، لَا مِنْ بَعْضِ المخْلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿**تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ [الزمر: الآية:١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ [السجدة: الآية: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ [سبأ: الآية: ٦]، وقَالَ تَعالَى: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ [النحل: الآية: ١٠٢].

وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: «إلَيْهِ يَعُودُ»: أَنَّهُ يُرْفَعُ مِن الصُّدُورِ وَالمصَاحِفِ؛ فَلَا يَبْقَى فِي الصُّدُورِ مِنْهُ آيَةٌ وَلَا مِنْهُ حَرْفٌ، كَمَا جَاءَ فِي عِدَّةِ آثارٍ".(٢)

سادسًا: أن الله تكلم بالقرآن بحرف وصوت مسموعين.(٣)

---

(١) "مجموع الفتاوى" (٣/ ١٧٤-١٧٥)، عن المناظرة في الواسطية.

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٢٨، ٥٢٩).

(٣) ممن ألف في مسألة الحرف والصوت:

١- : رسالة في إثبات الاستواء والفوقية ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد لعبد الله بن يوسف بن محمد الجويني-رحمه الله-(ت: ٤٣٨ هـ).

٢-رسالة عبيد الله السجزي (ت: ٤٤٤ هـ)، إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت، وهي رسالة مطبوعة.

٣-كتب أبو يعلى-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ)، جزءا سماه ايضاح البيان في مسألة القرآن، وهو مفقود، وهذا الكتاب نقل منه شيخ الإسلام في عدة مواطن من كتبه انظر: شرح العقيدة الأصفهانية ص ٣٢، مجموع الفتاوى ٦/ ١٥٨، درء تعارض العقل والنقل ٢/ ٧٤.

٤-كما ألف ابن عقيل (ت: ٥١٣ هـ)، كتابا في مسألة الحرف والصوت وقد طبع بعنوان جزء في الأصول أصول الدين مسألة القرآن أو الرد على الأشاعرة العزال وإثبات الحرف والصوت في كلام الكبير المتعال

=

أولًا: إثبات الحرف.

ومن اعتقادِ السَّلَف في كلامِ الله تعالى أنَّ كلامَه جَلَّ وعَزَّ مؤلَّفٌ من الحُروفِ، إنْ شاءَ جَعَلَها عَربيَّةً، وإن شاءَ جعلَها عِبْرانِيَّةً، وإن شاء جَعَلَها غيرَ ذلك، فهو المتكلّمُ بحُروفِ القرآنِ، والتَّوراةِ، والإنجيلِ، وغيرِها من كلامِهِ.

قالَ تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾ [إبراهيم: الآية: ٤].

وقال تعالى: ﴿**الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**﴾ [آل عمران: الآيات:١ - ٤].

فأخْبَرَ تعالى أنه أنْزَلَ الكُتُبَ: القرآنَ، والتَّوراةَ والإنجيلَ، وإنَّما ذلك بلُغاتِ الرُّسل الذين أنْزَلَ عَلَيهم، وبلُغات أقوامِهم، لأجْلِ أن تقومَ الحُجَّةُ عليهم به، إذ لوكانَ بغيرِ لُغتهم ما فَقِهُوهُ.

قال تعالى: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [يوسف: الآيات: ١ - ٢]

وقالَ تعالى: ﴿**حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ [الزخرف: الآيات: ١ - ٤]

وقالَ تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾ [النحل: الآية: ١٠٣].

أما ابن قدامه-رحمه الله-(ت: ٦٢٠ هـ)، فله ثلاثة كتب لهذا الغرض وهي مطبوعة:

٥-الصراط المستقيم في إثبات الحرف القديم.

٦-والبرهان في بيان القرآن.

٧-وكتاب حكاية المناظرة في القرآن.

٨-كما جمع محمد بن عبد الواحد المقدسي-رحمه الله-(ت: ٦٤٣ هـ) جزء في الأحاديث الواردة في هذه المسألة سماه جزء أحاديث الحرف والصوت وهو مفقود.

٩-كتاب "غاية المرام في مسألة الكلام" للشيخ أبي العباس أحمد بن الحسن الأرموي الشافعي. وقد طبعت رسالة بعنوان "جزء فيه ذكر اعتقاد السلف في الحروف والأصوات" ونسبت للنووي، ولكن جاء في (ص: ٦٩) عبارة: "وهذا الذي ذكرناه جميعه من كلام الشيخ أبي العباس الأرموي-رحمه الله-"

١٠-كتاب طرف الطرف في مسألة الصوت والحرف تأليف الشيخ أبي العباس أحمد ابن يحيى الحنبلي-رحمه الله-(ت: ٩٤٨ هـ) وهو مطبوع..

وقالَ جَلَّ وَعَزَّ ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: الآيات: ١٩٢ - ١٩٩]

وقالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧ - ٢٨].

وقالَ سُبحانه: ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: الآيات: ١ - ٤].

وقالَ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ...﴾ [فصلت: الآية: ٤٤].

فأخبرَ تعالى أنَّ القرآنَ الذي نزلَ به جِبريلُ عليه السَّلامُ منهُ تبارك وتعالى وحيُهُ وتنزيلُهُ، وهو هذا القرآنُ العربيُّ الذي أنْزلَ على محمَّد -صلى الله عليه وسلم- بلغةِ قومِهِ، ليفقَهوهُ ويَعْقِلُوهُ ويعْلَمُوهُ.

وقولُه: ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي: بلغةِ العربِ.

فالله تعالى تكلَّمَ به كذلك، بحروفِهِ العربيَّةِ، كالألفِ والباءِ والتَّاءِ، ليسَ شَيْءٌ من ذلك قولَ أحَدٍ سِواهُ، وإنّما بلَّغَهُ جبريلُ عليه السَّلامُ عنه، وبلَّغَهُ محمَّدٌ -صلى الله عليه وسلم- عن جبريل، وهو الذي أعجزَ الكفَّارَ أنْ يأتوا بمثلِه، بَلْ تحدَّى الله تعالى الإنسَ والجنَّ أنْ يأتوا بمثلِهِ، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: الآية: ٨٨].

فكونُهُ مؤلّفًا من الحُروفِ ظاهرٌ لا يَحْتاجُ إلى استدلالٍ، إذْ أنَّ كُلَّ أحَدٍ يعلَم أنَّ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ آيةٌ، وهي أربعُ كَلِماتٍ، كلُّ كلمةٍ مؤلَّفةٌ من حَرْفيْنِ أو أكثر، وهي كَلِماتٌ عَرَبيَّةٌ، وحروفٌ عربيَّةٌ.

ولكنَّ بعضَ أهْلِ البدَعِ نازعَ في إطلاقِ لفظِ (الحَرْف) وأنَّه يَحتاجُ إطلاقُهُ إلى دليلٍ.

وهذا المنازع لا يَخْلو من أحَدِ حالَيْنِ:

إمّا أنْ يكونَ مُكابِرًا -كما هي سِمَة أهلِ البِدَعِ-.
وإمَّا أنْ يكونَ غَبيّاً جاهلًا.

وذلك أنَّ كُلَّ أحَدٍ يُبصِرُ (آلَمَ.آلمر.كهيعص.حم.طه.يس) لا يخطرُ ببالهِ غيرُ أنَّها حُروفٌ، وليسَ لها تسميةٌ إلاَّ هذهِ.

ونحن معَ ذلك نزيدُهُ حُجَجاً على صِحَّةِ إطلاقِ لهذه التَّسْمية من السُّنَّة وآثارِ السَّلَفِ، لنكْسِرَ أنفَ كِبْرِهِ، أو نَمْحُو جَهْلَ فِكْرِهِ، فمِنْ ذلك:

١ - **حديث ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**، قال: بينَما جِبريلُ قاعِدٌ عندَ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- سَمِعَ نقيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فرفَعَ رأسَه فقال:

(هذا بابٌ منَ السَّماءِ فُتِحَ اليومَ لم يُفْتَح قطّ إلاَّ اليوم، فَنَزَلَ منه مَلَكٌ، فقال: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إلى الأرضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إلاَّ اليَوْم، فسَلَّمَ وقالَ: أبْشِرْ بنورَين أوتيتَهما لم يؤتَهُمَا نبيٌّ قبلَكَ: فاتحةِ الكتابِ، وخَواتيمِ سُورَةِ البقرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بحَرْفٍ منهما إلاَّ أعْطِيتَه).(١)

٢ - **حديث عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)**، قال:

(تعلَّموا القرآنَ، فإنَّه يُكْتَبُ بكلِّ حرفٍ منه عشرُ حسناتٍ، ويُكَفَّرُ به عَشْرُ سيِّئاتٍ، أمَا إني لا أقول: ﴿الم﴾ ولكن أقولُ: ألفٌ عَشْرٌ، ولامٌ عَشْرٌ، وميمٌ عَشْرٌ).(٢)

٣ - **وقول ابن عبَّاس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**:

"ما يمنَعُ أحدَكُم إذا رَجَعَ من سُوقِهِ، أو منْ حاجَتِهِ، إلى أهْلِهِ، أنْ يَقْرأ القرآنَ فيكونَ لَه بكلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَناتٍ".(٣)

٤ - **وقالَ شُعَيْبُ بن الحَبْحاب-رحمه الله-(ت: ١٣٠ أو ١٣١ هـ)** (ثِقَةٌ منْ صِغار التَّابعينَ):

كانَ أبو العاليةِ-رحمه الله-(ت: ٩٠ هـ)، إذا قَرَأَ عنده رَجُلٌ لم يَقُلْ: ليس كما يَقرأ، وإنَّما يَقولُ: أمَّا أنا فأقرأ كَذا وكَذا، قال: فذكَرْتُ ذلك لإبراهيمَ النَّخَعيّ، فقالَ: أرى صاحِبَك قَدْ

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٨٠٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦١).

(٣) رواه ابن المبارك في "الزهد" رقم (٨٠٧) وسنده جيد.

سَمِعَ: "أنَّ مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ منهُ، فقد كَفَرَ به كُلِّه".[١]

مسألة الفرق بين الحروف التي يتكلم بها الله، والحروف التي يتكلم بها المخلوق.

الأول: الفَرْقُ بين الحُروفِ التي يتكلَّمُ الله بها، والحُروفِ التي يتكلَّمُ بها المخلوق.

تنازع الناسُ في حُروف المعجم: هَلْ هي مخلوقةٌ؟ أو غيرُ مخلوقة؟

وليس في تحقيق ذلك كبيرُ فائدةٍ، وليس فيه نصٌّ عن معصومٍ يُصار إليه، وإنَّما يَجِبُ الكَفُّ عن إطلاقِ القَوْلِ بالخَلْقِ لئلاَّ يتوهّم متوهّمٌ أنَّ الحروفَ التي تكلَّم الله بها مخلوقةٌ.

وذكرَ ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ) في غير مَوْضِعٍ أنَّ الإمامَ أحمدَ-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، أنكرَ الإطلاقَ، لأنَّهُ مَسْلَكٌ إلى البِدْعَةِ، وإلى القَوْلِ بأنَّ القرآنَ مخلوقٌ.[٢]

وكما يُمْنَع مِن إطلاق القَوْلِ بأنَّ الحروفَ مخلوقةٌ، يُمْنَع أيضاً إطلاقُ القَوْل بأنَّ الحُروفَ غيرُ مخلوقةٍ، لئلا يتوهَّمَ متوهِّم أنَّ الحُروفَ التي هي مَباني كَلام الناس غيرُ مخلوقةٍ، والذي يجرُّ إلى القول بأنَّ ما يتكلَّمُ به العبادُ مِن كلام أنفُسهم هو نفسُه كلامُ الله، فيتحقَّقُ حينئذ للمَلاحِدَة كابن عربي الطائي وأمثاله صِحَّةُ قولِهم:

وكلُّ كَلامٍ في الوجودِ كلامُهُ ...سَواء علينا نَثْرُه ونِظامُهُ

وهذا القولُ من أفحَش الباطِل، وأكفَر الكُفْرِ، إذ مَعْناه أنَّ كلَّ ما تلفِظُ به الخَلائق من الصِّدْق والكَذِبِ، والزُّورِ، والبُهْتان، وألفاظِ الخَنا والفُجور والكُفْر، كلامُ الله.

وحينئذ لا يتميَّزُ حَقٌّ من باطلٍ، ولا صِدْقٌ من كَذبٍ ولا كفرٌ من إيمانٍ.

وإنَّما الحَقُّ والصَّوابُ أن يُقالَ:

إنَّ الحَرْفَ المجرَّد الَّذي هو جزءٌ من اللفظ، مثل: (ز) من كلمة: (زيد) لا يُقالُ فيه مخلوقٌ ولا غيرُ مخلوق، لأنَّ الحرْفَ المجرَّدَ ليس كَلاماً، وإنَّما يقَع الكلام فيما ألّفَ من الحروفِ فأفادَ مَعنًى، ككلمةِ (زيد) اسمُ عَلَمٍ مَعْروفٌ.[٣] والكلامُ المؤلَّفُ من الحُروف الذي يُفيد معنًى يُفَصَّل

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (١٠/ ٥١٣-٥١٤)، وابن جرير في "التفسير" رقم (٥٦) وسنده صحيح.

(٢) انظر: "مجموع الفتاوى" (١٢/ ٤١، ٨٤-٨٥، ٤٤٢).

(٣) فإن اعترض معترض بقوله تعالى: (الم)، (الر)، (ص)، (ن)، وما يشبهها مما جاء في أوائل بعض السور، وقال: إنَّها حروف، ونطلق أنَّها غيرُ مخلوقة لأنَّها كلام الله، فالجواب: أنَّ هذه ليست حروفاً مجردة، كحروف كلمة (زيد) وغيرها من الكلام المؤلف، وإنَّما هي أسماء

=

فيه: فإنْ كانَ كلاماً لله تعالى كانَ غيرَ مخلوقٍ، وإنْ كان كلاماً للعبد يُنْشِئُهُ من تِلقاء نفسهِ، ولا يُرِيدُ به قِراءةَ كلام الله فهو مَخلوقٌ، فقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا** ....﴾ [الأحزاب: الآية: ٣٧] غيرُ مخلوق، وقولك: (جاءَني زيدٌ فأكرمتُهُ) مخلوقٌ، لأنَّ الأوَّل كلامُ الله تعالى نظمه وحروفه، والثانيَ كلامُكَ نظمه وحروفه.

ولو قالَ قائلٌ: (محمَّدٌ رسولُ الله) أو: (ألف، لام، ميم) لم يصحّ فيه إطلاق أنَّه مخلوقٌ، أو غيرُ مخلوق، حتى يُسْتَفْصَل منه، فإنْ أرادَ بِهِ قِراءةَ كلامِ اللهِ كانَ غيرَ مخلوقٍ، وإنْ كان أنشأهُ مبتدِئاً مِن نفسهِ، أو يُبَلِّغُهُ عن غيرِهِ، وهو من إنشاءِ ذلكَ الغيرِ سِوى الله تعالى، كانَ مخلوقاً.

وقد سألَ **الحافظُ الثِّقَةُ أحمدُ بن الحَسن الترمذيُّ–رحمه الله–(ت: غير معروف)** الإمامَ أحمَدَ فقال:

قلتُ لأحمدَ بن حنبل: إنَّ الناسَ قد وقَعوا في أمرِ القرآنِ، فكيف أقولُ؟

قال: "أليسَ أنت مخلوق؟ ".

قلتُ: نعَمْ.

قال: "فكلامُكَ منك مخلوقٌ؟ ".

قلت: نعم.

قال: "أوَلَيسَ القرآنُ من كلامِ الله؟ ".

قلت: نعم.

قال: "وكلامُ الله؟ ".

قلت: نعم.

قال: "فيكون من الله شيءٌ مَخلوق؟ ".(١).

فتأمَّل هذا القولَ الموجَز فإنَّه من أسَدِّ الكلام وأحسَنِهِ، فرَّق الإمامُ أحمدُ فيه بَيْنَ كلامِ الله وكلامِ المِخلوق، بأنَّ كلامَ الله هو الذي قالَه مبتدئاً، وكلامَ المخلوق هو الذي قالَه مبتدئاً، فلمَّا

للحروف، ألا ترى أنَّك تقرؤها: (ألف، لام، ميم ...)؟ فلو كان حرفاً مجرداً لقلت: (أ. لْ. مْ) فهي على ما تُلْفَظ وتُسْمَع لا على ما تُكْتب وترسم، وقد نقل شيخ الإسلام أنَّ الخليل بن أحمد –إمام العربية– سأل == أصحابَه: كيف تنطقون بالزاء مِن (زيد)؟ قالوا: نقول: (زا) قال: جئتم بالاسم، وإنَّما يقال: (زه) – "مجموع الفتاوى" (١٢/ ٤٤٨).

(١) رواه اللالكائي في "السُّنَّة" رقم (٤٥١) بسند صحيح.

كان كلامُ الله ابتدأ منه كانَ غيرَ مخلوقٍ، لأنَّه ليسَ من الله شيءٌ مخلوق، ولما كانَ كلامُ المخلوقِ ابتدأ منه -بمعنى أنه هو الذي أنشَأه- كانَ مخلوقاً، لأنَّ العبدَ بأفعاله جميعاً مخلوقٌ.

ثانيًا: إثبات الصوت.

أ- حد الصوت.

قال المرداوي: "وحد الصوت: ما يتحقق سماعه، فكل متحقق سماعه صوت، وكل ما لا يتأتى سماعه البتة ليس بصوت، وحجة الحد كونه مطردًا منعكسًا.

وقول من قال: إن الصوت هو الخارج من هواء بين جرمين، فغير صحيح، لأنه يوجد سماع الصوت من غير ذلك، كتسليم الأحجار، وتسبيح الطعام والجبال، وشهادة الأيدي والأرجل، وحنين الجذع،

وقد قال الله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء: الآية: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾ [ق: الآية: ٣٠]، وما لشيء من ذلك منخرق بين جرمين".(١)

ب-الأدلة على إثبات الصوت

وأمَّا كلامُهُ تعالى بصَوْتٍ، فقد قامت الدَّلائلُ القَواطِعُ على إثباتِهِ، وهو كسائِرِ صفاتِهِ تعالي، كلما أنَّها لا تَشْبَهُ صفاتِ المخلوقينَ، فصوتُهُ تعالى لا يشبَهُ أصواتَهم، وقياسُ الخالِقِ على المخلوقِ تَشْبيهٌ، والله تعالى ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: الآية: ١١]، في ذاتِهِ، وجَميعِ صفاتِهِ.

والأدلَّةُ على إثباتِ كلامِ الله تعالى بصَوْتٍ كثيرةٌ، منها:

أولًا: الأدلة من القرآن:

١ - تكليمُهُ تعالى لموسى عليه السَّلام، فإنَّه قالَ له: ﴿**فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ**﴾ [طه: الآية: ١٣].

فَدَلَّ هذا على أنَّهُ سَمِعٍ كلامَ الله تعالى، ولا يُسْمَعُ إلاَّ الصَّوْتُ، وربُّنا تعالى قَدْ خاطَبَنا

(١) التحرير شرح التحبير (٣/ ١٣٤٦-١٣٤٥).

باللِّسانِ العَربيّ الذي نفْهَمُهُ، وليسَ فيه سَماعٌ يحصَل من غير صَوْتٍ.[١]

وسبق أنْ بيّنّا أنَّ كلامَ الله لموسى كانَ أعلى درجاتِ التَّكليمِ، وليس هو من جنسْ الإلهاماتِ، وإنَّما هو كلامٌ مسموعٌ بالآذانِ.

وقد **قالَ عبد الله بن أحمدَ بن حَنبل**–(**ت: ٢٩٠ هـ**): سألْتُ أبي رحمه الله عن قومٍ يقولونَ: لما كلَّمَ الله موسى لم يتكلَّمْ بصَوْتٍ؟ فقال أبي:

"بَلَى، إنَّ ربَّكَ–عَزَّ وَجَلَّ–تَكَلَّمَ بصَوْتٍ، هذه الأحاديثُ نَرْويها كما جاءت".[٢]

واحتجَّ لذلكَ بحديث ابن مَسعودٍ الآتي.

وقالَ الإمام أبو بكر المَرُّوذِيُّ–رحمه الله–(ت: ٢٧٥ هـ) صاحبُ الإمام أحمدَ: سمعتُ أبا عبد الله –يعني أحمدَ– وقيل له: إنَّ عبْدَ الوهّاب قَدْ تكلَّم وقالَ: مَنْ زعَمَ أنَّ الله كلَّمَ موسى بلا صَوْتٍ فهو جَهميٌّ عدُوُّ الله وعدوُّ الإسلام، فتبسَّمَ أبو عبد الله وقال: "ما أحسَنَ ما قال، عافاه الله".[٣]

وقال عبدُ الله بن أحمدَ–رحمه الله–(ت: ٢٩٠ هـ) أيضًا: قلتُ لأبي: إنَّ ههُنا مَنْ يقولُ: إنَّ الله لا يتكلَّمُ بصوْتٍ، فقال: "يا بُنيَّ، هؤلاء جَهْميَّةٌ زنادِقَةٌ، إنَّما يَدوُرونَ على التَّعطيل" وذكرَ الآثارَ في خِلاف قَوْلهم.[٤]

٢ – إخبارُه تعالى عن ندائِهِ لموسى عليه السَّلام، ولعبادِهِ يومَ القيامةِ.

وذلك في عدَّةِ مَواضِعَ مِن كتابِهِ، منها:

قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**﴾ [النازعات: الآيات: ١٥، ١٦]

وقوله تعالى: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا**﴾ [مريم: الآية: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى**﴾ [طه: الآية: ١١].

وقوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [القصص: الآية: ٦٥].

---

(١) انظر: "درء تعارض العقل والنقل" (٢/ ٩٣).

(٢) رواه عبد الله في "السنة" رقم (٥٣٣) عنه.

(٣) رواه الخلاّل عن المرّوزي به –كما في "درء التعارض (٢/ ٣٨ – ٣٩).

(٤) ذكر هذا النَّص شيخ الإسلام –كما في "مجموع الفتاوى" (١٢/ ٣٦٨)–ونسبه إلى "كتاب السنة" لعبد الله، ولم أقف عليه فيه، فلعله وقع له في نسخة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: الآيات: ٦٢، ٧٤].

والنِّداءُ: **قال الجوهَريّ**–رحمه الله–**(ت: ٣٩٣ هـ)**: "الصَّوْتُ، وقد يُضَمّ، مثل: الدُّعاء، والرُّغاء، وناداه مُناداةً، ونِداءً، أي: صاحَ به".(١)

وفي "اللسان": النِّداءُ –ممدودٌ– الدُّعاءُ بأرفَعِ الصَّوْت، وقد نادَيْتُه.(٢)

وقال ابن تيمية–رحمه الله–**(ت: ٧٢٨ هـ)**: "والنِّداء في لغة العَرَب: هو صوتٌ رَفيعٌ، لا يُطلَق النِّداء على ما ليسَ بصوتٍ، لا حَقيقةً ولا مجَازًا".(٣)

وما قالَه ابن تيمية مُوافق لِما ذكر عن أهلِ اللغةِ من أنَّ النداءَ الصَّوتُ الرَّفيعُ.

فإذا عُلِمَ هذا ثَبَتَ أنَّ الله تعالى نادى موسى بصَوْتٍ، ويُنادِي بصَوتٍ عبادَه يومَ القيامةِ.

ثانيًا: الأدلة من السنة.

١– **حديثُ عبد الله بن أنَيسٍ**–رضي الله عنه–**(ت: ٥٤ هـ)**، قال: سمعتُ رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– يقول:

(يَحْشُرُ الله العبادَ –أو الناسَ– عُراةً غُرْلًا بُهْمًا".

قلنا: ما بُهْماً؟ قال:

"ليسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، فَيُناديهم بصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ –أحسَبُه قالَ: كما يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ–: أنا المَلِكُ، أنا الدَّيَّانُ ...).الحديث.(٤)

وهذا الحديثُ صَريحٌ في إثْباتِ كلام الرَّبِّ تعالى بصَوْتٍ، وقَد احْتجَّ به على ذلك **إمامُ أهل الحديث محمَّدُ بن إسماعيل البُخاريُّ**–رحمه الله–**(ت: ٢٥٦ هـ)**، فقال:

"وإنَّ الله –عَزَّ وَجَلَّ– ينادي بِصَوْتٍ، يَسْمَعُه مَنْ بَعُدَ كما يَسْمَعه من قَرُبَ، فليسَ هذا لغير الله جَلَّ ذكرُه، وفي هذا دليلٌ أنَّ صوتَ الله لا يشبَهُ أصواتَ الخَلْقِ، لأنَّ صوتَ الله جلَّ

---

(١) "الصحاح" مادة (ندا). نِداءً" (٣٠). (١).

(٢) "اللسان" مادة (ندي).

(٣) "مجموع الفتاوى" (٦/ ٥٣١).

(٤) أخرجه البخاري معلقا بصيغة التمريض مختصراً قبل حديث (٧٤٨١)، وأخرجه موصولًا أحمد (١٦٠٤٢) مطولا باختلاف يسير.

ذكرُهُ يُسْمَع من بُعْدٍ كما يُسْمَع من قُرْبٍ ..." ثُمَّ أسنَدَ الحديثَ.(١)

٢- **حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، أنَّ نبيَّ الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (**إذا قَضى الله الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بأجْنِحَتِها خُضْعانًا لقولِهِ، كأنَّه سلْسِلةٌ على صَفْوانٍ، فإذا فُزِّعَ عن قُلوبِهِم قالوا: ماذا قالَ**).(٢)

ولقد أبى بعضُ أهل البدع الاحتجاجَ بهذا الحديث على إثبات الصوت لله تعالى، وأوَّلَه بأنَّه من مَجاز الحذف، والتقدير: يأمر من ينادي.

- وهذا باطلٌ من أوجهٍ:

الأول: أنَّ الأصلَ في الإطلاق الحقيقة، وهذا ربَّما وافقنا فيه المبتدع في مواضع أُخرى.

والثاني: أنَّ التقدير إنَّما يُصار إله في أحد حالين:

- دلالة القرينة.

- عدم استقامة السياق.

وكلاهما منتفٍ هُنا، فلا قرينةَ تدعو إلى هذا التقدير سِوى التنزيه في دعوى المبتدع، وهو عندنا غير مُنتفٍ، وشأنُها كسائر صفات الباري تعالى، نُثْبِتُها مع التنزيه.

وأمَّا السياق فهو مستقيمٌ لا اضطرابَ فيه، ويؤكّده الوجهُ الآتي.

والثالث: أنَّه خُروجٌ عن الظاهر بغير برهان، بلْ إنَّ البرهانَ ضِدُّه، ألا تَراه قال: "أنا المِلكُ، أنا الديّان ..."؟ فهل يُناسبُ أن يكون هذا كلاماً لغير الله مِن مَلَكٍ أو غيرِه؟ ربُّكُم؟ قالوا للَّذي قال: الحَقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ".(٣)

وفي لفظ: (**إنَّ الله إذا قضى أمْراً في السَّماءِ، ضَرَبَتِ الملائكةُ بأجْنِحتِها جَميعاً، ولقولِهِ صَوْتٌ كصَوْتِ السِّلْسِلةِ على الصَّفا الصَّفوانِ، فذلكَ قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾** [سبأ: الآية: ٢٣]).(٤)

ووجه الاستدلال بهذا اللَّفظ ظاهرٌ، وذلكَ أنَّ قولَه: "ولقوله صوتٌ كصوتِ السِّلْسِلَة"

---

(١) "خلق أفعال العباد" (ص: ١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٣٨٠، ٥٣٧) و (١٣/ ٤٥٣).

(٤) أخرجه ابن جرير في "التفسير" (٢٢/ ٩١).

صَريحٌ في أنَّ قولَه تعالى وكلامَه يكون بصوتٍ.

وأمَّا اللفظُ الأوَّل فإنَّ الضَّميرَ في قوله: "كأنَّه سِلْسِلة" عائدٌ إلى أقرب مذكورٍ، وهو قوله: "لقولِه" فقوله: "سِلْسِلَة على صَفْوان" تضمَّنَ إثباتَ الصَّوتِ للمُخْبَرِ عنه الذي هو القولُ، فيظهرُ بهذا إثباتُ قولِهِ تعالى وكلامِهِ بصَوْتٍ.

ولكنَّ بعضَ أهل البِدَع أبَوْا ذلك من أجْلِ أنْ يُبْطلوا تَكَلُّمَ الرَّبِّ تعالى بصَوْتٍ، فقالوا: الضَّميرُ في قوله: "كأنَّه" عائدٌ على أجنحةِ الملائكةِ، فالصَّوتُ صَوْتُ أجْنِحةِ الملائكةِ.

ولهذا ظاهرُ البُطلانِ لوَجهينِ:

الأول: أنَّ الضَّميرَ في الأصْل يعودُ إلى أقرَب مذكورٍ.

والثاني: أنَّه ضميرُ مذكَّرٍ، ولو كان عائداً على أجنحةِ الملائكة لكانَ مؤنَّثاً.

فإن قيلَ: هذان الوجهان تصرفهُما القَرائن!

قلنا: نعَمْ، إن وُجِدتْ، لكنَّها هنا مُنْتفية، يؤكِّدُ نفْيَها اللَّفظُ الثاني لحَديث أبي هُرَيْرَة كما تَراه.

والحديثُ مِمَّا احتجَّ به البخاريُّ-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ)، لإثباتِ تَكَلُّم الرَّبِّ تعالى بصَوْتٍ.(١)

٣- **حديث عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)** قال:

"إنَّ الله إذا تكلَّمَ بالوَحْي، سَمِعَ أهلُ السماواتِ للسَّماءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسلةِ على الصَّفا، فيُصْعَقونَ، فلا يزالونَ كذلك حتى يأتيَهم جِبريلُ، فإذا جاءَهم جِبْريلُ فُزِّعَ عن قُلوبهم، قال: فيقولونَ: يا جبريلُ، ماذَا قالَ رَبُّكَ؟ قال: الحَقَّ".(٢)

وفي لفظٍ عن عبد الله قال:

"إذا تكلَّمَ الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالوحْيِ سَمِعَ صوتَهُ أهلُ السَّماءِ، فَيَخِرّونَ سُجْداً ﴿**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**﴾ [سبأ: الآية: ٢٣]، قال: سُكِّنَ عنْ قُلُوبِهِم -نادى أهلُ السَّماءِ: ﴿**مَاذَا**

(١) "خلق أفعال العباد" (ص: ١٥١).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في "التوحيد" (ص: ١٤٦، ١٤٧)، وابن جرير (٢٢/ ٩٠)، وعبد الله بن أحمد في "السُّنَّة" رقم (٥٣٧) والبيهقي في "الأسماء والصفات".

قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الْحَقَّ ...﴾ [سبأ: الآية: ٢٣]، قال: كَذا وكَذا".[١]

وهذا الحديث مما احتجّ به الإمامُ أحمد لإثبات كلام الربّ تعالى بصوتٍ.

قال ابنُه عبد الله، قال أبي رحمه الله:

"**حديث ابن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)**: إذا تكلَّم الله عَزَّ وَجَلَّ سُمِعَ له صَوْتٌ كَجَرّ السِّلْسِلة على الصَّفْوان".

قال أبي: "وهذا الجهميةُ تُنْكِرُهُ".

وقال أبي: هؤلاء كُفَّارٌ، يُريدونَ أن يُمَوِّهوا على النَّاسِ، مَنْ زَعَمَ أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لم يتكلَّمْ فهو كافرٌ، إلاَّ أنَّا نروي هذه الأحاديث كما جاءَت".[٢]

ثالثًا: أقوال العلماء في إثبات الصوت.

قال البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ)، في إثبات الصوت: "وأن الله عز وجل ينادي بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرب، فليس هذا لغير الله جل ذكره.

قال أبو عبد الله: وفي هذا دليل على أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق؛ لأن صوته جل ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب وأن الملائكة يصعقون من صوته، فإذا تنادى الملائكة لم يَصعقوا".[٣]

وقال الحافظُ أبو نَصْرٍ السِّجْزِيُّ–رحمه الله–(ت: ٤٤٤ هـ): "وليسَ في وجود الصَّوْتِ من الله تعالى تَشبيهٌ بمَنْ يوجَد الصَّوْتُ منه من الخَلْق، كما لَم يكنْ في إثباتِ الكلامِ له تشبيهٌ بمَنْ له كلامٌ من خلقِهِ".[٤]

وقال الإمام ابن قدامة–رحمه الله–(ت: ٦٢٠ هـ): "ومن صفات الله تعالى أنه متكلم بكلام قديم يسمعه منه من شاء من خلقه، سمعه موسى عليه السلام منه من غير واسطة، وسمعه جبريل عليه السلام، ومن أذن له من ملائكته ورسله، وأنه سبحانه يكلم المؤمنين في

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في "السُّنَّة" رقم (٥٣٦) والخَلاَّل –كما في "درء التعارض" (٢/ ٣٨)، عن الإمام أحمد.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في "السُّنَّة" رقم (٥٣٤)، ونحوه روى الخلاَّلُ عن يعقوب بن بختان –أحد الثقات من أصحاب أحمد–عن أحمد–كما في "درء التعارض" (٢/ ٣٨).

(٣) "خلق أفعال العباد"، للبخاري، (ص: ١٤٩).

(٤) "درء تعارض العقل والنقل" (٢/ ٩٣).

الآخرة ويكلمونه، ويأذن لهم فيزورونه، قال الله تعالى: ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾ [النساء: الآية: ١٦٤] وقال سبحانه: ﴿**يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٤] وقال سبحانه: ﴿**مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ**﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٣] وقال سبحانه: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ [الشورى: الآية: ٥١] وقال سبحانه: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى - إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**﴾ [طه: الآية: ١١ - ١٢] وقال سبحانه: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي**﴾ [طه: الآية: ١٤] وغير جائز أن يقول هذا أحد غير الله.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ): " إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء "، روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، وروى عبد الله بن أنيس عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: (**يحشر الله الخلائق يوم القيامة عراة حفاة غرلا بهما فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان**)، رواه الأئمة واستشهد به البخاري".(١)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "واستفاضت الأثار عن النبيّ -صلى الله عليه وسلم-، والصَّحابةِ، والتابعين، ومَن بعدَهم من أئمَّةِ السُّنَّة، أنَّه سبحانه يُنادي بصَوْتٍ، نادى موسى، ويُنادي عِبادَه يومَ القيامةِ بصَوْتٍ، ويتكلَّمُ بالوحي بصَوتٍ، ولم يُنْقَل عن أحدٍ من السَّلَفِ أنه قال: إنَّ الله يتكلَّمُ بلا صَوْتٍ، أو بِلا حَرْفٍ، ولا أنَّهُ أنْكَرَ أنْ يَتَكَلَّمَ الله بصَوْتٍ، أو بحَرْفٍ".(٢)

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وليسَ في الأئمَّة والسَّلَف من قالَ: إنَّ الله لا يتكلَّمُ بصَوْتٍ، بل قَدْ ثبَتَ عن غير واحدٍ من السَّلَفِ والأئمَّة أنَّ الله يتكلَّمُ بصَوْتٍ، وجاءَ ذلك في آثارٍ مشهورةٍ عن السَّلَفِ والأئمَّةِ، وكانَ السَّلَفُ والأئمةُ يذكرونَ الآثارَ التي فيها ذكرُ تَكلُّمِ الله بالصَّوْتِ ولا يُنْكِرُها منهم أحدٌ".(٣)

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): " قول الجمهور وأهل الحديث وأئمتهم: إن

(١) "لمعة الاعتقاد" (ص: ١٥). "خلق أفعال العباد"، للبخاري، (ص: ١٤٩).

(٢) "مجموع الفتاوى" (١٢/ ٣٠٤ – ٣٠٥).

(٣) "مجموع الفتاوى" (٦/ ٥٢٧، وانظر: ٢٤٤).

الله تعالى لم يزل متكلما إذا شاء وأنه يتكلم بصوت كما جاءت به الآثار، والقرآن وغيره من الكتب الإلهية كلام الله تكلم الله به بمشيئته وقدرته ليس ببائن عنه مخلوقا.ولا يقولون إنه صار متكلما بعد أن لم يكن متكلما ".[(١)]

وقال ابن أبي العز الحنفي-رحمه الله-(ت: ٧٩٢ هـ): " أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديما، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة".[(٢)]

الأقوال في مسألة الصوت.

والذين قالوا: إن الله يتكلم بصوت أربع فرق:

فرقة قالت: يتكلم بصوت مخلوق منفصل عنه، وهم المعتزلة.

وفرقة قالت: يتكلم بصوت قديم لم يزل ولا يزال، وهم السالمية والاقترانية.

وفرقة قالت: يتكلم بصوت قديم حادث في ذاته بعد أن لم يكن، وهم الكرامية.

وقال أهل السنة والحديث: لم يزل الله متكلما بصوته إذا شاء.

والذين قالوا: لا يتكلم بصوت فرقتان:

١-أصحاب الفيض،

٢-والقائلون إن الكلام معنى قائم بالنفس".[(٣)]

أصل الخلاف في مسألة الصوت:

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "أول ما ظهر إنكار أن الله سبحانه يتكلم بصوت في أثناء المائة الثالثة، فإنه لما ظهرت الجهمية المعطلة في إمارة أبي العباس المأمون (ت: ٢١٨ هـ)، وأدخلته في آرائها بعد أن كانوا أذلاء مقموعين، وهؤلاء كان عندهم أن الله لا يتكلم أصلا بحرف، ولا صوت ولا معنى ولا يرى، ولا هو مستو على عرشه، ولا علم ولا حياة

(١) "مجموع الفتاوى" (١٢/ ١٧٣).

(٢) "شرح الطحاوية" (١/ ١٧٤).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٥٢٨-٥٢٩).

ولا إرادة ولا حكمة تقوم به فلما وقعت المحنة وثبت الله خلفاء الرسل وورثة الأنبياء على ما ورثوه عن الأنبياء والمرسلين، وعلموا أن باطل أولئك هو نفاق مشتق من أقوال المشركين والصابئين الذين هم أعداء الرسول وسوس الملك، وظهر للأمة سوء مذاهب الجهمية وما فيها من التعطيل ظهر حينئذ عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري (ت: ٢٤١ هـ) وأثبت الصفات موافقة لأهل السنة، ونفى عنها الخلق ردا على الجهمية والمعتزلة، ولم يفهم لنفي الخلق عنها معنى إلا كونها قديمة قائمة بذاته سبحانه، فأثبت قدم العلم والسمع والبصر والكلام وغيرها، ورأى أن القديم لا يتصور أن يكون حروفا وأصواتا لما فيها من التعاقب وسبق بعضها بعضا، فجعل كلام الله القديم الذي ليس بمخلوق هو مجرد معنى أو معان محصورة، وسلك طريقة خالف فيها المعتزلة، ولم يوافق فيها أهل الحديث في كل ما هم عليه، فلزم من ذلك أن يقول إن الله لم يتكلم بصوت وحرف وتبعه طائفة من الناس.

وأنكر ذلك الإمام أحمد وأصحابه كلهم، والبخاري صاحب الصحيح، فقال عبد الله بن أحمد في كتاب السنة: قلت لأبي: يا أبت إن قوما يقولون إن الله لم يتكلم بصوت، فقال: يا بني هؤلاء الجهمية إنما يدورون على التعطيل يريدون أن يلبسوا على الناس، بلى تكلم بصوت".(١)

مسألة الصوت المسموع من القارئ.

الصَّوْتُ المسموعُ من القارئ وهو يتلو كلامَ الله، هو صَوْتُ القارئ، لا صَوْت الله تعالى، كما نصَّ عليه الأئمَّةُ كأحمدَ وغيرِه.(٢)

وذلكَ أنَّ صوتَ العبْدِ إنَّما هو فعلُه القائمُ به، وأفعاله جميعاً مضافة إليه مخلوقةٌ كخَلقهِ، لكنَّ المسموعَ بصَوْتهِ، الذي نطَقَ به لسانُهُ، وتحرَّكَتْ به شفَتاهُ، كلامُ الله تعالى.

والدَّليلُ على ذلكَ قولُ النَّبيِّ-صلى الله عليه وسلم-: "زيّنوا القرآنَ بأصواتِكم".(٣)

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٥٢٥-٥٢٦).

(٢) ذكر ذلك شيخ الإسلام في "درء التعارض" (٢/ ٤٠).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٤)، وأبو داود رقم (١٤٦٨)، والنَّسائي (٢/ ١٧٩)، وفي "فضائل القرآن" -من "الكبرى"- رقم (٧٥)، وابن ماجة رقم (١٣٤٢)، والبخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (٢٥٠ - ٢٥٤، ٢٥٦) والدارمي رقم (٣٥٠٣)، وابن حبان رقم (٧٣٧)، والحاكم (١/ ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤. ٥٧٥).

فأضافَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- الأصواتَ إلى القُرّاء، لأنَّها اكْتِسابُهُمْ وفعلهُمْ، وفرَّقَ بينها وبينَ القرآن الذي هو كلامُ الله ووحيُهُ وتنزيلُهُ، الذي لا يكونُ من التالي سِوى قراءتِه وأدائِه وتبليغهِ.

فالقرآنُ كلامُ الله مُضافٌ إليه تعالى لأنَّه منهُ، لا يُضافُ للتالي لأنَّه أدّاه بصَوتِهِ وحَرَكَتهِ، شأن كلّ كلامٍ سواه يُبلِّغهُ الواحدُ مِنَّا، فإنَّهُ إنَّما يُضافُ إلى مَن قالَه مُبتدئاً.

فقولُكَ: "إنَّمَا الأعمالُ بالنّياتِ، وإنَّما لكلّ امرئٍ ما نَوى" (١) تُبلّغُه أنتَ بصَوْتِكَ وحَرَكَتِكَ، وليسَ لك من نظْمهِ شيْءٌ، إنَّما هو كلامُ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- بلفظهِ ومعناه، ولو قلتَ: هو كَلامي، لكذّبكَ مَن يسمَعُك، إذ ليسَ لك من ذلك إلاَّ التبليغُ والأداءُ.

فكذلكَ كلامُ الله تعالى إذا تلاه التالي، وقرأه القارئ.

قال الله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ...﴾ [التوبة: الآية: ٦] فأضافَ الكلام إلى نفسِهِ، لأنَّه هو الذي ابتدأ نَظْمَهُ بحُروفِهِ ومعانيهِ، يسمَعُه المشرك بأذُنَيْهِ بصَوْتِ القارئ، فإنَّه إنَّما يسمَع كلامَ الله مِنَ القارئ.

سابعًا: أن الله سبحانه وتعالى أسمعه جبريل، وجبريل أبلغه محمد-صلى الله عليه وسلم- .

وقالَ ابن تيمية رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وَمَذْهَبُ سَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَخَلَفِهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ الْقُرْآنَ مِنْ جِبْرِيلَ، وَجِبْرِيلُ سَمِعَهُ مِن اللَّهِ عز وجل". (٢)

يؤمنُ أهل السنة بأن القرآن كلامُ الله عز وجل، منه بدأ وإليه يعود، وأن هذا كلام الله بحرفٍ وصوتٍ مسموعين وأن الله سبحانه وتعالى أسمعه جبريل، وجبريل أبلغه محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الكلام هو كلام الله عز وجل.

ومذهب أئمَّة الحديث والسنَّة: أن الله تعالى لم يَزل متكلِّمًا، إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلَّمُ بصوت يُسمَع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا.

ثم قال: "الآثار مُتواترة عنهم-أي: عن الصحابة والتابعين-بأنهم كانوا يقولون: القرآن كلام

(١) خرجه الشيخان في "صحيحيهما" من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٣٣).

الله، ولما ظهر مَن قال: إنه مخلوق، قالوا ردًّا لكلامه: إنه غير مخلوق، ولم يريدوا بذلك أنه مُفترى، كما ظنه بعض الناس؛ فإن أحدًا من المسلمين لم يَقل: إنه مفترى، بل هذا كفر ظاهر يَعلمه كل مسلم، وإنَّما قالوا: إنه مخلوق خلقه الله في غيره، فرَدَّ السلف هذا القول، كما تواترت الآثار عنهم بذلك، وصنفوا في ذلك مصنفات متعددة، وقالوا: «منه بدأ وإليه يعود».

ونصوصُ القرآن واضحة بأنه كلامه سبحانه وتعالى ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ**﴾ [التوبة: الآية:٦] فهذا الكلام كلامه سبحانه وتعالى، منه بدأ، تكلم به حقيقةً، ونثبتُ صفة الكلام لله عز وجل كما أثبتها لنفسه وكما أثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الله سبحانه وتعالى لكلامه صوت كما جاءَ في النصوص، وأنه بحرف وصوت مسموعين، وأنه سبحانه وتعالى يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء سبحانه وتعالى، وأن القرآن كلامُ الله تعالى غيرُ مخلوق.

فالقرآن كلام الله، ليس ككلام البشر، وقد توعَّد الله من وصَف القرآن بأنه ككلام البشر، توعَّده بالنار فقال تعالى: ﴿**إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ**﴾ [المدثر: الآيات: ٢٥، ٢٦]، فإن كان كلام البشر مخلوقًا لهم، فكلام الله ليس مخلوقًا له، إنما هو صفةٌ من صفاته سبحانه.

الأقوال في سماع كلام الله

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "واختلفت الفرق هل يسمع كلام الله على الحقيقة؟

فقالت فرقة: لا يسمع كلامه على الحقيقة إنما يسمع حكايته والعبارة عنه، وهذا قول الكلابية ومن تبعهم،

وقالت بقية الطوائف، بل يسمع كلامه حقيقة، ثم اختلفوا

فقالت فرقة: يسمعه كل أحد من الله، وهذا قول الاتحادية،

وقالت فرقة: بل لا يسمع إلا من غيره، وعندهم يسمع كلام الله منه، فهذا قول الجهمية والمعتزلة.

وقال أهل السنة والحديث يسمع كلامه سبحانه منه تارة بلا واسطة كما سمعه موسى وجبرائيل وغيره، وكما يكلم عباده يوم القيامة، ويكلم أهل الجنة، ويكلم الأنبياء في الموقف،

ويسمع من المبلغ عنه كما سمع الأنبياء الوحي من جبرائيل تبليغا عنه، وكما سمع الصحابة القرآن من الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله، فسمعوا كلام الله بواسطة المبلغ، وكذلك نسمع نحن بواسطة التالي.

فإذا قيل: المسموع مخلوق أو غير مخلوق؟ قيل إن أردت المسموع عن الله فهو كلامه غير مخلوق،

وإن أردت المسموع من المبلغ ففيه تفصيل، فإن سألت عن الصوت الذي روي به كلام الله فهو مخلوق،

وإن سألت عن الكلام المؤدى بالصوت فهو غير مخلوق".(١)

مسألة: هل اللفظ بالقرآن مخلوق أو لا؟

وهل يجوز أن يقول القائل: لفظي بالقرآن مخلوق؟

واللفظ يأتي بمعنى: التلفظ، ويأتي بمعنى الملفوظ؛ هل هو الملفوظ الخارج، أو حركة اللسان التلفظ؟

فمعلوم أنه إن أريد الأول وهو التلفظ: فالتلفظ من أفعال العبد، وأفعال العباد مخلوقة.

وإن عُني باللفظ الملفوظ فالملفوظ هو القرآن.

لهذا صارت الكلمة محتملة، واستعمال المحتملات في العقيدة بدعة؛ فإنه لا يجوز أن تستعمل مثل هذه العبارة التي قد تحتمل شيئًا آخر؛ فيفهم الناس منها فهمًا غير سليم.

ولهذا كان **الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ)** يقول: "مَن قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، ومن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع أيضًا"؛ لأنها تحتمل هذه وهذه، وقد سكت السلف عن الإطلاق؛ لأنَّ الألفاظ المحتملة فيما يتصل بذات الله جل وعلا أو صفاته أو أفعاله أو أمور العقيدة والغيبيات لا يجوز استعمالها، وينهى عنها.

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "أئمة أهل السنة وأهل الحديث من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وغيرهم ينكرون على من يجعل لفظ العبد بالقرآن أو صوته به أو غير ذلك من صفات العباد المتعلقة بالقرآن– غير مخلوقة، ويأمرون بعقوبته بالهجر وغيره، وقد جمع

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٥٢٨).

بعض كلامهم في ذلك أبو بكر الخلال في (كتاب السنة)، ومن المشهور في (كتاب صريح السنة) لمحمد بن جرير الطبري وهو متواتر عنه، لما ذكر الكلام في أبواب السنة قال: وأما القول في ألفاظ العباد بالقرآن، فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي مضى، ولا عن تابعي قفا إلا عمن في قوله الشفاء والغناء، وفي اتباعه الرشد والهدى، ومن يقوم لدينا مقام الأئمة الأولى: أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، فإن أبا إسماعيل الترمذي حدثني قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل يقول: اللفظية جهمية، يقول الله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية: ٦] ، ممن يسمع؟! **قال ابن جرير–رحمه الله–(ت: ٣١٠ هـ)**: وسمعت جماعة من أصحابنا –لا أحفظ أسماءهم– يحكون عنه أنه كان يقول: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق، فهو مبتدع.قال ابن جرير: ولا قول في ذلك عندنا يجوز أن نقوله غير قوله؛ إذ لم يكن لنا إمام نأتم به سواه، وفيه الكفاية والمقنع، وهو الإمام المتبع"(١)

ولهذا **قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ)**:

وَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ وَالتَّبْيِينِ فَالْ *** إِطْلَاقُ وَالإِجْمَالُ دُونَ بَيَانِ

قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ وَخَبَّطَا الـ *** أَذْهَانَ وَالآرَاءَ كُلَّ زَمَانِ"(٢)

وقد رأي الإمام أحمد وبعض الأئمة أنه لا يُقال: اللفظ بالقرآن مخلوق، ولا يقال: غير مخلوق؛ لأن الكلام هنا محتمل، فعندما يقول القائل: لفظي بالقرآن مخلوق، فهل يقصد به القرآن الذي هو كلام الله تعالى، أو يقصد فعل المخلوق؟

فإن قال: اللفظ بالقرآن غير مخلوق، فقد لا يقصد هنا كلام الله تعالى، وإنما يقصد كلامه هو، وهذا خطأ؛ لأن نطق الإنسان مخلوق، فالمسألة تكون محتملة، فمن هذا الباب باب منع الإمام أحمد والأئمة من أهل السنة أن يُقال: لفظي القرآن مخلوق أو غير مخلوق؛ لأن هذا اللفظ محتمل.

قال أبو القاسم التيمي الأصبهاني–رحمه الله–(ت: ٥٣٥ هـ): "وأول من قال باللفظ، وقال: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة: حسين الكرابيسي (ت: ٢٥٦ هـ).فبدعه أحمد بن حنبل، ووافقه على تبديعه علماء الأمصار...." ثم سمّى طائفة كثيرة من علماء الأمصار، ثم قال: "فمذهبهم

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٢) انظر: «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» لابن القيم.

ومذهب أهل السنة جميعاً أن القرآن كلام الله آية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً في جميع أحواله، حيث قرئ وكتب وسمع"(١)

بينما ينص الإمام البخاري وبعض أهل السنة على أن اللفظ بالقرآن الذي هو نطق الإنسان مخلوق، فإذًا فَصَّلوا وبيَّنوا أنه إذا قصد النطق فهذا مخلوق، وإذا قصد الأصل الذي هو كلام الله سبحانه وتعالى الملفوظ، فهذا غير مخلوق.

وحدثت في هذه المسألة فتنة للبخاري، أثارها عليه شيخه محمد بن يحيي الذهلي-رحمه الله- (ت: ٢٥٨ هـ)، ودافع عنه ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ) في كتابه «الصواعق»، وقال: «إن البخاري في هذه المسألة أقعد وبيَّن ووضَّح وفصَّل في هذه المسألة، وتشنيع الذهلي عليه هذا من باب الغيرة والحسد الذي بين الشيخ وتلميذه؛ لأن البخاريَّ تفوق عليه.

فالمسألة محل خلاف، مثل مسألة الاسم والمسمَّى؛ لأن المخرج فيهما واحد؛ لأن كِلا المسألتين تعودان إلى صفة الكلام، والكلام: صفة من صفات الله سبحانه وتعالى غير مخلوق، وبناء على ذلك ترتَّب خلاف في مسألة اللفظ وفي مسألة الاسم والمسمى؛ لأن أسماء الله تعالى من كلامه، والقرآن من كلامه عز وجل، فحصل خلاف في هذه المسألة بناءً على ذلك.

أصل النزاع في المسألة:

مسألة خلق القرآن حدثت في زمن محنة الجهمية والفتنة المشهورة فهي وليدة هذه الفتنة ومنها نشأ النزاع فيها هل الإيمان مخلوق أم لا؟

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ) لما سئل: هل الإيمان مخلوق أم غير مخلوق؟

"فالجواب أن هذه المسألة نشأ النزاع فيها لما ظهرت محنة الجهمية في القرآن هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟ وهي محنة الإمام أحمد وغيره من علماء المسلمين، وقد جرت بها أمور يطول وصفها هنا، لكن لما ظهر القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأطفأ الله نار الجهمية المعطلة.

صارت طائفة يقولون: إن كلام الله الذي أنزله مخلوق، ويعبرون عن ذلك باللفظ، فصاروا يقولون ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، أو تلاوتنا أو قراءتنا مخلوقة، وليس مقصودهم مجرد كلامهم وحركاتهم، بل يدخلون فيه نفس كلام الله الذي نقرؤه بأصواتنا وحركاتنا.

وعارضهم طائفة أخرى فقالوا: ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة.

---

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ٣٧٠).

فرد الإمام أحمد على الطائفتين وقال: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع.وتكلم الناس حينئذ بالإيمان فقالت طائفة: الإيمان مخلوق وأدرجوا في ذلك ما تكلم الله به من الإيمان مثل (قول لا إله إلا الله)، فصار مقتضى قولهم إن هذه الكلمة مخلوقة، ولم يتكلم الله بها، فبدع الإمام أحمد هؤلاء، وقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها: قول لا إله إلا الله**».(١) أفيكون قول لا إله إلا الله مخلوقا؟

ومراده أن من قال: إن ألفاظنا وتلاوتنا وقراءتنا للقرآن مخلوقة، كان مقتضى كلامه أن الله لم يتكلم بالقرآن الذي أنزله.وأن القرآن المنزل ليس هو كلام الله".(٢)

وقال رحمه الله: "وإذا قال: الإيمان مخلوق أو غير مخلوق؟ قيل له: ما تريد (بالإيمان)؟ أتريد شيئا من صفات الله وكلامه، كقول (لا إله إلا الله) و(إيمانه) الذي دل عليه اسمه المؤمن، فهو غير مخلوق.أو تريد شيئا من أفعال العباد وصفاتهم فالعباد كلهم مخلوقون، وجميع أفعالهم وصفاتهم مخلوقة، ولا يكون للعبد المحدث المخلوق صفة قديمة غير مخلوقة، ولا يقول هذا من يتصور ما يقول، فإذا حصل الاستفسار والتفصيل ظهر الهدى وبان السبيل، وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، وأمثالها مما كثر فيه تنازع الناس بالنفي والإثبات إذا فصل فيها الخطاب، ظهر الخطأ من الصواب.

والواجب على الخلق أن ما أثبته الكتاب والسنة أثبتوه، وما نفاه الكتاب والسنة نفوه، وما لم ينطق به الكتاب والسنة لا بنفي ولا إثبات استفصلوا فيه قول القائل: فمن أثبت ما أثبته الله ورسوله، فقد أصاب، ومن نفى ما نفاه الله ورسوله فقد أصاب، ومن أثبت ما نفاه الله أو نفى ما أثبته الله فقد لبس دين الحق بالباطل، فيجب أن يفصل ما في كلامه من حق أو باطل، فيتبع الحق ويترك الباطل، وكل من خالف الكتاب والسنة فإنه مخالف أيضا لصريح المعقول، فإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، كما أن المنقول عن الأنبياء عليهم السلام لا يخالف بعضه بعضا، ولكن كثيرا من الناس يظن تناقض ذلك، وهؤلاء من الذين اختلفوا في الكتاب ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ**

(١) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٥٥).

بَعِيدٍ﴾ [البقرة الآية: ١٧٦]، ونسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا".(١)

قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "من قال: الإيمان مخلوق كفر، ومن قال: غير مخلوق ابتدع.فقيل: بالوقف مطلقا، وقيل: أقواله قديمة وأفعاله مخلوقة.

قال ابن حمدان–رحمه الله–(ت: ٦٩٥ هـ) في نهاية المبتدئين: وهو أصح، ونقله عن ابن أبي موسى وغيره.ونقل الإمام الحافظ ابن رجب–رحمه الله–(ت: ٧٩٥ هـ) في طبقات الأصحاب في ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي–رحمه الله–(ت: ٦٠٠ هـ)، ما لفظه قال: روي عن إمامنا أحمد–رضي الله عنه–(ت: ٢٤١ هـ)، أنه قال: من قال: الإيمان مخلوق فهو كافر، ومن قال: قديم فهو مبتدع.

قال الحافظ عبد الغني–رحمه الله–(ت: ٦٠٠ هـ): "وإنما كفر من قال بخلقه؛ لأن الصلاة من الإيمان، وهي تشتمل على قراءة وتسبيح وذكر الله–عز وجل–ومن قال بخلق ذلك كفر، وتشتمل على قيام وقعود وحركة وسكون ومن قال بقدم ذلك ابتدع.انتهى بحروفه، والله–تعالى–الموفق".(٢)

قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "لسنا نشك أن أسماء الله عز وجل غير مخلوقة، لسنا نشك أن علم الله عز وجل غير مخلوق، فالقرآن من علم الله وفيه أسماء الله فلا نشك أنه غير مخلوق، وهو كلام الله عز وجل ولم يزل به متكلما".(٣)

وقال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "من زعم أن أسماء الله مخلوقة فهو كافر".(٤)

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "وأما مسألة تكلم العباد بالقرآن فقد اشتبهت على كثير من الناس،

فقالت طائفة: إن الله يخلق كلامه عند تلاوة كل تال، فيجري كلامه المخلوق على

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٦٤).

(٢) لوامع الأنوار البهية (١/ ٤٤٦).

(٣) نقله عنه الأشعري في كتاب الإبانة عن أصول الديانة (ص: ٨٨)

(٤) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢/ ٢١٤).

لسان التالي، وفعل التالي هو حركة اللسان فقط وهي القراءة: فالقراءة صنع العبد عندهم، والمقروء صنع الله وخلقه، فالمسموع عندهم مخلوق بين صنعين: صنع الرب وصنع العبد، وهذا قول أبي هذيل والإسكافي وأصحابه.

وقالت فرقة أخرى: إن العبد هو المحدث لأفعاله وتلاوته، والله تعالى خلقه في مكان واحد لا ينتقل عنه ولا يفارقه إلى غيره، فهذا المسموع هو صنع التالي ألفاظه وتلاوته، وهذا قول أكثر البغداديين من المعتزلة، وقول جعفر بن حرب.

وقالت فرقة: إن القرآن لم يخلقه الله تعالى في الحقيقة ولا هو فعله، فإنه عرض وهم يحيلون أن تكون الأعراض فعلا لله، قالوا فهو فعل المحل الذي قام به، وهذا قول معمر وأصحابه من المعتزلة.

وقالت فرقة: إن الله سبحانه خلق كلامه في اللوح المحفوظ ثم مكن جبرائيل أن يأخذه منه نقلا ويعلمه رسوله صلى الله عليه وسلم، فجبرائيل إذا نطق به كان نطقه بمنزلة من يقرأ كتاب غيره، لكن الحروف والأصوات في الحقيقة لجبرائيل لم تقم بذات الرب حروف القرآن ولا ألفاظه، ولا سمعه جبرائيل من الله تعالى، وإنما نزل به من المحل الذي خلق فيه، وهذا قول كثير من الكلابية، فعندهم أن المسموع قول الرسول الملكي حقيقة سمعه منه الرسول البشري فأداه كما سمعه، فالرسول الملكي ناقل لما في اللوح المحفوظ غير سامع له من الله، والرسول البشري ناقل له عن جبرائيل قوله وألفاظه.

ومن هؤلاء من يقول: بل الله تعالى ألهم جبرائيل معانيه، فعبر عنها جبرائيل بعبارته، فهذه الألفاظ كلام جبرائيل في الحقيقة لا كلام الله.

ومنهم من يقول: جبرائيل علم رسول الله نص معانيه وألقاها في روعه، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشأ ألفاظها وعبر بها من عنده دلالة على ذلك المعنى الذي ألقاه إليه الملك، فالقرآن العربي على قولهم قول محمد –صلى الله عليه وسلم– أو قول جبرائيل –عليه السلام–، وهذا قول من لا نسميهم لشهرتهم، وإن حرفوا العبارة وزينوا له الألفاظ، فهو قولهم الذي يناظرون عليه ويكفرون من خالفهم فيه يقولون فيه: قال أهل الحق كذا، وقالت سائر فرق أهل الزيغ بخلافه.

وقالت فرقة أخرى: بل لسان التالي مظهر للكلام القديم، فيسمع منه عند التلاوة كما

سمع موسى كلام الله من الشجرة، فلسان التالي كالشجرة محل ومظهر للكلام، فإذا قال التالي ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: الآية: ٢] كان المسموع كله حروفه وأصواته غير كلام الله القائم به من غير حلول في القارئ ولا اتحاد به، كما أن الله سبحانه لم يحل في الشجرة ولا اتحد بها، وسمع موسى كلامه منها.

واختلفت هذه الفرقة في الصوت الذي يسمع من القارئ على قولين:

أحدهما: إنه عين صوت الله بالقرآن ظهر عند تلاوة التالي، فكانت التلاوة مظهرة له.

وقالت فرقة أخرى منهم: ما لا بد منه من الصوت في الأداء ولا يتأدى الكلام بدونه، فهو الصوت القديم، وما زاد عليه من قوة الاعتماد والرفع فمحدث.

قالوا: وقد اقترن القديم بالمحدث على وجه معسر التمييز بينهما جدا، فلما ورد عليهم أن الحس شاهد بأن هذا الصوت موجود بعد أن كان معدوما ومعدوما بعد وجوده وهذا مستحيل على القديم، أجابوا بأن الذي وجد بعد عدمه ثم عدم بعد وجوده هو ظهور الصوت القديم لا نفسه، فالمحدث وقع على الإدراك لا على المدرك، كما إذا سمع كلامه سبحانه منه بعد أن لم يسمع، ثم عدم السمع فالحدوث واقع على السمع لا على المسموع، وهذا قول جماعة ممن ينسب إلى الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ).

وأصحابه المتقدمون بريئون من هذا المذهب المخالف للحس والعقل والفطرة، ونصوص أحمد إنما تدل على خلافه، فقد نص في رواية جماعة من أصحابه على أن الصوت صوت العبد، فقال في قول النبي-صلى الله عليه وسلم- **(ليس منا من لم يتغن بالقرآن)**.(١)، قال يجهر به ويحسنه بصوته ما استطاع، وقد نص على ذلك الأئمة كالبخاري وغيره.

قال البخاري-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ) في صحيحه: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(الماهر بالقرآن مع الكرام البررة)**.(٢)، **(وزينوا القرآن بأصواتكم)**.(٣) ثم احتج بحديث

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٣٧) بلفظ مقارب، ومسلم (٧٩٨) باختلاف يسير.

(٣) رواه الإمام أحمد (٤/ ٨٣)، وأبو داود (١٤٦٨)، وابن ماجه (١٣٤٢)، والنسائي (٢/ ١٧٩)، وصححه ابن حبان (٣/ ٢٥ (٧٤٩)، والحاكم (١/ ٥٧١). وعلقه البخاري قبل حديث (٧٥٤٤) كلهم من حديث البراء بن عازب وصححه الألباني في "صحيح أبي داود" (١٣٢٥) وقال: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير عبدالرحمن بن عوسجة وهو ثقة.

أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)، عن النبي-صلى الله عليه وسلم- **(ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به)**.(١) ، فأضاف الصوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ ثم ساق حديث **البراء**-رضي الله عنه-(ت: ٧٢ هـ)، **(أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في العشاء بالتين والزيتون، ما سمعت صوتا أحسن منه)**.(٢)، فأضاف الصوت إليه ثم ذكر حديث **ابن عباس**-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)، **(أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متواريا بمكة وكان يرفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن جاء به، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾** [الإسراء: الآية: ١١٠]).(٣) ثم قال: باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز تراقيهم، وذكر في الباب حديث **أبي سعيد الخدري**-رضي الله عنه-(ت: ٧٤ هـ) **(يخرج أناس من قبل المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم)**.(٤)، ومعلوم أن المراد التلاوة والأداء وما قام بهم من الأصوات، وأنها لم تجاوز حناجرهم، وكان البخاري قد امتحن بهذه الفرقة، فتجرد للرد عليهم وبالغ في ذلك في كتاب (خلق أفعال العباد) فإنه بناه على ذلك وأن أصوات العباد من أفعالهم أو متولدة عن أفعالهم فهي من أفعالهم، فالصوت صوت العبد حقيقة، والكلام كلام الله حقيقة، أداه العبد بصوته كما يؤدي كلام الرسول وغيره بصوته، فالعبد مخلوق وصفاته مخلوقة وأفعاله مخلوقة وصوته وتلاوته مخلوقة، والمتلو المؤدى بالصوت غير مخلوق.

واحتج البخاري في الصحيح في (خلق أفعال العباد) على ذلك بنصوص التبليغ، كقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾** [المائدة: الآية: ٦٧] وقوله: **﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾** [الشورى: الآية: ٤٨] وقوله: **﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾** [الأعراف: الآية: ٧٩] وهذا من رسوخه في العلم، فإن ذلك يتضمن أصلين ضل فيهما أهل الزيغ:

أحدهما: أن الرسول ليس له من الكلام إلا مجرد تبليغه، فلو كان هو قد أنشأ ألفاظه لم يكن مبلغا، بل منشئا مبتدئا، ولا تعقل الأمم كلها من التبليغ سوى تأدية كلام الغير بألفاظه

(١) أخرجه البخاري (٧٥٥٤)، ومسلم (٧٩٢).
(٢) أخرجه البخاري (٧٥٤٦)، ومسلم (٤٦٤).
(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٢)، ومسلم (٤٤٦) باختلاف يسير.
(٤) أخرجه البخاري (٧٥٦٢).

ومعانيه ولهذا يضاف الكلام إلى المبلغ عنه لا إلى المبلغ.

وأيضا فالتبليغ والبلاغ هو الإيصال، وهو معدى من بلغ إذا وصل، والإيصال حقيقة أن يورد إلى الموصل إليه ما حمله إياه غيره، فله مجرد إيصاله.

الأصل الثاني: أن التبليغ فعل المبلغ وهو مأمور به مقدور له، وتبليغه هو تلاوته بصوت نفسه، فلو كان الصوت والتلاوة وصوت المتكلم به أزليا وتلاوته لم يكن فعلا مأمورا به مضافا إلى المأمور، وبالجملة فالتبليغ هو صوت المبلغ القائم به.

قال البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ): باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ [المائدة: الآية: ٦٧]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: " (بلغوا عني ولو آية وليبلغ الشاهد الغائب وأن الوحي قد انقطع).[١]، فتأمل مقصوده بقوله: وإن الوحي قد انقطع فلو كانت أصواتنا بالقرآن هي نفس الصوت القديم الذي تكلم الله تعالى به لم يكن الوحي قد انقطع، بل هو متصل ما دامت أصوات العباد مسموعة بالتلاوة، فالقائلون إن هذا الصوت القديم ظهر عند تلاوة التالي، وهو الصوت الذي أوحى الله به الوحي إلى رسوله، وهو غير منقطع لزمه لزوما بينا أن الوحي متصل غير منقطع.

قال البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ): في كتاب (خلق أفعال العباد) ويذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب أن يكون الرجل خفت الصوت، ويكره أن يكون رفيع الصوت، وأن الله سبحانه ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، فليس هذا لغير الله تعالى.

قال أبو عبد الله: وفي الدليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق؛ لأن صوت الله يسمع من بعد كما يسمع من قرب، وأن الملائكة يصعقون من صوته، فإذا نادى جبرائيل الملائكة لم يصعقوا، ثم ساق في الباب أحاديث تكلم الله بالصوت محتجا بها.[٢]

قال البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ): وقد كتب النبي–صلى الله عليه وسلم–كتابا

---

(١) خلق أفعال العباد (ص: ٨٨).

(٢) خلق أفعال العباد (ص: ٩٨).

فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) [١].فقرأه ترجمان قيصر على قيصر وأصحابه، ولا يشك في قراءة الكفار أهل الكتاب أنها أعمالهم، وأما المقروء فهو كلام العليم المنان ليس بخلق، فمن حلف بأصوات قيصر أو بنداء المشركين الذين يقرون بالله لم تكن عليه يمين دون الحلف بالله لقول النبي–صلى الله عليه وسلم– (لا تحلفوا بغير الله).[٢].وليس للعبد أن يحلف بالخواتيم والدراهم البيض وألواح الصبيان التي يكتبونها ثم يمحونها المرة بعد المرة، وإن حلف فلا يمين عليه لقوله تعالى: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: الآية: ٢٢].[٣]

قال البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ): وقال النبي–صلى الله عليه وسلم–: (بينا أنا في الجنة سمعت صوت رجل بالقرآن) [٤].فبين أن الصوت غير القرآن.

قلت: ونظيره إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن.

قال أبو عبد الله: ويقال له صفة الله وكلامه، وعلمه وأسمائه وعزه وقدرته بائنة من الله أم لا، وقولك وكلامك بائن من الله أم لا.

قال أبو عبد الله: قال الله تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ**﴾ [النجم: الآيات: ٣٩–٤٠]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ**﴾ [نوح: الآية: ١] والإنذار من نوح وهو نذير مبين يأمرهم بطاعة الله، وأما الغفران فإنه من الله يقول ﴿**يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ**﴾ [نوح: الآية: ٤] ، ثم قال: ﴿**رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا**﴾ [نوح: الآية: ٥] فذكر الدعاء سرا وعلانية من نوح، وقال ابن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)، قال النبي صلى الله عليه وسلم لقوم كانوا يقرءون القرآن فيجهرون به (**خلطتم علي القرآن يقول علت أصواتكم صوتي**)[٥]، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يرفع بعضهم على بعض صوته، ولم ينه عن القرآن ولا عن كلام الله.

قال البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ): واعتل بعضهم فقال حتى يسمع كلام الله،

(١) خلق أفعال العباد (ص: ٩٨).

(٢) خلق أفعال العباد (ص: ٩٨).

(٣) خلق أفعال العباد (ص: ١٠٢).

(٤) خلق أفعال العباد (ص: ١٠٩).

(٥) أخرجه البخاري في "القراءة خلف الإمام " (٢٥٤)، وفي خلق أفعال العباد (ص: ١١١).

قيل له إنما قال حتى يسمع كلام الله لا كلامك ونغمتك وصوتك، إن الله فضل موسى بكلامه، ولو كان يسمع الخلق كلهم كلام الله كما سمع موسى لم يكن لموسى عليك فضل، ومعنى هذا أن هذا الصوت المسموع من القارئ لو كان هو الصوت الذي سمعه موسى لكان كل من سمع القرآن بمنزلة موسى في ذلك".[١]

(١) مختصر الصواعق المرسلة ٥٠٣-٥٠٨.

عذاب القبر

المسألة الأولى: فتنة القبر.

المسألة الثانية: الأدلة على إثبات عذاب القبر ونعيمه.

المسألة الثالثة: عذاب القبر ونعيمه يقع على الجسد والروح معًا.

المسألة الرابعة: المنكرون لعذاب القبر.

[٩]- قال المصنف-رحمه الله-: "وعذابُ القبرِ".

الشرح

وفيه مسائل

المسألة الأولى: فتنة القبر.

الإنسانُ بمجرد موتِه يدخل فِي اليومِ الآخرِ بالنِّسبة له، وَلِهَذَا يُقَالُ: مَن مَاتَ قَامَت قِيَامَتُهُ.

وقد ذكر شيخُ الإسلامِ رحمه الله تعالى هُنَا مَسأَلَتَينِ عَظيمَتَينِ:

الأولى: فِتنَةُ القَبرِ،

والثانية: مَا يَكُونُ بَعدَ تِلكَ الفِتنَةِ مِن نَعِيمٍ أَو عَذَابٍ.

المِسأَلَةُ الأُولى: فِتَنَةُ القَبرِ:

قَالَ شَيخُ الإِسلامِ ابن تيمِيَّة-رحمه الله تعالى-: "وَأَمَّا الفِتْنَةُ فِي القُبُورِ فَهِيَ الِامْتِحَانُ وَالِاخْتِبَارُ لِلمَيّتِ حِينَ يَسْأَلُهُ المَلَكَانِ". [١]

وقَد رَوَت أَسمَاءُ بِنت أَبِي بَكر رضي الله عنهما أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي القُبُورِ قَرِيبًا، أَوْ مِثْلَ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ)). [٢]

وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- كان يدعو في الصلاة: ((اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم)). [٣]

---

١ «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٥٧).

٢ أخرجه البخاري (١٨٤) ومسلم (٩٠٥).

٣ أخرجه البخاري (٨٣٢) ومسلم (٥٨٩).

وعن عثمانَ بن عفَّان–رضي الله عنه–، قالَ: كَانَ النَّبيُّ ﷺ إِذَا فَرغَ مِن دَفنِ الميتِ وَقَفَ عليهِ، فَقَالَ: ((اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ)). [1]

وَعَن أَبِي هُرِيرَةَ–رضي الله عنه–، قَالَ: كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يدعُو: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المحْيَا وَالممَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المسِيحِ الدَّجَّالِ)). [2]

وعن البراءِ بنِ عَازب–رضي الله عنه–، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: ((إِنَّ العَبدَ المؤمِنَ فِي قَبْرِهِ تُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ؛ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِث فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ؛ فَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَّقْتُ به...)).

إِلَى أَن قَالَ فِي العَبدِ الكَافِرِ: ((فتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاهْ، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي)). [3]

وَغَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَحَادِيثِ التي بَلَغَت مَبلَغَ التَّوَاتُرِ.

قال أحمد بن حنبل: "أصول السنة عندنا... الإيمان بعذاب القبر". [4]

قال ابن قتيبة: "إن أصحاب الحديث كلهم مجمعون على... الإيمان بعذاب القبر، لا يختلفون في هذه الأصول". [5]

---

١ أخرجه أبو داود (٣٢٢١)، والحاكم في «المســـتدرك» (١/ ٥٢٦) (١٣٧٢)، وصـــححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥١١).

٢ أخرجه البخاري (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨).

٣ أخرجه أحمد في «المســـند» (٤/ ٢٨٧) (١٨٥٥٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وصـــححه الألباني في «المشكاة» (١٦٣٠).

٤ أصول السنة (ص: ١٤، ٣٠).

٥ تأويل مختلف الحديث (ص: ٦٤).

قال أبو الحسن الأشعري: "أجمعوا على أن عذاب القبر حق". [١]

قال ابن بطة: "نحن الآن ذاكرون شرح السنة... مما أجمع على شرحنا له أهل الإسلام وسائر الأمة مذ بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا... ثم الإيمان بعذاب القبر". [٢]

٦- قال ابن بطال: (قال أبو بكر بن مجاهد: أجمع أهل السنة أن عذاب القبر حق، وأن الناس يفتنون في قبورهم بعد أن يحيوا فيها، ويسألوا فيها، ويثبت الله من أحب تثبيته منهم. وقال أبو عثمان بن الحداد: وإنما أنكر عذاب القبر بشر المريسي والأصم وضرار... قال القاضي أبو بكر بن الطيب وغيره: قد ورد القرآن بتصديق الأخبار الواردة في عذاب القبر، قال تعالى: النار يعرضون عليها غدوا وعشيا [غافر: ٤٦] ". [٣]

قال ابن عبد البر: "أهل السنة والجماعة مصدقون بفتنة القبر وعذاب القبر؛ لتوافر الأخبار بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم". [٤]

قال ابن بطال: "هذه الآثار تشهد للآثار التي في الباب قبل هذا، أن عذاب القبر حق على ما ذهب إليه أهل السنة، ألا ترى الرسول استعاذ بالله منه، وقد عصمه الله وطهره، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فينبغي لكل من علم أنه غير معصوم ولا مطهر أن يكثر التعوذ مما استعاذ منه نبيه؛ ففي أكرم الأكرمين أسوة. فإن قيل: فإذا أخبر الله نبيه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما وجه استعاذته صلى الله عليه وسلم من شيء قد علم أنه قد أعيذ منه؟ فالجواب: أن في استعاذته صلى الله عليه وسلم من كل ما استعاذ منه إظهارا للافتقار إلى الله، وإقرارا بالنعم، واعترافا بما يتجدد من شكره عليها ما يكون كفا لها ألا ترى أنه كان يصلي حتى تتفطر قدماه، فيقال له: يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما

---

١ رسالة إلى أهل الثغر (ص: ١٥٩).
٢ الإبانة الصغرى (ص: ١٩١، ٢١٧).
٣ شرح صحيح البخاري (٣/ ٣٥٨).
٤ الاستذكار (٢/ ٤٢١).

تأخر، فيقول: ((أفلا أكون عبدا شكورًا)) [١] . فمن عظمت عليه نعم الله وجب عليه أن يتلقاها بعظيم الشكر، لا سيما أنبيائه وصفوته من خلقه الذين اختارهم، وخشية العباد لله على قدر علمهم به. وفي استعاذته مما أعيذ منه تعليم لأمته، وتنبيه لهم على الاقتداء به واتباع سنته وامتثال طريقته، والله أعلم". [٢]

قَالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيمِيَّة رحمه الله تعالى: "وَقَدْ تَوَاتَرَت الأَحَادِيثُ عَن النَّبِي صلى الله عليه وسلم فِي هَذِهِ الفِتْنَةِ مِنْ حَدِيثِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ رضي الله عنهم". [٣]

وَقوله: ((مَنْ رَبُّك؟ وَمَا دِينُك؟ وَمَنْ نَبِيُّك؟)) هَذِهِ الأسئلة الثلاثة التِي تُوَجَّهُ للمَيّتِ فِي قَبرِهِ؛ قال العلَّامةُ ابنُ عُثَيمين–رحمه الله تعالى–: "يَعنِي: مَن رَبُّكَ الذِي خَلَقَكَ وَتعبدُهُ وَتَخصُّهُ بِالعِبَادَةِ؟ لِأَجلِ أَن تَنتَظِمَ هَذِهِ الكَلمةُ توحيد الربوبيَّةِ، وَتوحيد الألوهيَّةِ.

و((المرتاب)): الشَّاكُّ والمنافقُ وشبههمَا، ((فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لاَ أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ))، يعني: لم يَلجِ الإيمانُ قلبَهُ، وإنَّمَا كانَ يقولُ كما يقولُ النَّاسُ مِن غيرِ أن يَصِلَ الإيمانُ إلى قلبِهِ.

وَتَأمَّل قولَهُ: ((هاه هاه)) كأنَّ شيئًا غَابَ عنهُ يريدُ أن يَتذكرَه، وَهَذا أشدُّ فِي التَّحَسُّرِ أن يتخيَّلَ أنَّهُ يَعرِفُ الجوابَ، ولكن يُحالُ بينهُ وبينهُ، ويقولُ: «هاه هاه»، ثمَّ يقولُ: «سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلتُهُ»، وَلَا يقولُ: رَبِّيَ الله، وَلَا ديني الإسلام، وَلَا نَبِيّ محمَّد؛ لأَنَّهُ فِي الدُّنيا مُرتابٌ شاكٌّ.

هذا إِذَا سُئِلَ فِي قَبرِهِ وَصَارَ أحوج مَا يكونُ إِلَى الجَوَابِ الصَّوَابِ يَعجزُ، وَيَقولُ: ((لَا أدري سَمِعتُ النَّاسَ يقولونَ شَيئًا فقلتُهُ)).

---

١ أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).
٢ شرح صحيح البخاري (٣/ ٣٦٤).
٣ «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٥٧).

إذًا؛ إيمانُه قولٌ فَقَط".[١]

وقولُ شيخِ الإسلامِ-رحمه الله تعالى-: ((فَيُضرِبُ بِمرزَبَّةٍ مِن حديدٍ؛ فيصيحَ صحيةً يسمعهَا كُلُّ شيءٍ إِلَّا الإنسان، وَلَو سَمِعَها لصعقَ))-يُشير إلى حديث أنس عليه السلام وفيه: ((وأمَّا المنافق والكافر فيُقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنتُ أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ويُضرب بمطارقَ من حديد ضربةً؛ فيَصِيحُ صَيحةً يَسْمَعُهَا مَن يَلِيهِ غَيرَ الثَّقَلينِ))[٢]، والثَّقلان: هُم الإنسُ والجنُّ.

قالَ ابنُ عُثَيمين-رحمه الله تعالى-: ((فيُضرب)): يَعني الذِي لم يُجِب، سواء كانَ الكافرَ أو المنافقَ، والضارب لَهُ المَلَكَانِ اللذانِ يَسألانِهِ.

والمرزبَّةُ: هِيَ مِطرقةٌ مِن حَدِيدٍ، وَقَد وَرَدَ فِي بعضِ الرواياتِ: أَنَّهُ لَوِ اجتَمَعَ عَلَيهَا أَهلُ مِنى مَا أَقَلُّوها، فَإِذَا ضُرِب يَصيح صيحةً يَسمعها كلُّ شيء إلا الإنسان، أي: صِياحًا مَسموعًا يَسمعه كلُّ شيء يكون حوله مِمَّا يسمع صوته، وليس كلُّ شيء في أقطار الدُّنيا يَسمعه، وأحيانًا يتأثر به ما يسمعه كما مَرَّ النَّبيُّ ﷺ بِأَقْبُر للمُشركين على بَغْلَتِه، فَحَادت به حتى كادت تُلقيه؛ لأنَّها سَمِعت أصواتَهم يُعَذَّبون.

قوله: ((إلا الإنسان))، وقد سبق أنَّ في الحديث إلا الثَّقلين. يعني: أنه لا يَسمع هذا الصِّياح، وذلك لحكمٍ عظيمة منها:

أولًا: ما أشار إليه النبي-صلى الله عليه وسلم-بقوله: ((لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ القَبْرِ)).[٣]

ثانيًا: أنَّ في إخفاء ذلك سترًا للميت.

ثالثًا: أنَّ فيه عدم إزعاج لأهله؛ لأنَّ أهلَه إذا سَمعوا مَيِّتَهم يُعَذَّب ويَصيح لم يَسْتَقِرَّ لهم قَرَارٌ.

---

١ انظر: «شرح الواسطِيَّة» (ص٤٨٠-٤٨٢).

٢ أخرجه البخاري (١٣٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

٣ أخرجه مسلم (٢٨٦٨) من حديث أنس.

رابعًا: عدم تَخْجِيل أهله؛ لأنَّ النَّاس يقولون: هذا ولدُكم، هذا أبوكم، هذا أخوكم، وما أشبه ذلك.

خامسًا: أننا قد نَهْلِك؛ لأنَّها صيحة ليست هينة، بل صيحة قد تُوجب أن تسقط القلوب من مَعاليقها، فيموت الإنسان، أو يُغشى عليه.

سادسًا: لو سَمِع النَّاسُ صُرَاخ هؤلاء المعَذَّبين لكان الإيمانُ بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تَفُوت مصلحة الامتحان؛ لأنَّ النَّاس سوف يُؤمنون بما شاهدوه قطعًا، لكن إذا كان غائبًا عنهم ولم يعلموا به إلَّا عن طريق الخبر صار من باب الإيمان بالغيب". [١]

المسألة الثانية: الأدلة على إثبات عذاب القبر ونعيمه.

وقد دلَّ على سؤال القبر وما يكون فيه من نَعيم أو عذاب–بعض الآيات والسُّنَّة المتواترة وكذلك إجماع أهل السُّنَّة والجَمَاعَة.

أمَّا دلالة القرآن: فمنها:

- قوله تعالى في قصة آل فرعون: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: الآية: ٤٦].

قال الحافظ ابن كثير: "وهذه الآية أصلٌ كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور". [٢]

وقال العلامة الفوزان: "هذا في البرزخ قبل الآخرة؛ يُعرضون على النَّار صباحًا ومساء إلى أن تقوم الساعة، وهذا دليلٌ على عذاب القبر، والعياذ بالله، {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: الآية: ٤٦] هذه ثلاثة عقوبات:

---

[١] «شرح الواسِطيَّة» (ص٤٨٢، ٤٨٣).

[٢] «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٤٦).

الأولى: أنَّ الله أغرقهم ومحاهم عن آخرهم في لحظة واحدة.

الثاني: أنَّهم يُعَذَّبون في البرزخ إلى أن تقوم الساعة.

الثَّالثة: أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يدخلون أشد العذاب، والعياذ بالله". [١]

● ومنها: قوله تعالى: {سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة: الآية: ١٠١].

قال ابنُ تيمِيَّة: "قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِن العُلَمَاءِ: المرَّةُ الأُولَى فِي الدُّنْيَا، وَالثَّانِيَةُ فِي البَرْزَخِ، {ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} فِي الآخِرَةِ". [٢]

● ومنها: وقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ} [الأنعام: الآية: ٩٣].

وهذا خطابٌ لهم عند الَموت، وقد أخبر الملائكة–وهم الصادقون–أنَّهم حينئذ يُجزون عذاب الهون، ولو تأخَّر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا؛ لما صَحَّ أن يقال لهم: {الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ}؛ فدل على أنَّ المراد به عذاب القبر[٣].

وأمَّا السُّنَّة: فإنها متواترةٌ في ذلك، كما قال الحافظُ ابنُ رَجَب رحمه الله تعالى: "وقد تَوَاتَرَت الأحاديثُ في عذاب القبر". [٤]

وقال ابنُ أبي العِزِّ–رحمه الله تعالى–: "وقد تواترت الأخبارُ عن رسول الله ﷺ في ثُبُوت عذاب القبر ونعيمه لِمَن كان أهلًا". [٥]

١ «شرح الأصول الثلاثة» (ص: ٥١)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ –٢٠٠٦م.

٢ «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٦٦).

٣ انظر: «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» صالح الفوزان (ص ٢٧٥)، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ–١٩٩٩م.

٤ «أهوال القبور» (ص ٤٣).

٥ «شرح الطَّحاوية» (ص ٣٩٩).

وأمَّا الإجماعُ:

- فقد قال ابن تيمِيَّة–رحمه الله تعالى–: "فَاعْلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا: أَنَّ الميّتَ إذَا مَاتَ يَكُونُ فِي نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ". [١]
- وقال أيضًا: "العَذَابُ وَالنَّعِيمُ عَلَى النَّفْسِ وَالبَدَنِ جَمِيعًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ". [٢]
- وقال ابن القيّم–رحمه الله تعالى–: "وَهَذَا كَمَا أنه مُقْتَضى السُّنَّة الصَّحِيحَة فَهُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَين أهل السُّنَّة.

قَالَ المروزي: قَالَ أَبُو عبد الله: "عَذَاب القَبْر حقٌّ، لَا يُنكره إِلَّا ضالٌّ أَو مُضِلٌّ". [٣]

المسألة الثالثة: عذاب القبر ونعيمه يقع على الجسد والروح معًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن العذاب أو النعيم يحصل لروح الميت وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأيضا تتصل بالبدن أحيانا فيحصل له معها النعيم أو العذاب". [٤]

وقال ابن القيم–رحمه الله–: وقد سئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة، ونحن نذكر لفظ جوابه فقال:

"بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تُنعَّم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتنعم وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليها في هذه الحال مجتمعين كما تكون على الروح منفردة عن البدن.

---

١ «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨٤).
٢ «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨٢).
٣ «الروح» (ص ٥٧).
٤ الاختيارات الفقهية (ص: ٩٤).

مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى". [١]

ويضرب العلماء مثالا لذلك الحلم في المنام فقد يرى الإنسان أنه ذهب وسافر وقد يشعر بسعادة وهو نائم وقد يشعر بحزن وأسى وهو في مكانه وهو في الدنيا فمن باب أولى أن تختلف في الحياة البرزخية وهي حياة تختلف كلية عن الحياة الدنيا أو الحياة في الآخرة.

قال النووي–رحمه الله–: "فإن قيل: فنحن نشاهد الميت على حاله في قبره فكيف يُسأل ويُقعد ويضرب بمطارق من حديد ولا يظهر له أثر، فالجواب: أن ذلك غير ممتنع بل له نظر في العادة وهو النائم، فإنه يجد لذة وآلاما لا نحس نحن شيئًا منها، وكذا يجد اليقظان لذة وآلما لما يسمعه أو يفكر فيه ولا يشاهد ذلك جليسه منه، وكذا كان جبرئيل يأتي النبي–صلى الله عليه وسلم– فيخبره بالوحي الكريم ولا يدركه الحاضرون، وكل هذا ظاهر جلى". [٢]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–: "والنائم يحصل له في منامه لذة وألم وذلك يحصل للروح والبدن حتى إنه يحصل له في منامه من يضربه فيصبح والوجع في بدنه، ويرى في منامه أَنّه أُطْعِم شيئًا طيبًا فيصبح وطعمه في فمه، وهذا موجود، فإذا كان النائم يحصل لروحه وبدنه من النعيم والعذاب ما يحس به والذي إلى جنبه لا يحس به حتى قد يصيح النائم من شدة الألم أو الفزع الذي يحصل له ويسمع اليقظان صياحه وقد يتكلم إما بقرآن وإما بذكر وإما بجواب واليقظان يسمع ذلك وهو نائم عينه مغمضة ولو خوطب لم يسمع: فكيف ينكر حال المقبور الذي أخبر الرسول أنه ((يسمع قرع نعالهم))، وقال: ((ما أنتم أسمع لما أقول منهم؟))،

---

١ "الروح" (ص: ٥١–٥٢).

٢ "شرح مسلم" (١٧/٢٠١).

والقلب يشبه القبر، ولهذا قال لما فاتته صلاة العصر يوم الخندق: ((ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا))، وفي لفظ: ((قلوبهم وقبورهم نارًا))، وَفرَّق بينهما في قوله: {بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ} [العاديات: الآيتان: ٩-١٠]، وهذا تقريب وتقرير لإمكان ذلك.

ولا يجوز أن يقال ذلك الذي يجده الميت من النعيم والعذاب مثلما يجده النائم في منامه، بل ذلك النعيم والعذاب أكمل وأبلغ وأتم وهو نعيم حقيقي وعذاب حقيقي، ولكن يذكر هذا المثل لبيان إمكان ذلك، إذا قال السائل: الميت لا يتحرك في قبره والتراب لا يتغير ونحو ذلك مع أن هذه المسألة لها بسط يطول وشرح لا تحتمله هذه الورقة والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم". [١]

المسألة الرابعة: المنكرون لعذاب القبر.

قال ابن تيمية-رحمه الله-: "مذهب سائر المسلمين إثبات الثواب والعقاب في البرزخ - ما بين الموت إلى يوم القيامة - هذا قول السلف قاطبة وأهل السنة والجماعة؛ وإنما أنكر ذلك في البرزخ قليل من أهل البدع". [٢]

وقال أبو الحسن الأشعري وهو يذكر ما خالف فيه المعتزلة وأهل القدر نهج أهل السنة: وجحدوا عذاب القبر، وأن الكفار في قبورهم يعذبون، وقد أجمع على ذلك الصحابة والتابعون رضي الله عنهم أجمعين. [٣]

١ "مجموع الفتاوى" (٤/ ٢٧٥-٢٧٦).
٢ "مجموع الفتاوى" (٤/ ٢٦٢).
٣ الإبانة عن أصول الديانة (ص: ١٤).

وقد خالف في ذلك الخوارج وضرار بن عمرو وبشر المريسي وجماعة من متأخرى المعتزلة، فقالوا بنفى عذاب القبر؛ وذلك بناء على قولهم أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب". [١]

قال ابن حزم: "ذهب ضرار بن عمرو الغطفاني أحد شيوخ المعتزلة إلى إنكار عذاب القبر، وهو قول من لقينا من الخوارج، وذهب أهل السنة وبشر بن المعتمر والجبائي وسائر المعتزلة إلى القول به، وبه نقول لصحة الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك" . [٢]

وقد نسب أبو الحسن الأشعري نفي عذاب القبر إلى المعتزلة والخوارج،[٣]

كما نسبه البغدادي إلى الجهمية والضرارية،[٤]

ونسب الملطي إلى جهم بن صفوان إنكار عذاب القبر ومنكر ونكير. [٥]

والأرجح بالنسبة للمعتزلة أن جمهورهم على القول بعذاب القبر، كما حكى ذلك عنهم القاضي عبد الجبار، فقد ذكر: "فصل فى عذاب القب" وقال: "بأنه لا خلاف في ذلك بين الأمة، كما

---

١ مقالات الإسلاميين (٢/ ١١٦)، ودراسات فى الفرق الإسلامية (ص: ١٧٣).
٢ الفصل في الملل والنحل والأهواء (٤/ ٦٦).
٣ المقالات (٢/ ١١٦).
٤ أصول الدين (ص: ٢٤٥).
٥ التنبيه والرد على أهل الأهواء (ص: ١٢٤).

أنه قد بين أن ابن الراوندي هو الذي يشنع علي المعتزلة، ويدعى أنهم ينكرون عذاب القبر، ثم أورد الأدلة على إثباته من القرآن والسنة. [١]

وقال أيضًا ما نصه: "إنما أنكر ذلك أولًا: ضرار بن عمرو، لما كان من أصحاب واصل ظن ذلك مما أنكرته المعتزلة وليس الأمر كذلك، بل أكثر شيوخنا يقطعون بعذاب القبر، وإنما ينكرون قول جماعة سنن الجهلة إنهم يعذبون وهم موتى، ودليل العقل يمنع من ذلك. ا. هـ [٢]

كذلك فقد قال الزمخشرى عن سورة الملك: "وتسمى: الواقية، والمنجية، لأنها تقى وتنجي قارئها من عذاب القبر ". [٣]

شبهتهم

والمخالفون الذين خالفوا أهل السنة في هذا الأصل فنفوا القول بإثبات عذاب القبر قد جاء فساد تأصيلهم في أنهم قد حكموا العقل وردوا عالم الغيب إلى عالم الشهادة، فقاسوا الأمور الغيبية على الأمور المشاهدة، وحكموا العقل فيما جاءت به النصوص في أن هذا يعقل، وأن هذا لا يعقل.

---

١ "شرح الأصول الخمسة " (ص: ٧٣٠).
٢ "الاعتزال وطبقات المعتزلة " (ص: ١٦٧).
٣ الكشاف (٤/ ٥٧٤) والانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٣/ ٧١٢) تحقيق سعود بن عبد العزيز الخلف.

فتراهم لا يؤمنون بما يحدث في القبر؛ لأنهم عقلانيون، فيسمون أدلة الشرع ظنية، فأما أدلة العقل عندهم فهي يقينية، وهم فى ذلك قد نسوا أو قل تناسوا أن عذاب القبر وفتنة القبر أمر غيبي، والأمور الغيبية مجالها الاعتقاد؛ لأنها لا تدرك بالنظائر ولا تدركها العقول؛ بل تحار فيها العقول، فيجب الإيمان بها والتسليم على نحو ما جاء في الخبر الصادق في الوحي.

ومن شبهاتهم النفاة قالوا: إنا نرى شخص الميت مشاهدة وهو غير معذب، وكذلك فإن الميت ربما تفترسه السباع وتأكله!!

وجوابه:

أن هذا هوس؛ أما مشاهدة الشخص فهو مشاهدة لظواهر الجسم، والمدرك للعقاب جزء من القلب أو من الباطن كيف كان، وليس من ضرورة العذاب ظهور حركة في ظاهر البدن، بل الناظر إلى ظاهر النائم لا يشاهد ما يدركه النائم من اللذة عند الاحتلام ومن الألم عند تخيل الضرب وغيره، ولو انتبه النائم وأخبر عن مشاهداته وآلامه ولذاته من لم يجر له عهد بالنوم لبادر إلى الإنكار اغترارا بسكون ظاهر جسمه.

فتعسا لمن ضاقت حوصلته عن تقدير اتساع القدرة لهذه الأمور المستحقرة بالاضافة إلى خلق السموات والأرض وما بينهما، مع ما فيهما من العجائب. [١]

١ الاقتصاد في الاعتقاد للغزالى (١١٨).

ثم يقال لمن يشكل بعدم تحقق رؤية عذاب القبر بالبصر: أن الله – عزوجل – يبتلى عباده بالتكاليف الشرعية اختبارا وامتحانا لهم، وهذه التكاليف شاملة لباب العلم والعمل:

أ) ففي باب العمل:

يكلفهم بجملة من العبادات الشرعية، والتى منها ما يكون غير معلوم الحكمة، فيجمع لهم بين التكليف بالاستسلام وتكليف القيام بالعمل.

ب) وفي باب العلم:

فقد يختبر الله –تعالى –عباده بالإيمان بالغيبيات التى تتالت النصوص بإثباتها، فيظهر هنا من يؤمن بالغيب ممن هو منه في شك، إذ لو عاين العباد الغيبيات لزالت حكمه التكليف والإيمان بالغيب، ومن هذا الباب فقدا اقتضت الحكمة أن يكون عذاب القبر خفيًا؛ لأنه لو كان أمرًا ظاهرًا لما كان الإيمان به إيمان بالغيب، والإيمان النافع المنجي إنما هو الإيمان بالغيب.

لذا فقد كان أول ما مدح الله–تعالى–به أهل الإيمان فى كتابه أنهم يؤمنون بالغيب، فقد قال تعالى {الم * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [البقرة: الآيات: ١ – ٣].

وأضف الي ذلك أنه قد اقتضت حكمة الله -تعالى-أن لا يكون عذاب القبر ظاهرا، إذ لو كان ظاهرا لما تدافن الناس، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه)). [١]

وأما قولهم بعدم حدوث عذاب القبر لمن أكله سبع أو حرق!!

فجوابه:

فذكر العذاب والحاقه بالقبر إنما خرج على الغالب فلا مفهوم له؛ فالمصلوب والمحروق والغريق ومن أكلته السباع لهم من عذاب البرزخ ونعيمه بحسب ما تقتضيه أعمالهم، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما.

وإلا فسيقال من باب الإلزام بعدم بعث من أكلته السباع أو حرق، ومثل هذا مما لم يقل به نفاة القول بعذاب القبر، فكما قيل فى قوله تعالى {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [يس: الآية: ٥٢] أنه خرج على الغالب، مع إثبات البعث لمن لم يكن له مرقد، كالمحروق ومن أكلته السباع، فكذا يقال بإثبات عذاب القبر ونعيمه لمن لم يقبر.

---

١ أخرجه مسلم (٢٨٦٧).

وقد ورد في حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: ((كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له)). [١]

قال ابن القيم: "ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزح، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رمادًا ونسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور". [٢]

ويلخص ما سبق كلام بديع للسمعانى، لما ذكر أمور الغيب من عذاب القبر وسؤال الملكين والحوض والميزان والصراط، قال-رحمه الله-: "وهذه أمور لا ندرك حقائقها بعقولنا، وإنما ورد الأمر بقبولها والإيمان بها، فإذا سمعنا شيئًا من أمور الدين وعقلناه وفهمناه فلله الحمد في ذلك والشكر، ومنه التوفيق، وما لم يمكنا إدراكه وفهمه ولم تبلغه عقولنا آمنا به وصدقنا واعتقدنا أن هذا من قبل ربوبيته وقدرته، واكتفينا في ذلك بعلمه ومشيئته، وقال تعالى في مثل

---

١ أخرجه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦).

٢ الروح (ص: ٥٨).

هذا {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}.[الإسراء: الآية: ٨٥]". [١]

* تنبيه وتصحيح:

قد ذهب بعض المعتزلة إلى أن الله – سبحانه –يعذب الموتى في قبورهم، ويحدث فيهم الآلام وهم لا يشعرون فإذا حشروا وجدوا تلك الآلام وأحسوا بها، وقالوا بأن سبيل المعذبين من الموتى كسبيل السكران والمغشى عليه لو ضربوا لم يجدوا الآلام، فإذا عاد عليهم العقل أحسوا بألم الضرب. [٢]

*وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على ذلك، وبين أن الأمر على خلاف ذلك، فقال رحمه الله: "ولا يجوز أن يقال ذلك الذي يجده الميت من النعيم والعذاب مثلما يجده النائم في منامه؛ بل ذلك النعيم والعذاب أكمل وأبلغ وأتم. وهو نعيم حقيقي وعذاب حقيقي، ولكن يذكر هذا المثل لبيان إمكان ذلك إذا قال السائل: الميت لا يتحرك في قبره والتراب لا يتغير، ونحو ذلك.

١ الانتصار لأصحاب الحديث (ص: ٨٢).
٢ الروح (ص: ٥٨).

مع أن هذه المسألة لها بسط يطول وشرح لا تحتمله هذه الورقة والله أعلم". [١]. [٢]

١ مجموع الفتاوى (٤/ ٢٧٦).

٢ المصدر: الأربعين العقدية لأيمن إسماعيل (٢/ ٨٨٥-٨٩٢).





[والبعثُ يومَ القيامَةِ]

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الأدلة على إثبات البعث.

المسألة الثانية: ثمرات الإيمان بالبعث واليوم الآخر.

المسألة الثالثة: الذين خالفوا في مسألة البعث.

المسألة الرابعة: حكم من أنكر البعث.



[١٠]–قال المصنف–رحمه الله–: "والبعث بعد الموت".

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الأدلة على إثبات البعث.

أول مراحل الحياة الآخرة حياة البرزخ وعذاب القبر ونعيمه، ثم بعد ذلك يأتي البعث، ويسبق البعث النفخ.

البعث بعد الموت: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سيبعث الناس بعد موتهم، ويُعيد إليهم أرواحهم، وذلك للحساب والجزاء.

دلَّ على ذلك الأدلة المتوافرة من الكتاب والسُّنَّة وإجماع المسلمين، بل واليهود والنصارى وكل الشرائع السماوية السابقة.

عظم الله أمر الإيمان باليوم الآخر وقرنه بالإيمان به، فقال تعالى: (يؤمنون بالله وباليوم الآخر)، فجمع بين الإيمان به عز وجل والإيمان باليوم الآخر لعظيم حقه وهو ركن من أركان الإيمان فنؤمن باليوم الآخر بجميع ما يتعلق به

ومن الأدلة على إثبات البعث

أولًا: من القرآن.

قال تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾ [البقرة: الآية: ١٧٧].

قال تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [التوبة: الآية: ٢٩]

قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)﴾ [الرعد: ٢].

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]،

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ [النور: ٦٤].

ثانيًا: من السنة:

ما جاء في حديث جبريل –عليه السلام–؛ أنه سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: ((أن تُؤمن باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِر، وتُؤمن بالقَدَرِ؛ خَيْرِه وشَرِّه)). [(١)]، وفي رواية: ((والبَعْث بعدَ الموْتِ)). [(٢)]

عن ابنِ عبَّاس –رضي الله عنهما–، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ((أيُّها النَّاس، إنَّكم مَحْشُورُونَ إلى الله حُفَاة عُرَاة غُرْلًا، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية: ١٠٤]، ثُمَّ إنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكسى يوم القيامة إبراهيمُ)). [(٣)]

ويوم البعث يخرج الإنسان من قبره فيجد ملكًا من قِبَل الله يأخذه ويوقفه في المكان الذي يريده الله له، أو يسوقه إلى موقفه المناسب قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: الآية: ٢١].

عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، قوله: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ قال: "السائق من الملائكة، والشهيد: شاهد عليه من نفسه" . [(٤)]

وروي عن الإمام سفيان بن عيينة في اعتقاده قوله: السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئا فقد ترك السنة: إثبات القدر وتقديم أبي بكر وعمر والحوض والشفاعة والميزان والصراط والإيمان قول وعمل والقرآن كلام الله وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ولا

(١) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة، ومسلم (٨) من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجها ابن حبان في صحيحه (١/ ٣٨٩) (١٦٨) وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٢) (٣٠٤٤٥)، وصححها الألباني في التعليقات الحسان (١٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٤٠) ومسلم (٢٨٦٠).

(٤) انظر تفسير الطبري (٢٢/ ٣٤٨).

تقطعوا بالشهادة على مسلم. [١]

ثالثًا: الإجماع.

روي عن الإمام سفيان بن عيينة في اعتقاده قوله: السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئا فقد ترك السنة: إثبات القدر وتقديم أبي بكر وعمر والحوض والشفاعة والميزان والصراط والإيمان قول وعمل والقرآن كلام الله وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم.[٢]

قال ابن حزم: "اتفقوا أن البعث حق، وأن الناس كلهم يبعثون في وقت تنقطع فيه سكناهم في الدنيا"[٣]

وقال: "البعث حق، والحساب حق،... يجمع الله تعالى يوم القيامة بين الأرواح والأجساد، كل هذا إجماع من جميع أهل الإسلام، من خرج عنه خرج عن الإسلام"[٤]

وقال ابن حزم: "اتفق جميع أهل القبلة –على تنابذ فرقهم– على القول بالبعث في القيامة، وعلى تكفير من أنكر ذلك"[٥]

المسألة الثانية: ثمرات الإيمان بالبعث واليوم الآخر:

أولًا: الحرص على طاعة الله تعالى؛ رغبة في ثواب ذلك اليوم، والبعد عن معصيته، خوفًا من عقاب ذلك اليوم. وذلك بالتزام بما يحبّه الله–تعالى–من الأعمال والأقوال والأحوال وتجنّب ما يُبغضه.

ثانيًا: تسلية المؤمن عما يفوته من نعيم الدنيا، ومتاعها بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.

---

(١) رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٦)

(٢) رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٦)

(٣) ينظر: ((مراتب الإجماع)) (ص: ١٧٥).

(٤) ينظر: ((الدرة)) (ص: ٣١١).

(٥) ينظر: ((الفصل)) (٤/٦٦).

(١)

ثالثًا: عِظَم الأجر والثواب، فإنّ الإيمان بالبعث والحساب من الإيمان بالأمور الغيبيّة، والتي وعد الله أهلها بالاهتداء والرزق الكريم وحسن العاقبة يوم القيامة. الاجتهاد في فعل الطاعات، والرغبة في ملازمة ما يحبّه الله ويرضاه، وامتثال أمره طمعًا بالأجر والثواب وحُسن العاقبة.

رابعًا: الحَذر من المعاصي والنواهي وما أبغضه الله، والحرص على تجنّب ما حذّر منه خوفًا من العقاب والعذاب.

خامسًا: الصبر على الابتلاءات، والرضا بقضاء الله وقدره.

سادسًا: الأخذ بأسباب حُسن الخاتمة، ومن أهمّها: ملازمة الأعمال الصالحة وتجنّب الأعمال السيئة المخالفة للشريعة، وسؤال الله -تعالى- حُسن الخاتمة والموت على ما يحبّه من الأعمال. (٢)

المسألة الثالثة: الذين خالفوا في مسألة البعث:

قال ابن تيمية: "طوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرون لا بمعاد الأرواح ولا الأجساد، وقد بين الله تعالى في كتابه على لسان رسوله أمر معاد الأرواح والأجساد، ورد على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك بيانا في غاية التمام والكمال.

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة؛ فإنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثال ضربت لنفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ... وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان؛ فإن محمدا صلى الله عليه وسلم قد بين ذلك بيانا شافيا قاطعا للعذر"(٣)

(١) «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ابن عثيمين» (٣/ ٢٦٠).

(٢) ثمرات الإيمان باليوم الآخر، للشيخ عبدالله بن صالح القصيِّر، المصدر: موقع الألوكة. بتصرّف.

(٣)ينظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣١٣)..

فالقرامطة الباطنية والفلاسفة أتباع المشائين، ونحوهم من الملاحدة ينكرون حقائق ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر" (١)

فهذه الطوائف نفت ما دلت عليه نصوص المعاد، من البعث والنشور والجزاء على الأعمال، كما نفت ما دلت عليه نصوص الصفات من نعوت الجلال وأوصاف الكمال، وهذا ضلال صراح وكفر بواح، وهؤلاء هم الغلاة، من القرامطة والباطنية الإسماعيلية، والفلاسفة المشائين.

فالقرامطة معتقدهم في اليوم الآخر: أنهم كلهم أنكروا القيامة، وقالوا: هذا النظام، وتعاقب الليل والنهار، وتولد الحيوانات لا ينقضي أبدا. وأولوا القيامة بأنها رمز إلى خروج الإمام، ولم يثبتوا الحشر ولا النشر ولا الجنة ولا النار. (٢)

أما الجهمية والمعتزلة فهم يؤمنون بالبعث مع خلل في بعض مسائل المعاد كمسائل عذاب القبر، وكذلك الشفاعة، وفناء الجنة والنار، وغيرها من المسائل التي تتعلق باليوم الآخر.

وقال الإيجي: "أجمع أهل الملل عن آخرهم على جواز حشر الأجساد ووقوعه، وأنكرهما الفلاسفة"(٣)

المسألة الرابعة: حكم من أنكر البعث.

قال ابن حزم: "فمن قال: إن الأرواح أعراض فانية، أو قال: إنها تنتقل إلى أجسام أخر؛ فهو منسلخ من إجماع أهل الإسلام؛ لخلافه القرآن والسنن الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم والإجماع، ... وهو قول أهل التناسخ، وهو كفر بلا خلاف، وكذلك من أنكر إحياء العظام والأجساد يوم القيامة، أو أنكر البعث؛ فخارج عن دين الإسلام بلا خلاف من أحد من الأئمة"(٤)

(١)ينظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣١٣).
(٢) القرامطة لابن الجوزي (ص: ٦٠).
(٣) المواقف في علم الكلام (٣/ ٤٧٤).
(٤) ينظر: ((الدرة)) (ص: ٣١٥).

وقال ابن عبد البر: "قد أجمع المسلمون على أن من أنكر البعث، فلا إيمان له ولا شهادة، وفي ذلك ما يغني ويكفي، مع ما في القرآن من تأكيد الإقرار بالبعث بعد الموت؛ فلا وجه للإنكار في ذلك"(١)

وقال الغزالي: "فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع؛ كالذي ينكر حشر الأجساد، وينكر العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام، واستبعادات من غير برهان قاطع، فيجب تكفيره قطعيا؛ إذ لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد، وذكر ذلك عظيم الضرر في الدين؛ فيجب تكفير كل من تعلق"(٢)

وقال عياض: "وكذلك نقطع على كفر من قال بتناسخ الأرواح وانتقالها أبد الآباد في الأشخاص، وتعذيبها أو تنعمها فيها بحسب زكائها وخبثها"(٣)

وقال أيضا: "كذلك من أنكر الجنة أو النار، أو البعث أو الحساب أو القيامة؛ فهو كافر بإجماع؛ للنص عليه، وإجماع الأمة على صحة نقله متواترا، وكذلك من اعترف بذلك، ولكنه قال: إن المراد بالجنة والنار والحشر والنشر والثواب والعقاب معنى غير ظاهره، وأنها لذات روحانية، ومعان باطنة، كقول النصارى والفلاسفة والباطنية وبعض المتصوفة، وزعم أن معنى القيامة الموت أو فناء محض وانتقاض هيئة الأفلاك وتحليل العالم كقول بعض الفلاسفة"(٤)

(١) ينظر: ((التمهيد)) (٩/١١٦).

(٢) ينظر: ((مجموعة رسائل الإمام الغزالي)) (ص: ٢٤٦).

(٣)ينظر: ((الشفا)) (٢/ ٢٨٣).

(٤)ينظر: ((الشفا)) (٢/ ٢٩٠).

[عواقب العباد مبهمة]

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: أقسام الشهادة.

المسألة الثانية: الشهادة لمعين بجنة أو نار.



[١١]–قال المصنف–رحمه الله–: –ولا تقطعوا بالشَّهادةِ على مسلمٍ.

الشرح

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: أقسام الشهادة.

يقسم أهل السنة الشهادة إلى قسمين عامة وخاصة:

فالعامة: أَنَّهُمْ يَجْزِمُونَ بِالنَّجَاةِ لِكُلِّ مَنِ اتَّقَى اللَّهَ، كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ.

والخاصة: هي المعلقة بشخص، مثل أن نشهد لشخص معين بأنه في الجنة أو لشخص معين بأنه في النار، فلا نعيّن إلا ما عيّنه الله أو رسوله–صلى الله عليه وسلم–.

قال شيخ الإسلام ابنن تيمية: "اعْتِقَادُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُمْ يَجْزِمُونَ بِالنَّجَاةِ لِكُلِّ مَنِ اتَّقَى اللَّهَ، كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ. وَإِنَّمَا يَتَوَقَّفُونَ فِي الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِدُخُولِهِ فِي الْمُتَّقِينَ، فَإِنَّهُ إِذَا عُلِمَ أَنَّهُ مَاتَ عَلَى التَّقْوَى عُلِمَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَلِهَذَا يَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ الرَّسُولُ [صَلَّى للَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] وَلَهُمْ فِيمَنِ اسْتَفَاضَ فِي النَّاسِ حُسْنُ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ قَوْلَانِ"(١).

قال الشيخ ابن عثيمين: "الشهادة بالجنة أو بالنار ليس للعقل فيها مدخل فهي موقوفة على الشرع فمن شهد له الشارع بذلك؛ شهدنا له، ومن لا؛ فلا، لكننا نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء، وتنقسم الشهادة إلى قسمين عامة وخاصة:

فالعامة: هي المعلقة بالوصف، مثل أن نشهد لكل مؤمن بأنه في الجنة، أو لكل كافر بأنه في النار، أو نحو ذلك من الأوصاف التي جعلها الشارع سببًا لدخول الجنة.

والخاصة: هي المعلقة بشخص، مثل أن نشهد لشخص معين بأنه في الجنة أو لشخص

---

(١) منهاج السنة (٣/ ٤٩٦-٤٩٧).

معين بأنه في النار، فلا نعيّن إلا ما عيّنه الله أو رسوله. "اهـ(١)

المسألة الثانية: مسألة الشهادة لمعين بجنة أو نار.

فمن معتقد أهل السنة والجماعة أن من كان من أهل القبلة لا يشهد له بالجنة ولا يشهد له بالنار، لكن نرجو للمحسن ونخاف على المسيء، إلا من شهد له الرسول –صلى الله عليه وسلم–.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إِنَّمَا قَدْ نَقِفُ فِي الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ؛ فَلَا نَشْهَدُ لَهُ بِجَنَّةٍ وَلَا نَارٍ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ بَاطِنِهِ وَمَا مَاتَ عَلَيْهِ لَا نُحِيطُ بِهِ، لَكِنْ نَرْجُو لِلْمُحْسِنِ وَنَخَافُ عَلَى الْمُسِيءِ.

وأهل السنة لَهُمْ فِي الشَّهَادَةِ بِالْجَنَّةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

القول الأول: مِنْهُمْ مَنْ لَا يَشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ. وَهَذَا قَوْلُ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَالْأَوْزَاعِيِّ.

وَالقول الثَّانِي: أَنَّهُ يَشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ جَاءَ فِيهِ نَصٌّ. وَهَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ"(٢)

وقد استدل لهذا القول:

–حديث الصحيحين أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال: ((إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة))(٣)

وهذا في حديث الذي قتل نفسه بعد أن أثنى عليه الناس.

–الحديث الآخر: "إن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق

(١) شرح اللمعة (ص: ١٤٤).
(٢) انظر المسألة في منهاج السنة: (٣/ ٤٩٧-٥٠٠).
(٣) أخرجه البخاري (٤٢٠٧)، ومسلم (١١٢).

عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة"(١). والشاهد من هذه الأحاديث أن خاتمة السوء لا تؤمن فكيف يقطع للرجل بالجنة؟

-حديث أبي هريرة في الصحيح قال خرجنا مع رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يوم خيبر فلم نغنم ذهبًا ولا فضة إلا الأموال والثياب والمتاع فأهدى رجل من بني الضبيب يقال له رفاعة بن زيد لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-غلاما يقال له مدعم فوجه رسول الله-صلى الله عليه وسلم-إلى وادي القرى حتى إذا كان بوادي القرى بينما مدعم يحط رحلًا لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-إذا سهم عائر فقتله فقال الناس هنيئًا له الجنة فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا"(٢)

فهذا مع شهادة الناس له بالجنة بين النبي-صلى الله عليه وسلم-أن حقيقة حاله على خلاف ما شهد له به.

-حديث أم العلاء في البخاري قالت: "سكن عندنا عثمان بن مظعون فاشتكى فمرضناه حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه دخل علينا رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فقلت رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم ((وما يدريك أن الله أكرمه)). فقلت لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-((أما عثمان فقد جاءه والله اليقين وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به)). قالت فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا وأحزنني ذلك قالت فنمت فأريت لعثمان عينا تجري فجئت إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فأخبرته فقال: ((ذاك عمله)). (٣)،

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٢٠٨)، ومسلم:(٢٦٤٣).
(٢) أخرجه البخاري: (٦٣٢٩).
(٣) أخرجه البخاري: (٢٥٤١).

والشاهد من الحديث نص وإقرار، أما النص فالقصة وما وجه به النبي-صلى الله عليه وسلم-فيها، وأما الإقرار فلقولها لا أزكي أحداً بعده.

وهذا كالصريح في النهي، قال ابن كثير: "وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة، وابن سلام، والعميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء-رضي الله عنهم-"[(١)]. ومثله قال العيني في العمدة.

وقد بوب عليه البيهقي: "باب لا يشهد لأحد بجنة ولا نار إلاّ لمن شهد له رسول الله-صلى الله عليه وسلم-بها"[(٢)].ه

هذا مع أن عثمان بن مظعون (أبو السائب)-رضي الله عنه-، بدري قال الله له اصنع ما شئت فقد غفرت لك، وهو أول من دفن بالبقيع ومع ذلك يقول: "وما يدريك؟! وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به".

وممن نقل عنه القول في هذه المسألة من العلماء:

ما روي عن الإمام سفيان بن عيينة في اعتقاده قوله: السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئًا فقد ترك السنة: إثبات القدر وتقديم أبي بكر وعمر والحوض والشفاعة والميزان والصراط والإيمان قول وعمل والقرآن كلام الله وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم.[(٣)]

ونقل عن الإمام أحمد فيمن خرج عليه اللصوص والخوارج قال: "وإن قتل هذا في تلك الحال وهو يدفع عن نفسه وماله رجوت له الشهادة كما جاء في الأحاديث[(٤)].

وقال الإمام أحمد: "ولا نشهد على أهل القبلة بعمل يعمله بجنة ولا نار، نرجو للصالح

(١) تفسير ابن كثير:(٤/ ١٥٦).
(٢) السنن الكبرى (٤/ ٧٦).
(٣) رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٦)
(٤) اعتقاد الإمام أحمد (١/ ١٦١)

ونخاف عليه ونخاف على المسيء المذنب، ونرجو له رحمة الله"اهـ[(١)]

وهي عين كلمة علي بن المديني كما وروى عن سفيان الثوري قوله: "يا شعيب بن حرب لا ينفعك ما كتبت لك حتى لا تشهد لأحد بجنة ولا نار إلا للعشرة الذين شهد لهم رسول الله وكلهم من قريش"اهـ[(٢)]

وقال الإمام أبو عمرو الداني: "ومن قولهم: أن لا ينزل أحد من أهل القبلة جنة ولا نارا إلا من ورد التوقيف بتنزيله، وجاء الخبر من الله تبارك وتعالى، ورسوله عن عاقبة أمره".[(٣)]

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: "لا أحد يشهد لأحد بالجنة أو النار إلا من ثبت له ذلك. وأهل السنة والجماعة لا يشهدون لِمُعَيَّنٍ بالجنة إلا لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة، كالعشرة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، الذين ثبتت الأحاديث في تعيينهم أنهم من أهل الجنة. وأما مَنْ سواهم فلا يشهدون له بذلك، ولكنهم يرجون لجميع المؤمنين دخول الجنة، ويخافون على مَنْ أذنب من النار، ولا يقطعون لمعين بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا من ثبت له ذلك"اهـ[(٤)].

فهذا مذهب جمهور أهل السنة كما ترى.

وَالقول الثَّالِثُ: يَشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِهَؤُلَاءِ وَلِمَنْ شَهِدَ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ)). وَقَالَ: " ((يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ)). قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ)) "[(٥)] فَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا

(١) أصول السنة (ص: ٥٠)

(٢) اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٦٢).

(٣) الرسالة الوافية (ص: ٩٦)

(٤) جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية (٢٠٦).

(٥) الْحَدِيثُ مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-

- فِي الْبُخَارِيِّ (٣/ ١٦٩) (كِتَابُ الشَّهَادَاتِ، بَابُ تَعْدِيلِ كَمْ يَجُوزُ)، ٢/ ٩٧ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَى الْمَيِّتِ).
- مُسْلِمٍ (٢/ ٦٥٥ -٦٥٦) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ فِيمَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ الْمَوْتَى).

=

يُعْلَمُ بِهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ. وَكَانَ أَبُو ثَوْرٍ يَقُولُ: "أَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ فِي الْجَنَّةِ " وَيَحْتَجُّ بِهَذَا"(١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وَالْقَوْلُ بِكَوْنِ الرَّجُلِ الْمُعَيَّنِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ: إِخْبَارَ الْمَعْصُومِ، فأَهْلَ السُّنَّةِ يَشْهَدُونَ أَنَّ الْعَشَرَةَ فِي الْجَنَّةِ(٢)، وَيَشْهَدُونَ «أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ: " «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»(٣)، بَلْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ " «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» "، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–(٤).

- سُنَن التِّرْمِذِيّ (٢/ ٢٦١) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ الْحَسَنِ عَلَى الْمَيِّتِ)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَفِي الْبَابِ عَنْ عُمَرَ وَكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ.
- سُنَن النَّسَائِيّ (٤/ ٤١)، (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ الثَّنَاءِ).
- سُنَن ابْنِ مَاجَهْ (١/ ٤٧٨) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ).

وَجَاءَ حَدِيثٌ آخَرُ بِمَعْنَاهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ–رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–

- فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ
- وَسُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ فِي الْمَوْضِعَيْنِ السَّابِقَيْنِ،
- وَهُوَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (٣/ ٢٩٦) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابٌ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ)،
- الْمُسْنَد (ط. الْمَعَارِفِ) (١٣/ ٢٧٧–٢٧٨) وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى

(١) منهاج السنة (٥/ ٢٩٥).

(٢) وَرَدَ حَدِيثَانِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–يَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ الْعَشَرَةَ فِي الْجَنَّةِ: الْأَوَّلُ قَالَ فِي أَوَّلِهِ النَّبِيُّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: اثْبُتْ حِرَاءُ، إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ. الْحَدِيثُ، وَهُوَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (٤/ ٢٩٤ –٢٩٥) (كِتَابُ السُّنَّةِ، بَابٌ فِي الْخُلَفَاءِ ٩()، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ (٥/ ٣١٥ –٣١٦) (كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ مَنَاقِبِ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ؛ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (١/ ٤٨) (الْمُقَدِّمَةُ، فَضَائِلُ الْعَشَرَةِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ)، (ج [٠–٩] الْأَرْقَامُ ١٦٢٩، ١٦٣٠، ١٦٣٨، ١٦٤٤، ١٦٤٥)، وَالْحَدِيثُ الثَّانِي أَوَّلُهُ: عَشَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ. وَهُوَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَسُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ فِي الْمَوْضِعَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وَفِي الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) ج [٥–٩] الْأَرْقَامُ ١٦٣١، ١٦٣٧، وَصَحَّحَ الْأَلْبَانِيُّ الْحَدِيثَ فِي: صَحِيحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ (٤–٣٥).

(٣) هَذَا جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ عَنْ عَلِيٍّ–رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–فِي: الْبُخَارِيِّ (٥/ ٧٧–٧٨) (كِتَابُ الْمَغَازِي، بَابُ فَضْلِ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا)، (٦/ ١٤٩) (كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ)، مُسْلِمٍ (٤/ ١٩٤١–١٩٤٢) (كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابٌ: مِنْ فَضَائِلِ أَهْلِ بَدْرٍ)؛ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (٣/ ٦٤–٦٥) (كِتَابُ الْجِهَادِ، بَابٌ فِي حُكْمِ الْجَاسُوسِ إِذَاكَانَ مُسْلِمًا)، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ (٥/ ٨٢–٨٤) (كِتَابُ التَّفْسِيرِ، سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) (٢/ ٣٦–٣٧). وَجَاءَ الْحَدِيثُ مُخْتَصَرًا بِمَعْنَاهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (٤/ ٢٩٦) (كِتَابُ السُّنَّةِ، بَابٌ فِي الْخُلَفَاءِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) (١٥/ ٨٣–٨٤).

(٤) الْحَدِيثُ عَنْ أُمِّ مُبَشِّرٍ–رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–فِي مُسْلِمٍ (٤/ ١٩٤٢) (كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابٌ: مِنْ فَضَائِلِ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ)،

=

فَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ إِمَامٍ لِأَهْلِ السُّنَّةِ، يَشْهَدُونَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَهِيَ شَهَادَةٌ بِعِلْمٍ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

وَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ تَوَاطُؤَ شَهَادَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ. كَمَا فِي الصَّحِيحِ «عَنِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أَنَّهُ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ: ((وَجَبَتْ وَجَبَتْ)). وَمُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا: شَرًّا فَقَالَ: ((وَجَبَتْ وَجَبَتْ)). فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا قَوْلُكَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ؟ قَالَ: ((هَذِهِ الْجِنَازَةُ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقُلْتُ: وَجَبَتْ لَهَا الْجَنَّةُ. وَهَذِهِ الْجِنَازَةُ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهَا شَرًّا، فَقُلْتُ: وَجَبَتْ لَهَا النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ)).(١)

وَفِي الْمُسْنَدِ «عَنِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أَنَّهُ قَالَ: ((يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ)). قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ))(٢)

وَقَدْ يَكُونُ سَبَبُ ذَلِكَ تَوَاطُؤُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ النَّبِيَّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قَالَ: " ((لَمْ

وَنَصُّهُ فِيهِ: أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: لَا يَدْخُلُ النَّارَ-إِنْ شَاءَ اللَّهُ-مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدُ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا " قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَانْتَهَرَهَا. فَقَالَتْ حَفْصَةُ: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٧١]، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٧٢]، وَالْحَدِيثُ عَنْهَا أَيْضًا فِي الْمُسْنَدِ (ط. الْحَلَبِيِّ) (٦/ ٣٦٢، ٤٢٠)، وَعَنْ حَفْصَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-فِي: سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (٢/ ١٤٣١) (كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ ذِكْرِ الْبَعْثِ).

(١) الْحَدِيثُ مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي الْبُخَارِيِّ (٣/١٦٩) (كِتَابُ الشَّهَادَاتِ، بَابُ تَعْدِيلِ كَمْ يَجُوزُ)، (٢/٩٧) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَى الْمَيِّتِ)، مُسْلِمٍ (٢/٦٥٥-٦٥٦) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ فِيمَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ الْمَوْتَى)، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ (٢/٢٦١) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ الْحَسَنِ عَلَى الْمَيِّتِ)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَفِي الْبَابِ عَنْ عُمَرَ وَكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، سُنَنِ النَّسَائِيِّ (٤/ ٤١)، (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ الثَّنَاءِ)، سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (١/ ٤٧٨) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ)، وَجَاءَ حَدِيثٌ آخَرُ بِمَعْنَاهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ وَسُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ فِي الْمَوْضِعَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وَهُوَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (٣/ ٢٩٦) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابٌ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) (١٣/ ٢٧٧-٢٧٨) وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى.

(٢) الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ الثَّقَفِيِّ عَنْ أَبِيهِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي: سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (٢/ ١٤١١) (كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ الثَّنَاءِ الْحَسَنِ)، وَقَالَ الْمُعَلِّقُ فِي الزَّوَائِدِ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، رِجَالُهُ ثِقَاتٌ، وَلَيْسَ لِأَبِي زُهَيْرٍ هَذَا عَنِ ابْنِ مَاجَهْ سِوَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ فِي بَقِيَّةِ الْكُتُبِ السِّتَّةِ، وَالْحَدِيثُ فِي الْمُسْنَدِ (ط. الْحَلَبِيِّ) (٣/ ٤١٦)، (٦/ ٤٦٧).

يَبْقَ بَعْدِي مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ)). (١)

«وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾ [سُورَةُ يُونُسَ: ٦٤] قَالَ: ((هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ)). (٢)

وَقَدْ فَسَّرَهَا أَيْضًا بِثَنَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، «فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ يَعْمَلُ لِعَمَلٍ لِنَفْسِهِ فَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ. فَقَالَ: ((تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ)). (٣)

وَالرُّؤْيَا قَدْ تَكُونُ مِنَ اللَّهِ، وَقَدْ تَكُونُ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَقَدْ تَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَوَاطَأَتْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَمْرٍ كَانَ حَقًّا، كَمَا إِذَا تَوَاطَأَتْ رِوَايَاتُهُمْ أَوْ رَأْيُهُمْ فَإِنَّ الْوَاحِدَ قَدْ يَغْلَطُ أَوْ يَكْذِبُ، وَقَدْ يُخْطِئُ فِي الرَّأْيِ، أَوْ يَتَعَمَّدُ الْبَاطِلَ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ، وَإِذَا تَوَاتَرَتِ الرِّوَايَاتُ أَوْرَثَتِ الْعِلْمَ، وَكَذَلِكَ الرُّؤْيَ قَالَ: النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: " ((أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ عَلَى أَنَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَحَرِّيهَا، فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ)). (٤) (٥)"

---

(١) الْحَدِيثُ -مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِي: الْبُخَارِيِّ (٩/ ٣١) (كِتَابُ التَّعْبِيرِ، بَابُ الْمُبَشِّرَاتِ)، وَجَاءَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ آخَرَ بِنَفْسِ الْمَعْنَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فِي مُسْلِمٍ ٣٤٨/١ (كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابٌ فِي الدُّعَاءِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ)، سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (١/ ٣٢١) (كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابٌ فِي الدُّعَاءِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ)، سُنَنِ النَّسَائِيِّ (٨/ ١٤٨)، (كِتَابُ التَّطْبِيقِ، بَابُ تَعْظِيمِ الرَّبِّ فِي الرُّكُوعِ)، سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (٢/ ١٢٨٣) (كِتَابُ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا، بَابُ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) (٣/ ٢٧٥).

(٢) الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ (٣/ ٣٦٤-٣٦٥) (كِتَابُ الرُّؤْيَا، بَابُ ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّـــرَاتُ)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَـــنٌ. وَتَكَرَّرَ هَذَا الْحَدِيثُ: (٣٥٠/٤) (كِتَابُ التَّفْسِيرِ، وَمِنْ سُورَةِ يُونُسَ)، سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (٢/ ١٢٨٣) (كِتَابُ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا، بَابُ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ)

(٣) الْحَدِيثُ -مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ- عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ -رَضِـــيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِي مُسْـــلِمٍ (٤/ ٢٠٣٤-٢٠٣٥) (كِتَابُ الْبِرِّ وَالصِّـــلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ إِذَا أُثْنِيَ عَلَى الصَّالِحِ فَهِيَ بُشْرَى وَلَا تَضُرُّ)، سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (٢/ ١٤١٢) (كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ الثَّنَاءِ الْحَسَنِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْحَلَبِيِّ) (٥/ ١٥٦، ١٥٧، ١٦٨).

(٤) الْحَدِيثُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِـــيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، فِي الْبُخَارِيِّ (٣/ ٤٦) (كِتَابُ فَضْـــلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، بَابُ الْتِمَاسِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي السَّـــبْعِ الْأَوَاخِرِ)، مُسْـــلِمٍ (٢/ ٨٢٢) (كِتَابُ الصِّـــيَامِ، بَابُ فَضْـــلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ)، الْمُوَطَّأِ (١/ ٣٢١) (كِتَابُ الِاعْتِكَافِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) (٦/ ٢٣١).

(٥) منهاج السنة: (٣/ ٤٩٧ . ٥٠٠).

كما قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى[١]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكذلك من أجمعت الأمة على الثناء عليه فإننا نشهد له بالجنة فمثلا الإمام أحمد–رحمه الله–الشافعي أبو حنيفة مالك سفيان الثوري سفيان بن عيينة وغيرهم من الأئمة أجمعت الأمة على الثناء عليهم فنشهد لهم بأنهم من أهل الجنة. شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–أجمع الناس بالثناء عليه إلا من شذ ومن شذ، شذ في النار يشهد له بالجنة على هذا الرأي." اهـ [٢]والله أعلم.

وقد أجيب على أدلة هذا القول بأن الحديث الأول يفيد أن شهادة المؤمنون لبعضهم بالخير والصلاح توجب نفعه وصلاحه في الآخرة، ولا يجزم بها على العموم، فإحسان الظن بالمسلمين هو الأصل ولكن هذا لا يبنى عليه يقين بمآله.

وهنا فائدة مهمة على قوله وجبت وجبت: وهي على الصحيح من التحقيق والجزم، فقيل أنها من خصائصه صلى الله عليه وسلم، ولا يجزم بها لغيره لأنها غيب، ولعل نبينا اطلع على ذلك بطريق الوحي. واختار هذا القول ابن التين.

ويرده قول عمر لها أيضا لجنازة مرت عليه، كما في الصحيح.

وفي معناها أيضا قال الإمام الطحاوي: "وجه ذلك عندنا والله أعلم أن الشهادة بالخير لمن شهد له به ستر من الله عز وجل عليه في الدنيا ومن ستره الله عز وجل في الدنيا لم يرفع عنه ستره في الآخرة"اهـ [٣]

ومما قيل في معناها أيضا: أن انطلاق الألسنة بالثناء الحسن علامة على وجوب الجنة للمثنى عليه به، وليست جزما على الغيب. والله أعلم.

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٣/ ١١٧).

(٢) لعل شيخنا العثيمين رحمه الله تعالى ذكره بالمعنى وهذا نصه قال ابن تيمية: "وَمَعَ هَذَا يُمكن الْعلم بذلك للْوَلِيّ نَفسه وَلغيره وَلكنه قَلِيل وَلَا يجوز لَهُم الْقطع على ذَلِك فَمن ثبتَتْ ولَايَته بِالنَّصِّ وَأَنه من أهل الْجنَّة كالعشرة وَغَيرهم فعامة أهل السّنة يشْهدُونَ لَهُ بِمَا شهد لَهُ بِهِ النَّص، وَأما من شاع لَهُ لِسَان صدق فِي الْأمة بِحَيْثُ اتّفقت الْأمة على الثَّنَاء عَلَيْهِ فَهَل يشْهد لَهُ بذلك هَذَا فِيهِ نزاع بَين أهل السّنة وَالْأَشْبَه أَن يشْهد لَهُ بذلك هَذَا فِي الْأَمر الْعَام». دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (٢/ ٢٢١).

(٣) بيان مشكل الآثار (٨/ ١٠٨)

أما الحديث الثاني: فهو أصرح في بيان المقصود لقوله: (يوشك) وقوله: (بالثناء الحسن والثناء السيئ) يعني ما هو إلا ثناء على الظاهر لا يجزم له على الحقيقة بالجنة أو النار، فيخلص من هذا أن الكلمة على الرجاء والتمني وليست على التحقيق والتألي.

ومن الخلاف: هل هذا خاص بزمن الصحابة أم أنه عام للمؤمنين في كل زمان؟

الصحيح المختار: أنه عام ولكن في غير زمن الصحابة يحتاج إلى الإجماع.

وعليه فرأي الجمهور هو الصواب، وهو أنه لا يشهد لأحد بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا إذا ورد نص أو إجماع.

وأعني بالإجماع هنا ما يراد به حكم الجماعة المسلمة في وقت ما على المعين بأنه من أهل الجنة، فهو من أهل الجنة إن شاء الله تعالى حسب الظاهر للمسلمين وقتئذ ولا يقطع به جزما لأنه ضرب من الغيب، لذلك نصوب من يقول: هو من أهل الجنة إن شاء الله تعالى.

وعلى هذا: لا يصح الاستثناء للمعين بالشهادة فنقول هو شهيد إن شاء الله، للنهي الوارد فيما ذكرنا أعلاه، وإنما نقول نرجو له الشهادة أو نقول كما علمنا عمر: من فعل كذا فهو شهيد عن عُمَرَ أَنَّهُ خَطَبَ فَقَالَ تَقُولُونَ فِي مَغَازِيكُمْ فُلَانٌ شَهِيدٌ وَمَاتَ فَلَانٌ شَهِيدًا وَلَعَلَّهُ قَدْ يَكُونُ قَدْ أَوْقَرَ رَاحِلَتَهُ أَلَا لَا تَقُولُوا ذَلِكُمْ وَلَكِنْ قُولُوا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ قُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ"(١).

وخلاصة القول: هذه المسألة من مسائل الأسماء والأحكام، فليس لك أن تشهد لمعين أنه من أهل الجنة أو من أهل النار، لأنك لا تدري ماذا يُختم له، فقد يُصبح المرء مسلماً ويُمسي كافراً يمسي كافراً ويصبح مؤمناً، فلا يُدرى ما هي خاتمة كل أحدٍ منا، ولذلك كان من الدعاء: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

فقد ترى الرجل على معصية وعلى شر، وعلى حالٍ لا يرضي الله عز وجل لكن قد يُختم له بخاتمة حسنة، فقد يتوب فيتوب الله عليه، فلذلك لا نشهد لأحدٍ بعينه بجنة أو نار، لكن

(١) انظر فتح الباري لابن حجر (٦/٩٠).

نرجو للمحســـن الخير ونخاف على المســـيء، فإنك لا تدري بما يُختم له عند الموت ترجو له رحمة الله وتخاف عليه ذنوبه، فترجو إذا كان على خير أن يُختم له بخير، وإن كان على شـر أن يُختم له إن شاء الله تعالى بتوبة.



الفهرس